

حرب أكتوبر 1973م

في مذكرات القادة

محمد عبد الرحمن عريف

الطبعة الأولى 2022م

حرب أكتوبر 1973م في مذكرات القادة

القارئ الكريم:

سلسلة الدراسات التوثيقية هي مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية الرصينة الهادفة، عملت دار آريثريا للنشر والتوزيع على تبنيها والاهتمام بها ونشرها بالشراكة مع مجلة القلزم للدراسات التوثيقية.. خدمة للبحث العلمي في مجال الدراسات والبحوث التوثيقية.

القارئ الكريم:

تضمن دار آريثريا للنشر والتوزيع المجهودات العلمية لجميع المفكرين والمختصين والباحثين من مختلف الدول العربية وخارجها، وتؤكد بأنها سوف تعمل بكل جد واجتهاد على توسيع قاعدة النشر العلمي وإتاحته عبر الدار وشركائها، لنشر البحوث التي تسهم في رفد المكتبة العربية والعالمية بالجديد المفيد.

القارئ الكريم:

العالم اليوم يؤمن بالعمل الجاد والبحوث العلمية الرصينة ذات المردود الإيجابي على الفرد والمجتمع، ومن خلال هذا المحور نعمل دائماً - بحول الله تعالى - كي تكون الدار منبراً علمياً يشار إليه بالبنان. بإذنه تعالى.



دار آريثريا للنشر والتوزيع
Arrythria for Publishing and Distribution

حرب أكتوبر 1973م في مذكرات القادة

محمد عبدالرحمن عريف

الطبعة الأولى 2022

إشراف

أ.د. حاتم الصديق محمد أحمد - د. عوض شبا

الكتاب : حرب أكتوبر 1973م في مذكرات القادة
تاريخ النشر : الطبعة الأولى 2022م

التصميم والإخراج: علي عبد الحليم كابتود

حقوق النشر محفوظة للدار

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكلٍ من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الكاتب.

إن دار إريثريا للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلفين وأفكارهم، وتعتبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلفين ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.



دار آريثيريا للنشر والتوزيع

Arrythria for Publishing and Distribution

جوال :- 00249121566207 002499107858555

arithriaforpublishing@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾

(البقرة: 154)

محتويات الكتاب

8	مقدمة وتهييد
11	محمد أنور السادات: "من أوراقه" إلى "البحث عن الذات"
26	أحمد إسماعيل علي: "مشير النصر"
31	سعد الدين الشاذلي: "مهندس حرب أكتوبر 1973"
45	محمد أحمد صادق: «سنوات في قلب الصراع»
	أحمد بدوي: المشير بين "قصة صمود السويس
63	" وصولاً لـ "قيادة الجيش الثالث الميداني"
76	كمال حسن علي: في "مشاوير العمر: أسرار وخفايا"
87	محمد عبدالغني الجمسي: "ثعلب الصحراء المصري"
92	فؤاد أبو ذكري: "قائد القوات البحرية خلال حرب أكتوبر"
110	عبد المنعم خليل: "حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني"
	محمد علي فهمي: أول قائد لقوات الدفاع الجوي المصري و"حارس السماء
127	المُحرقة"
	محمد حسنى مبارك: قراءة «كلمة السر.. مذكراته بين (يونيو 67 -
135	أكتوبر 73)»
	سعد مأمون: بين قيادة (القوات العربية في اليمن 1966) و(الجيش
160	الثاني الميداني 1973)
172	جمال حماد: «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»

إهداء...

لا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله: هو ميت، فإن
الميت من خلقه مَنْ سلبه حياته وأعدمه حواسه.. وهذا
إهداء لمن قُتل منهم في سبيل الله، أحياءً عنده، في حياة
ونعيم، وعيش هَنِيٍّ، ورزق سَنِيٍّ، فَرَحِين بما آتاهم من
فضله، وَحَبَاهم به من كرمه.. إلى روح الشهيد الأبّي الرائد/
محمود منير يونس.. وشهيد الواجب الوطني جندي/
عبدالرحمن سليمان عريف.. إليهم جميعاً هؤلاء الأبطال
هذا العمل المتواضع.

شكر وتقدير وعرfan

يتقدم الكاتب بالشكر والتقدير والعرفان لدار آريثيريا للنشر والتوزيع ومركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر ممثلاً في رئيسه بروفيسور/ حاتم الصديق.. لتبنيه صدور الكتاب التوثيقي رقم (16) للمركز بعنوان:

(حرب أكتوبر 1973م في مذكرات القادة)

وهو من ضمن سلسلة الدراسات التوثيقية التي يصدرها مركز بحوث ودراسات دول حوض البحر الأحمر - السودان بالشراكة مع دار آريثيريا للنشر والتوزيع.. فلهم جميعاً خالص الشكر والتقدير والعرفان.

فكل الشكر والعرفان لكم أيها الأحبة. رسالة أبعثها بملء الحب والعطف والتقدير والاحترام، يعجز الشعر والنثر والكلام كله عن ذكر شكركم، وتقديركم فلكم كل الشفاء، وجزيل الشكر، وصادق العرفان، على كل ما فعلتم وتفعلون.

الكاتب

محمد عبدالرحمن عريف

قناة السويس - مصر

ربيع / 2022

مقدمة وتمهيد

في هذا الكتاب نعرض لكواليس حرب أكتوبر 1973م، فجاءت البداية عند هنا القاهرة.. عبارة حماسية تحمل مشاعر الانتماء للوطن وكانت من أولى الكلمات التي انطلقت عبر الإذاعة المصرية على لسان أحمد سالم في افتتاحها عام 1934 وتم اعتمادها كعبارة رسمية لبدء إرسال كل الإذاعات المصرية التي انطلقت في السنوات التالية..

كذلك فهي المذكرات نوع من أنواع الكتابة التاريخية يعني بوصف الأحداث وتعليلها، وبخاصة تلك التي لعب فيها كاتب المذكرات دورًا أو تلك التي عاشها أو شهدها من قريب أو بعيد. وقد انتشر أدب المذكرات بعد الحرب العالمية الثانية فأصبح من عادة القادة العسكريين ورؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات أن يفرغوا، في أواخر حياتهم، لكتابة مذكراتهم، وهناك رأي أن الفرنسيين فاقوا غيرهم من الشعوب في هذا الفن الأدبي. ومن أشهر كتاب المذكرات عندهم، الدوق "دو سان سيمون وشاتوبريان"، و"الجنرال ديغول". وإن كان هناك المذكرات التي كتبها الضابط الإنجليزي "المارشال مونتغمري"، والرئيسان "نستون تشرشل" رئيس الوزراء بانجلترا و"ريتشارد نيكسون" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية وغيرهم.

المذكرات.. هل هي تاريخ شخصي أم أرشيف ذكريات؟. هل هي مجرد سجل يومي محايد أم هكذا تبدو؟. ربما كانت وسيلة هروب من وطأة الواقع، أو تخليدًا للحظة ما لا يرغب صاحبها في أن تموت. قد يجملها ويكسوها بما يشاء، ربما يجنح به الخيال ويتوهم حدوث ما لم يحدث، ليصنع حياة زائفة تتوازى مع الحقيقة. وفي حالات أخرى قد لا يجد الإنسان مفرًا للانعتاق من تفاصيل حميمة أو ذكريات جارحة تلاحقه، سوى الكتابة، يحول الأشياء حروفًا يلقيها أمامه على الورق يتركها لتُقرأ مرارًا حتى تذوي لعله يرتاح.

البعض ضد كتابة المذكرات ولا يحب العودة إلى تفاصيل الماضي، لأنها لا تضيف شيئًا، ويرى البعض أن ظاهرة كتابة المذكرات أو اليوميات قديمة قدم التاريخ، بدأت مع المؤرخين القدامى والرحالة والمغامرين والمستكشفين سواء من الغربيين أو غيرهم، وخير مثال على ذلك العالم المرموق ابن خلدون الذي شرح أحوال الأمصار، وتجول في كل الجهات يلاحظ ويكتب ويوثق. فهذه المذكرات بشكلها الراهن بدأت

عند المستشرقين أو الفاتحين الذين جابوا ما وراء البحار وكتبوا عن مجتمعات أخرى مختلفة تماماً في العادات والتقاليد، فسجلوا ملاحظات مهمة تشير إلى أحوال الأمم. ثم درس علماء الاجتماع أحوال المجتمعات البدائية وعقلوا على عاداتهم في أدغال الأمازون أو مجاهل إفريقيا.

في الوقت الراهن أصبح كل فرد يكتب ملاحظاته ويوميته وهذا سلوك حضاري نشاهده بكثرة عند الأوروبيين، فلا نجد أحداً منهم إلا ويكتب يومياته، وهذا السلوك الإيجابي ينظر له الغرب باحترام بالغ لأن حصيلة هذه المذكرات سيكون تاريخاً بالغ الغنى والتنوع. لذلك يميل الكثير من الغربيين إلى التفرغ للكتابة في عمر معين يساعدهم على ذلك الأرشيف الضخم من اليوميات التي دونت عبر سنوات طويلة. فلهذه الظاهرة جذوراً نفسية تستند إلى الرغبة في الخلود، وهذا سلوك يتفق عليه البشر ابتداء من رغبة الإنسان في الانجاب وصولاً إلى سعيه لترك أثر ما يدل عليه بعد الرحيل ويخلد ذكره.

هنا «وجدت لزماً عليّ بعد ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزته قواتنا المسلحة في حرب أكتوبر 1973م المجيدة، التي استعادت به مصر كرامتها وشرفها وسمعتها أن أسجل هذه الملحمة الحربية الفذة تسجيلاً أميناً بعيداً عن التحيز والمبالغة، وأن أقوم بالتحليل الفني لجميع أحداث ومواقف هذه الحرب بكل صراحة وصدق. وكان اهتمامي بإبراز نقاط الضعف والأخطاء التي ارتكبت يماثل نفس اهتمامي بالإشادة بنقاط القوة والتفوق التي ظهرت، إذ إن إبراز كلتا الناحيتين هو الوسيلة الصحيحة للاستفادة من دروس الحرب بتجاربها دون زيف أو خداع». هكذا تحدث "جمال حماد" نعم نادرة هي تلك الكتب والدراسات التي تناولت التحليل الفني الجاد والرصين لمجرى الحوادث على جبهات القتال في حرب أكتوبر 1973م، بالرغم من طوفان الكتب التي نشرت منذ قيام هذه الحرب وحتى الآن على مدار أعوام، رغم ندرة الوثائق العربية المفرج عنها والخاصة بهذه الحرب؛ الأمر الذي جعل الجاد من هذه الكتب يطرح أسئلة أكثر مما يجيب عن تساؤلات هذه الملحمة التي لم تبوح بكل أسرارها حتى اللحظة.

سبق أن صدرت الطبعة الثانية من كتاب "حرب أكتوبر شهادة إسرائيلية" تأليف الكاتب الصحفي وجية أبو ذكري والذي سطر فيه اعترافات القادة الإسرائيليين

عن حرب أكتوبر. ويوضح أبو ذكري أن الجيش المصري وقيادته واجها بعد حرب الأيام الست عام 1967م حرباً نفسية شديدة ولم تسلم كتابات العرب والأجانب من الاستخفاف بالجيش المصري ولم تكن كتابات هؤلاء المراسلين منصفة للقوات المسلحة المصرية، بل كانت منحازة على طول الخط للجيش الإسرائيلي، وسط هذه الحرب النفسية كانت مصر تجهز نفسها للحرب سراً وفي السادس من أكتوبر عام 1973م أنطلقت كل طاقات مصر لتعزف في تنسيق عظيم ملحمة أكتوبر الخالدة. وتضمن الكتاب ست شهادات إسرائيلية عن حرب أكتوبر لم تستطع إخفاء بسالة الجيش المصري ونهاية أسطورة الجيش الذي لا يقهر أمام تصميم وعزيمة المقاتل المصري. وفي النهاية يؤكد أبو ذكري أن حرب أكتوبر كانت نصراً عظيماً للعرب حتى من خلال اعترافات قادة إسرائيل أنفسهم فما حدث في أكتوبر 73م لم يحدث في كل تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي، حيث أكدت شهادات العدو على قدرة الإنسان المصري على العطاء والمقاومة ومعايشة الأحوال لتحقيق الأهداف الكبرى.

الكاتب

قناة السويس - مصر

شتاء 2022

محمد أنور السادات:

"من أوراقه" إلى "البحث عن الذات"⁽¹⁾

في هذا الكتاب رسم السادات لنفسه صورة أسطورية كشخصية حكيمة نبيلة متدينة دقيقة التفكير وهاجم فيه بضراوة شخصية سلفه عبد الناصر وصوره كشخص حقود متهور وعصبي وصور عهده كمصيبة ضربت مصر، وقال أنه ترك له مصر بلدًا ممزقًا بالفتن والأزمات السياسية والاقتصادية والعسكرية، كما هاجم عبد الحكيم عامر ووصفه بالجهل والشللية وإدمان الأخطاء والانسياق وراء معاونيه، وبالنسبة لحسنين هيكل فلم يذكر السادات أسمه طيلة صفحات الكتاب من شدة ضيقه منه وقام بتسميته (المستشار الصحفي للرئيس عبد الناصر) وألصق به تهم الحقد على العائلات الكبيرة وفبركة البيانات واستغلال قربه من عبد الناصر في تكوين مركز قوى.

لقد بلغت الأمور ذروتها عندما حكي السادات عن أسباب عدم عمله بمجلة روز اليوسف أثناء فترة فصله من الجيش قبل الثورة وبررها بأن المجلة لم تكن تحتل كاتبين كبيرين مثله هو وإحسان عبد القدوس، وكذلك عدم عمله بمجلة الهلال لنفس السبب وهو وجود كاتبين كبيرين مثله ومثل الأستاذ كامل الشناوي. وأنصب معظم غضبه على الاتحاد السوفيتي الذي اتهمه بمحاولة إذلال مصر والسيطرة عليها وغزوها بالفكر الشيوعي. هكذا لم يسلم أحد من اتهامات السادات إلا صديقه الملك فيصل حيث يعترف السادات بصداقته له حتى في ذروة الخلافات المصرية السعودية أثناء حرب اليمن التي كان أنور السادات خلالها هو المسئول عن ملف السعودية واليمن ومقاومة النشاط السعودي المضاد لمصر حتى قام أحرار السعودية بإبلاغ الرئيس عبد الناصر باتصالات السادات المريية بكمال أدهم مدير المخابرات السعودية فأنهى الرئيس عبد الناصر مسئولية السادات عن هذا الملف. ومن الغريب أن علاقات السادات بالسعوديين عادت بشكل ملفت للنظر عقب وفاة الرئيس عبد الناصر بزيارات مدير المخابرات السعودية كمال أدهم المتكررة لمصر ولقاءاته بالسادات، كما يشيد السادات بصديقه وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر وصديقه شاه إيران محمد رضا بهلوي.

(1) مولعًا برواية قصة حياته للعالم "من أوراق السادات" إلى "البحث عن الذات"، رأي اليوم اللندنية.

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية <https://www.raialyoum.com>.

هكذا قال الرئيس السادات كلمته وترك لنا كتاب (البحث عن الذات).. فجأة قرر أنيس منصور صديق السادات وجليسه أن يصدر كتاباً تحت أسم (من أوراق السادات) جمع فيه سلسلة من الحكايات رواها له الرئيس السادات حتى عام 1977، كما ورد في الكتاب، ويبدو اختيار السادات لأنيس منصور بالذات كجليس دائم له ومعبر عن أفكاره وكاتب لمذكراته ذو دلالة عن كيفية تفكير الراحل، فأنيس منصور أشتهر منذ بداية عمله بالصحافة بالكتابة عن تحضير الأرواح وقراءة الفنجان، والمخلوقات الفضائية التي هبطت من السماء وبنت لنا الأهرامات ثم عادت إلى السماء مرة أخرى، ولعنة الفراعنة والوجودية والرحلات ولم يعرف عنه أي اهتمامات سياسية غير مدح عبد الناصر وحركة يوليو فكان من أشد المؤيدين للحركة ولعبد الناصر وقد دمج مقالات عديدة في الإشادة بعبد الناصر وحكمته وزعامته المتفردة، كما كان وثيق الصلة بشقيقه شوقي عبد الناصر.

لقد ظل أنيس منصور يرثي عبد الناصر عقب وفاته ولمدة عام كامل بعدها حتى سبتمبر 1971، ويبدو ذلك الأمر في حاجة إلى طبيب نفسي خاصة في ظل انقلاب أنيس اللاحق على عبد الناصر وعهده، فالزعيم رحل ورجاله في السجون والثورة تم الانقراض عليها فما داعي أنيس إلى النفاق إلا إذا كان مازال يتحسس اتجاه الرياح القادمة حتى يتبعها، وبعدها أطمأن أنيس إلى بداية الحملات الظالمية لتشويه عبد الناصر وعهده ورجاله وإثر اختيار السادات له كمعبر عن أفكاره شارك في حملة الهجوم على عبد الناصر وعهده بنشاط فائق ووجه لعبد الناصر أبشع وأقذر التهم في مقالاته، ثم جمع معظم تلك النفايات في كتاب سماه (عبد الناصر المفترى عليه والمفترى علينا)، وبين كل حين وآخر يقوم بتوجيه شتائم جديدة لعبد الناصر بدون سبب وكأنه مصاب بحساسية جمال عبد الناصر فكلما تذكر اسمه انتابته الحكمة والتي لا تهدأ إلا بعد أن يسبه.

يقول أنيس: (رأيت شخصية يهودية مخلصة تقول للرئيس السادات: لو قبلت قدميك الآن فسوف يكون ذلك أعمق صلاة.. فقد أنقذت شعبي من الدمار). ص 48 من كتاب رسائل أنيس منصور. وفي ص 96 من كتاب (رسائل أنيس منصور) يذكر منصور أن الرئيس الإسرائيلي سأل وفداً من مجلس الشورى المصرى: أين أنيس منصور؟ ثم قال الرئيس الإسرائيلي عنه: (يوم يكتب التاريخ ستعرفون ما هو الدور الهام الذى قام به أنيس منصور لتحقيق السلام بين مصر وإسرائيل).

بقراءة مقالات أنيس منصور نجد أنه لم يهاجم إسرائيل وقادتها مطلقًا بينما ينصب هجومه على عبد الناصر والفلسطينيين والعرب عامة، وعندما ظهرت شركات توظيف الأموال الإسلامية في مصر كان أنيس منصور من أشد المؤيدين لها ودبح المقالات في الإشادة بها وعمل مستشارًا إعلاميًا لعدد منها، وعندما اندلعت الانتفاضة الفلسطينية الأولى ضد الاحتلال الاسرائيلي كتب يقول (ما يجري من مقاومة بالأراضي المحتلة يتم تحت تهديد من منظمة التحرير الفلسطينية) للتهوين من شأن الانتفاضة والإيحاء بكونها تتم تحت ضغط من الخارج وليست نابعة من مأساة الشعب الفلسطيني.

أوراق السادات بيد أنيس منصور:

يقول أنيس في مقدمة كتاب (من أوراق السادات) أن كتابه تفريخ لجلسات طويلة مع الرئيس السادات يحكي الرئيس الراحل فيها قصة حياته، وإن كان تركيزها الأساسي على العلاقات المصرية السوفيتية في عهدي الرئيسين عبد الناصر والسادات، وأول ما يخطر على بال القارئ أن الكتاب يحوي مذكرات جديدة للرئيس الراحل كانت في حوزة الأستاذ أنيس ولكن يتضح لنا أن تلك المذكرات نشرت من قبل على صفحات مجلة أكتوبر التي أنشأها السادات وقام بتعيين أنيس رئيسًا لتحريرها. كان السادات يأمل أن تنافس مجلة أكتوبر مجلة الحوادث اللبنانية التي كانت تحظى بشعبية واسعة في العالم العربي ولكن أنيس فشل في مهمته رغم الإمكانيات الضخمة التي وفرها له الرئيس الراحل ونجح أنيس بمهارة لا يحسد عليها أن يهوي بتوزيع المجلة التي لم تستطع أن تنافس حتى مجلة ميكي في مصر.

يقول أنيس في المقدمة التي وضعها للكتاب (لم يلجأ الرئيس السادات إلى ورقة أو كتاب ينقل منه بعض ذكرياته أو خواطره أو يراجع ما جاء فيها من تواريخ) تبدو هذه العبارة شديدة الصدق خاصة عندما تتعلق بالرئيس السادات الذي كان معروفًا عنه كراهيته للقراءة وللأوراق والوثائق، وحبه للحكايات التي كل شهودها وأبطالها أموات، وإن كان هذا يعطينا فكرة عن قيمة الكتاب كحكاوي وقصص بلا دليل تمثل وجهة نظر الرئيس الراحل.

كتب أنيس على الغلاف الأخير للكتاب (نجد في هذه الأوراق رصدًا دقيقًا لأحداث ثورة يوليو سنة بسنة وكشفًا لأسرار ثورة مايو وتوثيقًا تاريخيًا لمعركة

أكتوبر باليوم والساعة والدقيقة).. هكذا كما يوحى لنا الأستاذ أنيس سوف نجد في تلك الأوراق تاريخ مصر لمدة تزيد عن 20 سنة وسوف نكتشف معا زيف كل تلك الكلمات بل أن أخطاء التواريخ لا تعد في ذلك الكتاب ومنها أن مبادرة روجرز كانت قبل آخر زيارة لعبد الناصر للاتحاد السوفيتي بينما هي تمت أثناء زيارة عبد الناصر الأخيرة، وأن كوسيجين زار مصر يوم الثغرة 16 أكتوبر 1973 بينما وقعت الثغرة مساء يوم 14 أكتوبر 1973، وأن الانفصال تم يوم 26 سبتمبر 1961 بينما هو تم يوم 28 سبتمبر 1961، ويقول السادات أنه في أغسطس 1967 كانت قد مرت على معرفته بعبد الناصر 19 عامًا بينما هو يعرفه منذ عام 1938 أي منذ 29 عامًا، وفي صفحة 243 من الكتاب صورة للسادات بالملابس العسكرية يعبر أحد الجسور من غرب القناة إلى سيناء وحوله قادة القوات المسلحة وأمامه المصورين والتعليق المكتوب عليها (الرئيس السادات مع القوات المسلحة لحظة العبور) بينما الثابت تاريخيًا أن حرب أكتوبر لم يتم تصويرها لدواعي السرية، وأن المشاهد والأفلام التي تذاع عنها هي تصوير لمناورة تمت عام 1974، وكانت طبق الأصل من معارك العبور عام 1973، كما أن الرئيس السادات لم يزر سيناء أثناء الحرب ولم يكن مطلوبًا منه ذلك.

قراءة (أوراق السادات):

السادات هو المتحدث الأوحده على صفحات الكتاب فهو الذي يروي لنا الأحداث منذ بداية الكتاب وحتى نهايته، وهذه أول نقاط التشابه بين هذا الكتاب وكتاب الرئيس السادات (البحث عن الذات)، وبينما فصول كتاب (البحث عن الذات) مرتبة تاريخيًا من الأقدم فالأحدث، فإن فصول هذا الكتاب غير مرتبة تاريخيًا، يلفت النظر في هذا الكتاب أنه يتخذ موقفًا أفضل نسيًا من شخصية الرئيس عبد الناصر مقارنة بكتاب البحث عن الذات، وإن لم يذكر كل الحقيقة، فالسادات يصف سلفه الرئيس عبد الناصر بالطيبة والهدوء والذكاء الشديد والقدرة على التخطيط والدهاء السياسي، ويعترف أنه قائد ثورة 23 يوليو وزعيم الضباط الأحرار ومفجر الثورة وعقلها المدبر وكاتب بيانها الأول مع عبد الحكيم عامر، وأنه رجل إذا قال فعل وإذا وعد فإنه يفي بالوعد وأنه لم يكن أبدًا شيوعيًا، كما يذكر بعض أعمال عبد الناصر مثل تأميم القناة وإعادة بناء الجيش بعد النكسة وحرب الاستنزاف، ولكن كل ذلك ليس صحة

ضمير من السادات بل لكي يصور عبد الناصر كضحية لتعنت وغدر السوفيت وليتهم السوفيت بقتل عبد الناصر وتحطيم معنوياته،

في فصل من الكتاب عنوانه (التصنيف اللعين) يعاود السادات هجومه على عبد الناصر ويمدح الملك فيصل ويروي وقائع مختلقة عن إحساس عبد الناصر بالهزيمة المعنوية بعد موقف الملك فيصل من مصر بعد النكسة في مؤتمر القمة بالخرطوم في أغسطس 1967، ولكن الحقائق التاريخية تروي أن مؤتمر القمة بالخرطوم عقب النكسة كان بمثابة عودة الروح لعبد الناصر الذي تم استقباله من الشعب السوداني بصورة أسطورية لا توصف خاصة أنها كانت أول زيارة له لقطر عربي بعد الهزيمة وهذه الزيارة التاريخية مسجلة في جريدة مصر الناطقة لمن يرغب في رؤيتها، وكانت حفاوة عشرات الألوف من أبناء السودان بعبد الناصر هي السبب الذي جعل استقباله الحدث الأول إعلاميًا في العالم وقتها وقد نشرت كل الصحف العالمية في صفحاتها الأولى تغطية للاستقبال وصور التفاف الشعب السوداني حول عبد الناصر، ونشرت مجلة (نيوزويك) الأمريكية على غلافها صورة لعبد الناصر محاطًا بعشرات الألوف من أبناء الشعب السوداني وكتبت تحتها (المجد للمهزوم هذه أول مرة في التاريخ يتم فيها استقبال قائد مهزوم بأكاليل الغار كالفاتحين والمنتصرين)، وعندما مر موكب الملك فيصل خلف موكب الرئيس عبد الناصر هتفت له الجماهير السودانية (وراء جمال يا فيصل)، وفي هذا المؤتمر تم تكريس المقاومة ورفض العدوان وخرج المؤتمر باللائات الثلاثة الشهيرة (لا صلح، لا اعتراف، لا تفاوض).

خلافات السادات:

يقول السادات عن السيدين علي صبري وضياء الدين داوود بالنص في صفحة 144 من الكتاب (فقد رفضت دعوتهما إلى بيتي حرصًا على نظافة بيتي وأي مقعد يجلس أي منهما عليه) ووصف الشيخ المحلاوي بالكلب ووصف العقيد القذافي بالجنون ووصف العرب بالأقزام على رؤوس الأشهاد.

عن خلافاته مع الفريق صادق وزير الحربية الذي ساندته في انقلابه عام 1971 يهاجمه الرئيس بضراوة هو ومعاونيه ويصفهم بالإهمال والجهل العسكري وأن الفريق صادق جندي خائف من القتال وكاذب ولا يستطيع القتال وأرتكب جريمة لا

يمكن غفرانها وأن السادات يتمنى محاكمته ليعرف الناس أبعاد جرمه والكارثة التي كاد الفريق صادق يتسبب فيها لمصر بتأخير المعركة مع إسرائيل بينما تقول وقائع التاريخ أن السادات في يوم 26 مايو 1972 أقال وزير الحربية الفريق محمد صادق ومساعدته وقائد البحرية وقائد المنطقة العسكرية المركزية ومدير المخابرات وطردهم جميعاً من مناصبهم عقب تفجر الخلاف بين السادات وهؤلاء القادة قبلها بيومين في اجتماع مجلس الأمن القومي، عقب عرض الرئيس لأفكاره بخصوص شن حرب محدودة تجعلنا نكسب عشرة ملايين دولار على الضفة الشرقية لقناة السويس، يبدأ بعدها عملية التفاوض السياسي وعندما رفض القادة تلك الأفكار واحتدت المناقشة بينهم وبين الرئيس، أنهى الرئيس الاجتماع غاضباً وقرر طردهم من مناصبهم وهكذا تحول اختلاف الرؤى بين الرئيس ووزير حربيته إلى جهل وإهمال وتأمير كعادة السادات في أي اختلاف في وجهات النظر معه.

الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان أثناء حرب أكتوبر 1973:

بخصوص الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان أثناء حرب أكتوبر 1973، فالرئيس الراحل يتهمه بالتسبب في حدوث الثغرة وأنه طالبه بانسحاب كامل للقوات المصرية من سيناء للتصدي الثغرة والبحث عن حل سياسي لمنع حدوث كارثة للقوات المسلحة وكل تلك الاتهامات تم تكذيبها من جميع قادة حرب أكتوبر وعلى رأسهم المشير الجمسي الذي نفى انهييار الشاذلي ونفى مطالبته بالانسحاب الكامل من سيناء ونفى تسببه في الثغرة، بل أتهم السادات بها ضمناً عندما قال أن العمل السياسي خذل العمل العسكري في حرب أكتوبر، ويروي السادات تفاصيل الخطة العسكرية التي أمر الفريق الشاذلي بتنفيذها لتدمير القوات الإسرائيلية في الثغرة والتي لم ينفذها الشاذلي، بينما الوقائع التاريخية تثبت أن القادة العسكريين المصريين قاموا بوضع خطة عسكرية سميت (الخطة شاملة) لتصفية الثغرة وإبادة القوات الإسرائيلية الموجودة بها، حتى يزيلوا ما اعتبروه إهانة للعسكرية المصرية وتضحياتها في المعركة، بسبب حصار الجيش الثالث المصري، ومما دعم خطتهم وصول إمدادات عسكرية جديدة لمصر من الاتحاد السوفيتي والعرب تكفي لنجاح الخطة، ولكن السادات طلب منهم الانتظار ورفض التصديق على تنفيذ الخطة، الطريف أن الرئيس السادات الذي يقول أنه رسم خطة عسكرية محكمة لتصفية الثغرة أجهضها الشاذلي يقول في صفحة 480

في كتاب (من أوراق السادات) أنه بعد عودته للجيش طلب منه عبد الناصر دخول امتحانات الترقى وأنه فشل في الإجابة على أسئلة الامتحان ويعترف السادات أنه لولا تدخل عبد الناصر وعبد الحكيم عامر في تبديل ورقة إجابته بورقة أخرى صائبة لرسب في الامتحان لأنه كان غائبًا عن الجيش لمدة ستة شهور ولا يتابع تطورات سلاح الإشارة الذي كان ضابطًا به فكيف نقرأ هذا الاعتراف بفشله في امتحان للترقى في سلاح الإشارة ثم نصدق قصة وضعه خطة عسكرية محكمة لتصفية الثغرة.

المشير أحمد إسماعيل:

يشيد السادات بالفريق أحمد إسماعيل ويصفه بالذكاء والدقة ويعترف أنه اختاره لمنصبه وهو يعلم بإصابته بمرض السرطان وأن الأطباء أخبروه أن حالة الفريق أحمد إسماعيل لا تؤهله لتحمل أعباء الحرب، كما أن الكورتيرون الذي يتعاطاه كعلاج يؤثر على قراراته ويجعله غير قادر على التفكير السليم، كما يقول أنه كان يعلم بخلافاته الحادة مع الفريق سعد الدين الشاذلي.

يبدو هذا الكلام شديد الغرابة فإذا كان السادات يعلم كل ذلك عن حالة الفريق أحمد إسماعيل فلماذا تركه يقود القوات المسلحة في حرب 1973؟، تأتي الإجابة عن كل تلك التساؤلات في مذكرات الفريق الشاذلي الذي يحلل أسباب اختيار السادات للفريق أحمد إسماعيل بالذات.

يقول الفريق الشاذلي أن أسباب هذا الاختيار هي كراهية أحمد إسماعيل الشديدة للرئيس عبد الناصر الذي طرده من منصبه كرئيس للأركان أثناء حرب الاستنزاف عام 1969 بسبب نجاح هجومين إسرائيليين في فترة ولايته (ستة أشهر فقط)، ولولاء أحمد إسماعيل المطلق للرئيس السادات الذي أعاده للجيش بعد طرده منه ثم عينه رئيسًا لجهاز المخابرات العامة ثم وزيرًا للحربية، ويتهم الفريق الشاذلي الفريق أحمد إسماعيل بضعف شخصيته العسكرية وأنه يفضل تلقي الأوامر وتنفيذها بدلًا من إصدارها، وهو ما أستغله السادات لفرض أفكاره على سير المعركة العسكرية عام 1973، ويضيف الفريق الشاذلي أن علم السادات بمرض الفريق أحمد إسماعيل كان دافعًا له لتعيينه ليضمن السيطرة عليه، كما أن السادات كان يعلم بالخلافات الشخصية الحادة بين الشاذلي وأحمد إسماعيل لذا قام بتعيينهما معًا ليضمن عدم اتفاق القوات المسلحة ضده.

بينما يبدو السادات عنيفًا ودائم السباب لمن اعتبرهم خصومه السياسيين سواء قبل انقلابه أو بعد انقلابه، وشديد النقمة على الاتحاد السوفيتي الذي حاربت مصر بأسلحته كل حروبها، وشديد التباهي بقراره طرد الخبراء السوفيت من مصر في يوليو 1972 الذي أتخذته منفردًا وبدون التشاور مع أحد غير الفريق صادق وزير الحربية المصري وقتها وفاجأ به الجميع، وهو يتصور أن الأمريكيين سوف يكونوا سعداء، إلى درجة تدفعهم إلى الاستجابة لأي شئ يطلبه، وهو ما لم يحدث كما نعرف، يقول وزير الخارجية الأمريكي كيسنجر عن القرار في مذكراته (لماذا لم يقل لنا السادات ما كان ينوي فعله؟ ربما لو أبلغنا مسبقًا لكننا قدمنا له شيئًا في المقابل؟ في السياسة كما في كل شئ آخر، فأن لا أحد مستعد لدفع ثمن لشئ حصل عليه بالفعل)، الغريب أن الدكتور محمود فوزي وزير خارجية مصر ورئيس وزرائها الأسبق يروي في مذكراته أنه كان هناك تفاهم بين عبد الناصر والرئيس اليوغوسلافي تيتو على إن اتخاذ مصر لخطوة مثل إخراج السوفيت من المنطقة لن تهرها مصر إلا بمقابل إجبار الولايات المتحدة لإسرائيل على الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في إطار حل شامل للصراع العربي الإسرائيلي، لأن غرض عبد الناصر الحقيقي من وجود الخبراء السوفيت كان رفع مستوى المواجهة من المستوى الأقليمي بين العرب وإسرائيل إلى المستوى العالمي بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وهكذا نجد السادات قد قدم بقراره هذا هدية مجانية للولايات المتحدة الأمريكية.

السادات في "البحث عن الذات" :

هي مذكرات شخصية مكتوبة بيد السادات، وفيها يروي طفولته في قرية ميت أبو كوم والأيام الصعبة التي قضاها في زنزانة 54، ومشاركته في تنظيم الضباط الأحرار ومصر تحت حكم عبدالناصر، وما عانته من حروب استمرت من 56 حتى 67، وكيف واجه الشعب المحنة مع الرئيس ثم تولى أنور السادات زمام الحكم، واختار نهجًا جديدًا للحرب والسلام معا.

أنا أنور السادات فلاح نشأ وتربى على ضفاف النيل حيث شهد الإنسان مولد الزمان، أهدي هذا الكتاب إلى القارئ في كل مكان. إنها قصة حياتي التي هي في نفس الوقت قصة حياة مصر منذ 1918 هكذا شاء القدر. فقد واكبت أحداث حياتي

الأحداث التي عاشتها مصر في تلك الفترة من تاريخها، ولذلك فأنا أروي القصة كاملة لا كرئيس لجمهورية مصر العربية، بل كمصري ارتبطت حياته بحياة مصر ارتباطاً عضوياً منذ بدايتي وإلى الآن.

في مكتبه برئاسة الجمهورية، جلس محمد أنور السادات، نائب الرئيس، يستعيد مجريات الأحداث في مصر، منذ العدوان الثلاثي 1956، وحتى صدور دستور 1964. وفيما تبدو أنها محاولة لتنظيم أفكاره المضطربة، قرر «السادات» تحويلها إلى نقاط مكتوبة. ثلاث محطات رئيسة توقف أمامها «السادات»، أثناء تلك الفترة، فدونها مصحوبة بخواطره على ورقة تحمل شعار «رئاسة الجمهورية العربية المتحدة»: «الإنذار الثلاثي 1956». «الشعب في 9 و10 يونيو»، يقصد المظاهرات الشعبية الراضية لتنحي عبدالناصر. وأخيراً «صيف 1964 وتسليم المسؤولية». تنتهي المساحة الصالحة للكتابة في الورقة، فيسحب نائب الرئيس ورقة أخرى.

يحرص على ترقيم الصفحات بما يوحي بأهمية التسلسل، وأن ما سيكتبه في الورقة الثانية مبني على ما جاء في الأولى. لكنه، وبطريقة كاشفة لطبيعة شخصيته غير الاعتيادية، يغير أسلوبه في التفكير، ويستحضر من الذاكرة اقتباسات أدبية بدلاً من الأحداث السياسية. تذهب ذاكرة «السادات» إلى فرنسا، إحدى دول العدوان الثلاثي، ليقتبس من الروائي الفرنسي أونوريه دي بلزاك، مؤسس مدرسة الواقعية في الأدب الأوروبي، جملة «القوة لا تلغي الحق.. ولكن الحق لا يبقى بغير القوة». وتطير الذاكرة بعد ذلك إلى الدولة الثانية في العدوان، إنجلترا، ولكنه يتعد عن ضيق صدر «الواقعية» إلى سعة خيال المسرح، ويقتبس من جورج برنارد شو قوله: «التقدم مستحيل بلا تغيير، والذين لا يغيرون أفكارهم لا يستطيعون تغيير أي شيء آخر». ويتأمل نائب الرئيس الجملتين، ثم يتساءل: «القلق.. لماذا؟ والخوف.. لماذا؟».

جاء مرور نحو تسع سنوات على هذا التساؤل الفلسفي ليكون كفيلاً بتغيير شكل الورق الذي يستخدمه «السادات»، والمحتوى المكتوب فيه، تغييراً جوهرياً. على مستوى الشكل حلت كلمة «الرئيس» محل «رئاسة الجمهورية العربية المتحدة»، وختم الجمهورية المستخدم في عهد الرئيس الأول محمد نجيب، بدلاً من نسر الجمهورية العربية. أما المحتوى فتحول من محاولة لفهم أحداث سياسية وأفكار مرتبطة بها، إلى ملامح خطة حرب حقيقية، لكن على طريقته الخاصة.

بحنكة سياسية يدوّن السادات أفكاره العسكرية باختصار، فيعجز عن تفسيرها سواه، ويُصاب المطلع عليها بالارتباك، فعلى سبيل المثال يعنون «السادات» إحدى أوراقه بـ«المحاور الرئيسية»، ويعدد تلك المحاور: «إنزال بحري وبارشوت في المنطقة قبل وفي نفس الوقت الغواصات»، و«دوريات لأهداف رئيسية محدودة (مزدوج)»، و«دوريات لمهمات مواقع المدفعية البعيدة والصواريخ في العمق»، و«المحور الجنوبي بخلاف القوات الخاصة».

عشرات الصفحات يدون عليها «السادات» ملامح خطته العسكرية، والتزاماً بطريقته «غير الاعتيادية» في التفكير، يستحضر من الذاكرة اقتباسات تاريخية تخدم أفكاره. تتجه الذاكرة غرباً أيضاً هذه المرة، لكنها لا تعود بجمل أدبية، وإنما برأي للقائد البريطاني، برنارد مونتجمري، قائد قوات الحلفاء الذي هزم قوات المحور في شمال أفريقيا: «النزول على أوسع مواجهة ممكنة، لإمكان التحرك بحرية للمعارك الأرضية وتجنب الزحام (قرار مونتجمري قبل الغزو)».

من التداعي الحر للأفكار المتناثرة إلى الكتابة المنظمة، تكشف لنا أوراق قائد أكتوبر أن تحليل أسباب النكسة والتفكير في مقومات النصر تصدر قائمة أولوياته، لدرجة أنه قرر أن يكتب مذكراته «عن الفترة من 8 يوليو 1967 إلى 27 يوليو 1970» لتكون «عبرة لنا وللأجيال من بعدنا»، كما برر في مقدمة تلك المذكرات. ويقترح «السادات» في مذكراته خطتين لإعادة بناء الجيش، الأولى قصيرة من عنصر واحد وهي «إعادة الروح المعنوية للقوات»، والثانية طويلة تعتمد على الأخذ بالأسلوب الروسي، «أي أن تبدأ الدراسة العسكرية في سن مبكرة جداً، حيث تتكون أحلام الفتى، وتكون احتراقاً، فالعدو سواء أمريكا أو إنجلترا أو إسرائيل باق أمامنا في المستقبل، فلا بد أن يكون الجيش على أعلى درجة من الوعي الذي يغرس في سن مبكرة سواء كان عسكرياً أو سياسياً لنوجد المقاتل المحترف الشرس».

يرى «السادات» أن تطبيق تلك الخطة يتطلب «الارتباط مع الاتحاد السوفيتي بالتدريب أو حسبما تقتضيه الظروف الدولية» ولكنه يصر على وضع أسس صريحة وواضحة لهذا الارتباط «حتى لو وصل الأمر إلى إعطاء قواعد له، ولكنني أفضل اندماجاً من غير قواعد بين قواتنا وقواته بمعنى أنه في حالة حدوث معارك لا بد أن نكون في الوضع الذي يكون فيه ضمن قواتنا المسلحة المدرعة والطيران بالذات أفراد سوفيتيون». ويشدد على ضرورة وضع خطط مشتركة مع الجانب السوفيتي «حتى

نستفيد من التقدم التكنولوجي الذي يجعلنا في الصورة الحقيقية، فالموكد أن إسرائيل تحصل على كافة ما تريد من معلومات عن طريق أمريكا وطاقاتها للتجسس ووسائلها التكنولوجية الحديثة كلها».

ينتقل «السادات» في مذكراته من خطط التعامل مع الجيش إلى التعامل مع الشعب، وهنا يظهر تاريخ 9 يونيو مرة أخرى؛ حيث يقترح «أن تُستغل التعبئة الشعبية التي لم نصل إلى مثلها في يوم من الأيام حتى في أوج انتصاراتنا والتي بلغت القمة في السبع عشرة ساعة التي انقضت بين إعلان الرئيس تنحيه ثم عودته». يستنتج «السادات» من أحداث السبع عشرة ساعة «أن الثلاثة أجهزة الرئيسية منعزلة عن الشعب ولا تعرف حقيقته، لأن الصورة التي كانت موجودة هي أن العمال متدمرون والفلاحين متدمرون والموظفين، وكل الشعب في الوقت الذي خرج فيه العمال والفلاحون وصغار الموظفين- وكل الشعب في صلابه رهيبه- يتحدى العدوان ويتحدى التسليم، ويطالب بكل إيمان وإصرار بالتضحية أيا كانت وراء الرئيس في الوقت الذي كنا فيه في أحلك ساعات الهزيمة».

يخرج من هذا الاستنتاج بأنه «لابد من إعادة التنظيم فوراً وقبل أن يفتر حماس الشعب أو تبدأ التساؤلات والإشاعات». ومن أجل إعادة التنظيم يقترح السادات في مذكراته رoshة عمل تقوم على «تحديد عدو الشعب لكي تظل الجماهير معبأة، وفي كل العالم لا تعبأ الشعوب إلا ضد عدو خارجي حتى في أمريكا التي تفعل حكومتها ما تريد تحت اسم مقاومة الشيوعية، عدونا بصراحة محدد أمريكا وبريطانيا وعميلتهما إسرائيل».

بعد عرض سريع للأحداث منذ 8 يوليو 1967، أظهر تطبيق عناصر كثيرة من رoshة للإصلاح يكتب «السادات»: «اليوم وفي يوليو 1970 تحس إسرائيل هما كنا نحس به في 1967 مع فارق طبعاً ولكن في بساطة هم يخافون ونحن نزداد كل يوم أملاً وثقة وتصميماً وهم في طريق مسدود».

يبقى أنه رغم أنك تحمل كتاباً يسرد أدق تفاصيل واحد من أهم الرجال الذين حكموا دولة قوية مثل مصر وفي فترة كانت مشحونة بحروب من كل اتجاه مع السوفييت والصهاينة والأمريكان، مع ذلك تجدها مذكرات كتبت بلغة حميمية جداً من الرئيس المواطن لقلب المواطن. دون أي تجميل لأي حقائق، حتى وهو يسرد طفولته المتكشفة وأيام سجنه القاسية، وحتى وهو يقارن بين نهجه ونهج عبد الناصر،

تجده يتحدث بمنتهى الأريحية ودون مجاملة أو تحامل. لكن وسط هذا الانسياب لن يكون خفيًا عليك أنك تتعرف على شخص محنك في سياسة الحروب رغم طبيعته المسالمة، فتجده مثلاً وهو يحكي ببساطة كيف تعتمد نشر أخبار وهمية قبل حرب 73 عن الاستعدادات للحرب أكثر من مرة، وفي كل مرة يعود ويتراجع عن قراره مما جعل إسرائيل تتكبد خسائر فادحة اعترفت بها إدارتها فيما بعد.

العجيب أن نفس الرجل الذي يحدثك عن الحرب وأهدافها وضرورتها ستجده في فصول أخرى يشرح عملية السلام حينما يحين وقتها ويشرح أسبابه خلف ذهابه للكنيسة بنفسه، وهو في ذلك نجا من فخ التناقض، لأنه يشرح الأمور دومًا من وجهات استراتيجية ويضع الفعل حينما يتطلب الأمر إيجاده، ولا يهتم حتى لو كان بمفرده. ولم يكن جنرالًا في الحروب فقط، وإنما في حياته العادية أيضًا كان رجلاً يلتزم بمبادئه الخاصة، فكان يواجه أي تهمة تنسب له بردود كلها فطنة وشجاعة، وكانت قاعدته التي التزم بها حتى آخر أيام حياته، أنه غير مطالب أبدًا بتقديم أي مبررات عن تصرفاته.

من الأجزاء اللطيفة في الكتاب حكيه عن سياسة عبدالناصر والفرق بينها وبين طريقته، فتجده يشرح بشكل صريح كيف قرر أن يخلي المعتقلات والسجون وأن يترك متسعينًا للناس كي ينفسوا قليلًا عن دواخلهم، ورغم اختلاف أفكاره عن الزعيم الذي سبقه إلا أنه لا يتناول عليه أبدًا، بل يشرح الأسباب والظروف التي أحاطت بكل منهما. ولم يكتشف السادات اختلاف منهجه مع عبدالناصر بعد توليه الرئاسة، بل اختلفا كثيرًا (حسبما يذكر الكتاب) منذ كانا في تنظيم الضباط الأحرار، وطبعًا حينما صار عبدالناصر رئيسًا لمصر. لكن ما يوضحه السادات في الكتاب أنه كان دائمًا يعتبر آراءه مجرد وجهات نظر، يمكن الأخذ بها أو تركها كما هي.

لغة الكتاب السلسة المنمقة غير المغالية في أي تركيبات أو استعارات لغوية، تجعلك متيقنًا من أنك تقرأ مذكرات حقيقية لمواطن طبيعي مثلي ومثلك، الأمر الذي يجعلك تصدق بسهولة كل كلمة تقرأها وتتعجب بعد الانتهاء منه كيف اطلعت على مثل هذه الأمور الموعلة في السرية والدقة دون أن تشعر بأنك مقبل على كتاب ثقيل. لأنه من الصعب أن تعثر على كتاب لأيقونة سياسية كانت حياتها مشحونة بكل هذه الأحداث وفي نفس الوقت يكون الكتاب ممتعًا، فما يحدث عادة أن الراوي يتصور أن

كل ما رآه وعاصره جدير بأن يُسرد ويقرأه أحدهم، وقد أدرك هذه النقطة المفصلية السادات، ومن الأكيد أنه استعان في تحرير كتابه بأناس لهم باع طويل في التحرير وإعادة الصياغة. والحق أن هذا انعكس بشكل في غاية التأثير داخل صفحات الكتاب.

مقتطفات من البحث عن الذات (قصة حياتي):

أعود إلى القصة.. في يوم 16 أكتوبر أرسلت رئيس الأركان الجنرال سعد الشاذلي للتعامل مع الثغرة وكان من السهل جداً التعامل معها في ذلك اليوم فقد كان السباق فيها للزمن.. ولو أنه نفذ ما طلبته منه أنا والفريق أحمد إسماعيل وفي التوقيت الذي حدث له فأحاط شاطئ البحيرة المرة بسد يسجنهم داخلها ويوقفهم في مكانهم لأصبح من السهل القضاء عليهم وكان في إمكانه أن ينتهي من عمله كلها بعد وصوله بساعات لكنه أضع الليله بأكملها في جمع المعلومات وإنشاء قيادة له ينافس بها قيادة غريمه الجنرال إسماعيل وكانت قوات الصاعقة قد تقدمت إلى الدفرسور ووصلت فعلاً إلى نقطة النزول وإعترف الإسرائيليون بشراسة قتال قوات الصاعقة والقوات الخاصة.. ولكن الشاذلي أعطاهم الأمر بالانسحاب إلى أن يجمع المعلومات وكانت النتيجة أن توسع اليهود في الثغرة. وفي يوم 19 أكتوبر عاد الشاذلي منهاراً وقال لابد أن نسحب قواتنا في شرق القناة لأن الغرب مهدد.. وكان هذا -لو تم- هو ما يريده الإسرائيليون.. فطلب مني أحمد إسماعيل في منتصف ليلة 20/19 أكتوبر أن أذهب إلى القيادة حتى أتخذ قراراً مهماً بوصفي القائد الأعلى للقوات المسلحة.. ذهبت إلى القيادة وإستعرضت الموقف فوجدت أن لنا خمس فرق كاملة في شرق القناة وعندنا 1200 دبابة في الشرق أيضاً أما في الغرب فعندنا فرقة مدرعة تواجه قوات إسرائيل وفي القاهرة فرقة يمكن سحبها - هذا غير الحرس الجمهوري الخاص بي والذي أدخلته الحرب وقاتل قتالاً مجيداً وعاد كاملاً بكل دباباته. بعدما إنضج الموقف لي جمعت القادة كلهم وكان معي الفريق أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة الفريق الجمسي مدير العمليات والفريق حسني مبارك والفريق محمد علي فهمي قائد سلاح الصواريخ وكانوا جميعاً من رأيي وهو أنه لم يحدث شئ يستدعي القلق.. فأعطيت الأمر الذي اعتبره أهم من قرار 6 أكتوبر - بأن لا ينسحب جندي واحد ولا بندقية واحدة ولا أي شئ على الإطلاق من شرق القناة وأنه علينا أن نتعامل مع الغرب حسب الأوضاع الموجوده ثو بدأت أثصل بنفسي

مع الفرقة المدرعة وفي الغرب وكان يقودها ضابط إسمه قايل وهو بطل من أبطال أكتوبر وقلت له ثبت الإسرائيلين ولا تجعلهم يتمكنوا من التوسع وإياك أن تشتبك معهم إلى أن تصلك الإمدادات. وفي هذه الليلة أعطيت تعليماتي لأحمد إسماعيل بعزل الشاذلي من رئاسة الأركان على أن لا يعلن هذا القرار على القوات حتى لا يحدث رد فعل عندنا أو عند الإسرائيلين.. وفي نفس الليلة إستدعيت الجمسي وعينته رئيساً للأركان.

يبقى أنه جاء مرفق بالمذكرات ملحق صور بالأبيض والأسود للقطات عادية من حياة السادات مع عائلته بملابس المنزل ومع فلاحين قريته ببذلته المتواضعة. وصور أخرى تبرز الجانب العسكري من شخصيته وسط الجنود وقادة الجيش. والفصل الأخير من الكتاب يشمل خطابات بخط يد السادات للسوفييت ولرجال الجيش المصري. كما يحتوي على النص الكامل لكلمته التي ألقاها في الكنيسة يوم 20 نوفمبر 1977. ونُشر الكتاب باللغات الإنجليزية، والألمانية، والفرنسية، والبرتغالية، والسويدية، والإيطالية، والعبرية، والفنلندية، والدنماركية، والإسبانية، واليابانية. كما نُشرت أجزاء منه في الصحف والمجلات التالية: -الأهرام -مجلة تايم الأمريكية -بانوراما الإيطالية -لاريوبليك الإيطالية -الإوبزرفر البريطانية -نادي الكتاب (كتاب الشهر) بأمريكا -بوك ديجمست بأمريكا -مجلة دير شبيجل الألمانية. صدر الكتاب عام 1978 عن المكتبة المصرية الحديث في 455 صفحة من القطع المتوسط، مزود بملحق صور بالأبيض والأسود للقطات هامة من حياة الرئيس السادات سواء الشخصية أو المهنية.

النهاية:

فوق مقبره السادات رفعت لافتة تحمل كلمات (عاش من اجل المبادئ واستشهد في سبيل السلام). ويبقى أن خيار السادات بتسليم كل مفاتيح الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة دفعت مصر ثمنه ومازالت تدفعه حتى الآن من انهيار دورها الأقليمي ومكانتها الدولية وتبعية اقتصادها وسوء أحوال شعبها ومن محاربة الصهيونية إلى الاعتراف بالاغتصاب الصهيوني لفلسطين ثم العلاقات الخاصة مع إسرائيل ومن الانحياز للطبقات الفقيرة والمتوسطة إلى الانحياز لرجال الأعمال والسماسة ومن الاستقلال الاقتصادي الكامل والتخطيط الشامل للتنمية إلى التبعية الاقتصادية وربط

الاقتصاد المصري بالاحتكارات الرأسمالية العالمية ومن محاولة للحاق بركب العلم وتنمية البحث العلمي إلى تخريب التعليم وإهمال البحث العلمي، ومن قيادة العالم العربي والعالم الثالث بمواقفها المؤيدة لحقوق الضعفاء والمعادية للاستعمار إلى دولة تدور في فلك السياسة الأمريكية، وخيار السلام ثبت أنه أكذوبة قايض فيها السادات استقلال مصر بسيئاء منزوعة السلاح وقبل السادات معاهدة سلام بشروط سبق ورفضها عبد الناصر وهو مهزوم.

روى السادات تلك الحكايات لأنيس منصور وهو في ذروة قوته وكمبرر للقطيعة مع السوفيت والانحياز للولايات المتحدة الأمريكية وهي مرهونة بوقتها وكان يجب على الأستاذ أنيس إلا ينشرها حفاظاً على صورة الرئيس الراحل لأن أي قراءة موضوعية لتلك المذكرات تثبت مدى خطأ اجتهاداته السياسية وهو أمر كان يجب ألا يفوت الأستاذ أنيس منصور الذي لم يرحم حتى صديقه وصاحب الفضل عليه الرئيس السادات فوضع اسمه فوق أوراقه كما تعود أن يترجم الكتب ويضع اسمه فوقها، وحتى الآن يبدو غير مفهومًا سبب نشر تلك الأوراق إلا إذا كان الأستاذ أنيس يرغب في تصفية حساباته مع من بقي حيًا من خصوم السادات، وحتى لو كان هذا غرضه فقد فشل في اختيار سلاحه وأساء للسادات أكثر مما أساء لخصومه، وأثبت وجهة نظر خصوم الرئيس الراحل فيه كسياسي مغامر تحليلاته واجتهاداته كلها خاطئة وعصره كله يبدو كخطأ تاريخي مازالت مصر تدفع ثمنه.

رحل السادات وحضر جنازه 18 رئيسًا و5 أمراء كلهم من أوروبا وأمريكا بينهم 5 رؤساء أمريكيين منهم (كارتر وفورد ونيكسون وميتران ودستان) وأمير الدانمارك والأمير تشارلز ورؤساء إيطاليا وألمانيا وإيرلندا وليبيريا ورئيس وزراء هولندا وأصدقائه بيجين وشارون ويوسف بورج من إسرائيل، وأيضًا فرح ديبا إرملة شاه إيران وابنه رضا بهلوي سارت الجنازه وسط اجراءات امنييه مشدده وتم دفنه في النصب التذكاري للجندى المجهول.

أحمد إسماعيل علي:

"مشير النصر"⁽¹⁾

هي مذكرات المشير أحمد إسماعيل، وزير الحربية في حرب تشرين الأول/أكتوبر 1973، التي كتبها بخط يده، وظلت حبيسة الأدراج طوال أربعين عاماً. يقول المشير الراحل في مقدمة مذكراته: خير ما أبدأ به هذه المذكرات هو جزء من دعاء النبي ﷺ: «اللهم اجعلني شكوراً واجعلني صبوراً واجعلني في عيني صغيراً وفي أعين الناس كبيراً». كما أدعوه أن يوفقني في تذكر الحقائق، لكي أؤدي الأمانة لأصحابها، وأصحاب الأمانة هنا هم أهل وطني الذين يستحقون أن يقرأوا التاريخ كما حدث بالفعل وليس كما تلونه الأهواء والانحيازات والمصالح. هكذا بدأ المشير في كتابة مذكراته.

على الرغم من أن كتابة المذكرات لا تحتاج إلى تبرير، خاصة عندما يتعلق الأمر بالذين يعملون في خدمة الوطن، فإنني أجد نفسي ملزماً بالتأكيد على أن ما دفعني هو شعوري و يقيني بأنني أدت جزءاً من واجبي نحو بلدي في تاريخ حياتي، ونظراً لأنني لم أكن مهتماً بالدعاية والإعلان عما فعلت، فوجئت أن الحقائق والوقائع طُمست، وأن التاريخ يتعرض للتحريف الذي يصل إلى حد التزوير، كما تعتمد البعض أن ينسب أعمالاً لغيري، بل إن هناك من تعتمد تشويه الدوافع النبيلة لتلك الأعمال. بدأت كتابة هذه المذكرات بعد أن تركت الخدمة بأربعة أشهر، وقد تخونني الذاكرة في بعض الأحداث، ولكنني سأحاول جهدي تذكر تلك الحقائق، وأستعين في ذلك بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

لا يعلم الكثيرون التاريخ الحقيقي لبداية لجوء مصر للاتحاد السوفيتي لشراء السلاح منه والتحرر من قبضة الغرب في هذا المجال.. فقد كان شغل الرئيس عبد الناصر الشاغل منذ اندلاع ثورة يوليو، هو البحث عن مصدر جديد لشراء السلاح منه

(1) مذكرات مشير النصر أحمد إسماعيل، رأي اليوم اللندنية، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2019. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية <https://www.politics-dz.com>

بدلاً من بريطانيا التي كانت تحتكر توريده لمصر، وقد حاول عبد الناصر كثيراً إقناع الولايات المتحدة ببيع السلاح لنا، ولكن كان الرفض دوماً موقفاً واشنطن. ومن هنا جاء التفكير في الاتحاد السوفيتي. وجاءت البداية عام 1955 عبر أحد رجال الأعمال الوطنيين ويدعى محمد أحمد فرغلي باشا الذي أممت الثورة ممتلكاته فيما بعد ووضعه تحت الحراسة حيث أبلغه سفير الاتحاد السوفيتي في القاهرة باستعداد موسكو لبيع السلاح لمصر سرّاً عبر وسيط لإخفاء الأمر عن الولايات المتحدة. وهو الأمر الذي رحب به الرئيس عبد الناصر وكان يعلم أن التعاون مع الاتحاد السوفيتي لم يكن بالفكرة الجديدة، فقد سبق لرئاسة أركان الجيش المصري التفكير فيه قبل قيام يوليو 1952 من خلال الفريق عزيز المصري.

هنا قرر عبد الناصر زيارة الفريق عزيز عثمان وكان قد أُحيل للتقاعد وأقنعه بتولى مهمة التفاوض مع السوفيت وتوطيد علاقة مصر بهم عبر تعيينه سفيراً لمصر في موسكو. والحقيقة أن ثمار تلك الخطوة كانت شديدة الأهمية لمصر وهو ما أثبتته الأيام، حيث أعلن المسئولون السوفيت للسفير المصري استعداد موسكو لمساندة مصر ودعمها اقتصادياً وعسكرياً لتحقيق استقلالها عن الغرب. وهكذا وصلت مصر أول شحنة سلاح سوفيتي في النصف الثاني من عام 1955 عبر تشيكوسلوفاكيا التي تم اختيارها كوسيط لصفقات السلاح بعيداً عن أعين الولايات المتحدة، وقد أحاطت بالصفقة السرية التامة، والتكتم الشديد من قبل الحكومتين المصرية والسوفيتية. ووقتها وقع اختيار عبد الناصر على تدريب الجنود والضباط في الجيش المصري على الأسلحة الجديدة. بالطبع لم نستطع إخفاء أخبار ما استقدمه الجيش المصري من سلاح جديد، وهو ما أزعج العدو الإسرائيلي.

لعل هذا كان بداية تفكير إسرائيل في توجيه ضربة للقوات المسلحة المصرية لوأد تقدمها. ومن هنا كان قرار إسرائيل المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر في عام 1956، رداً على قرار عبد الناصر بتأميم قناة السويس بعدما رفضت الولايات المتحدة الأمريكية تمويل بناء السد العالي، وتأثيرها على البنك الدولي هو الآخر لرفض التمويل. وجاء يوم 29 أكتوبر عام 1956 ليبدأ القصف الجوي لطائرات الدول الثلاث المعتدية على مصر (إنجلترا فرنسا إسرائيل). كنت وقتها قائداً للواء الثالث مشاة برتبة عقيد، وكان مقر وجودي هو شرق قناة السويس، وبالتحديد في القنطرة

شرق. كانت مهمتنا الدفاع عن بورسعيد ومنع قوات الدول الثلاث من أي عملية إنزال فيها، سواء كانت برّاً أو بحراً أو جواً وذلك لمنع احتلال المدينة.

كانت إسرائيل قد نجحت في عملية إنزال جوي عند ممر «متلا» بسياء وصدرت أوامر القيادة لي بالتعامل مع تلك القوات، مع الانسحاب لغرب القناة لإفشال خطط القوات البريطانية في احتلال بورسعيد. وهكذا اشتبكنا مع القوات الإسرائيلية في عدة معارك قتالية، ولكننا لم ننجح في منع تسلل القوات البريطانية لبورسعيد، فقاومنا باستبسال حتى نجحنا في تحرير المدينة بعد انسحاب القوات البريطانية منها في 23 ديسمبر عام 1956.

أتوقف للحديث عن خدمتي العسكرية منذ تخرجي في الكلية الحربية عام 1938، لقد قضيت نحو 35 عاماً من حياتي العسكرية بين القنطرة والعريش والإسماعيلية؛ ولذا كنت أحفظ سياء وأرضها بشكل دقيق ولذا وبعد انتصار أكتوبر المجيد، أهداني أهل سياء وقواتنا في تلك المنطقة، أول علم رفعه الجنود على الضفة الشرقية للقناة بعد العبور لها يوم السادس من أكتوبر، تقديرًا منهم لخدمتي في هذه المنطقة لسنوات طويلة، وعرفاناً بعلاقتي الطيبة مع شيوخ القبائل هناك.

أعود لحرب 1956 وأقول إن مسار الحرب أكد فشل المشير عبدالحكيم عامر كقائد عسكري، وكذلك قائد سلاح الطيران الفريق صدقي محمود، وتوقعنا كضباط إقالتهم لعدم إدراكهما حقيقة المعركة التي كنا نخوضها، وكذلك عدم فهمهما لأبسط الأمور العسكرية المتعلقة بالمعارك. ولكن عبد الناصر لم يُقل عامر الذي عارض من جانبه أيضاً إقالة الفريق صدقي أو محاسبته. كان أعضاء مجلس قيادة الثورة يرون في عبد الحكيم عامر مجرد صديق لعبد الناصر، بل إنهم عارضوا تعيينه عام 1954 قائداً عاماً للقوات المسلحة، وكانوا يرون أن الأكفأ والأجدر لتولى هذا المنصب، هو زكريا محيى الدين، ولكن عبد الناصر كان له رأي آخر، حيث أصر على تولية عبد الحكيم عامر رغم إمكانياته المتواضعة كقائد عسكري.

الغريب في العدوان الثلاثي على مصر، كان موقف الاتحاد السوفيتي. فنحن لم نكن قد حصلنا على كل احتياجاتنا من السلاح السوفيتي عبر تشيكوسلوفاكيا عند اندلاع الحرب، وبالتالي لم تستطع موسكو إمدادنا بالمتفق عليه وفق الجدول الزمني المحدد لظروف العدوان، وقد أتفهم هذا. ولكن الأمر الذي لم أتفهمه هو عدم قيام

موسكو بتقديم أي دعم عسكري لنا بعد صدور قرار وقف إطلاق النار وانسحاب القوات البريطانية والفرنسية والإسرائيلية من القناة!!.. ولم تكتف بذلك وحسب ولكنها قامت بنقل المستشارين العسكريين التشيك والسوفيت الذين كانت قد أرسلتهم لمصر والسودان بمجرد اندلاع الحرب!..

كان السوفيت يخشون الظهور العلني على ساحة المشهد وبالتالي التورط بأي شكل من الأشكال في مواجهة مع الغرب، خاصة الولايات المتحدة. وكان خوف موسكو أن تطلب القاهرة منها السماح لهؤلاء المستشارين بقيادة الطائرات «ميج 15» بأنفسهم لعدم إتمام تدريب الطيارين المصريين عليها حين اندلاع الحرب وبدء العدوان. واكتفت موسكو في دعمها لمصر في ذلك العدوان بإصدار بيان في 5 نوفمبر 1956 تطالب فيه الولايات المتحدة بالقيام بعمل مشترك معها للعمل على وقف القتال، وزادت عليه توجيه تهديد لبريطانيا وفرنسا بالقيام بعمل انتقامي في حال عدم الانصياع لقرار وقف إطلاق النار.

مع قبول كافة الأطراف قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار، سارعت موسكو لإصدار بيان تهدد فيه بإرسال جنود متطوعين لإجبار إنجلترا وفرنسا وإسرائيل على الانسحاب من الأراضي المحتلة، وهو ما أجبر الدول الثلاث على الانسحاب. ولبدأ الاتحاد السوفيتي بعدها في إعادة دعم مصر عسكرياً لتعويض خسائر الجيش المصري في تلك الحرب ولكن كان هناك إصرار غير معلن من قبل موسكو على أن يقتصر ما تمنحنا إياه من سلاح على الأسلحة الدفاعية من دون الهجومية، فلم تستجب لطلبات القاهرة بتزويد قواتنا المسلحة بأسلحة تزيد من قدراتنا الهجومية. وهو ما استمر حتى قبل نكسة يونيو عام 1967. ليس هذا فحسب بل كان هناك تباطؤ من قبل الإدارة السوفيتية في تدريب قواتنا على السلاح الوارد لنا منهم، فكان يتم تجاهل مطالبنا في هذا الشأن.

في الثاني من يونيو عام 1967، عقد عبد الناصر اجتماعاً عسكرياً سياسياً في إحدى القواعد الجوية، وكان على رأس الحضور في ذلك اليوم كل من حسين الشافعي، وزكريا محيى الدين، وعلي صبري، وأنور السادات، والفريق أول صدقي محمود، وأعلن فيه أن مصر لن تكون البادئة بإشعال فتيل الحرب للعديد من الأسباب والظروف الدولية، على الرغم من حالة الحشد العسكري التي كانت القوات المسلحة قد أعلنتها، وحالة التعبئة الشعبية لدى المصريين الذين شعروا أن مصر على وشك إعلان الحرب.

كان عبد الناصر يومها يئن تحت وطأة ضغوط سياسية من جانب الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي، الذي أرسل رئيسه كوسيجين رسالة إلى عبد الناصر، عبر السفير السوفيتي في القاهرة، يطالبه بضبط النفس وعدم بدء الخطوة الأولى للحرب. وهو ذات المعنى الذي أعلنه الرئيس الفرنسي، شارل ديغول، من أن بلاده ستقف ضد الدولة البادئة بالعدوان. وفي هذا الاجتماع أعلن عبد الناصر توقعه أن تشن إسرائيل عدواناً على مصر في غضون أيام قليلة، وطلب من الحضور، خاصة الفريق صدقي محمود، الاستعداد لذلك، والأكثر الاستعداد لتقليل خسائر الضربة الجوية الإسرائيلية الأولى. وتوقع صدقي أن تتراوح تلك الخسائر من 20% إلى 30%. وكان تقديرًا مفاجئاً لحجم ضربات العدو بكل المقاييس.

يقول أحمد إسماعيل: بالنسبة لي، فقد استقبلت يوم 5 يونيو عام 1967، وأنا بصحبة الفريق أول عبد المحسن مرتجي، قائد جبهة سيناء، وكنت وقتها رئيس أركانه، كنا نقف في الثامنة والنصف صباحاً في مطار تمادا العسكري في انتظار وصول طائرة المشير عبد الحكيم عامر لتفقد أحوال الجبهة. كان قادة التشكيلات العسكرية بسيناء موجودين في المطار معنا ليكونوا في استقبال المشير عامر الذي لم يأت، وبدلاً من هبوط طائرته، فوجئنا بالطائرات الإسرائيلية تدك المطار على ارتفاعات منخفضة، بينما مدافع الطائرات المصرية لا تستطيع دفع أي شيء عن المطار، حيث إن أوامر كانت قد صدرت لها منذ الصباح الباكر بتقييد نيرانها انتظاراً لطائرة المشير عامر!!..

هكذا سارع كل القادة المحتشدين بالهرب من نيران الطائرات والقاذفات الإسرائيلية والذهاب إلى مقار قيادتهم، وسارعت أنا بالعودة إلى مقرّي في جبل الميثان بوسط سيناء، وأنا أراجع أحداث الأشهر القليلة السابقة على ذلك اليوم الذي تتابعت نكباته. وأدركت صدق حدسي في السابق من أننا اندفعنا في مغامرة عسكرية وسياسية غير محسوبة وغير متوازنة، وأنها لم تُبن على معلومات وخطط دقيقة، والأكثر كارثية، أنه لم يكن هناك تكامل بين الرؤيتين العسكرية والسياسية.

لقد كان كل منهما يسير في اتجاه رغم الدفع بالحشود العسكرية لسيناء. ولكم أن تتخيلوا حجم الغموض والكارثية حينما أعترف أنني كرئيس أركان لقوات جبهة سيناء، لم أكن أعلم على وجه اليقين مهام القوات التي تم حشدتها في سيناء!!.. وهل ستقوم بالدفاع أم الهجوم؟!.. ووجدت أننا لم نبدأ الضربة القتالية في ساحة المعركة

العسكرية، لكننا كنا البادئين سياسياً وبشكل يوحى لإسرائيل والعالم أننا بصدد المبادرة بتوجيه ضربة عسكرية لها، وذلك باتخاذ عدد من القرارات ومنها قرار عبد الناصر لقوات الطوارئ الدولية بترك المنطقة العازلة بيننا وبين إسرائيل منذ عام 1956، في الوقت الذي لم تحل محلها قوات عسكرية مصرية.

بين المشهد السياسي المندفع في قراراته، وبين المشهد العسكري المرتبك في رؤيته وأهدافه، تعرض المقاتل المصري لأسوأ عملية عسكرية لم تتح له فيها حتى فرصة الدفاع عن نفسه وسمعته القتالية، والدليل ما قامت به القوات العسكرية بالعريش التي لم تتوقف عن قتال العدو إلا بعد صدور الأمر السياسي لها من القاهرة بالانسحاب أثناء عملية القتال. كان الانسحاب ذاته كارثة أخرى. فقد أصدر المشير عبد الحكيم عامر قراراً بالانسحاب القوات، دون توفير حماية جوية تضمن سلامتها أثناء عملية الانسحاب، التي صدر القرار بها في الثانية صباح يوم السادس من يونيو. كان على القوات المصرية السير مسافة 200 كيلومتر بدون أى خطة معدة سلفاً لتنظيم عملية الانسحاب. انسحبت القوات المصرية من صحراء سيناء إلى خط المياه عند الضفة الغربية للقناة، دون أي نظام، حيث رُفضت كل اقتراحات قادة الجيش التي قدموها للمشير عامر بأن يتم الانسحاب خلال 72 ساعة. فسارت القوات شاردة في كل اتجاه، لا هدف للجميع سوى الوصول للضفة الغربية للقناة للابتعاد عن ضربات العدو الإسرائيلي التي لم ترحم تلك القوات، بل طاردها في صحراء سيناء، كلما تمكنت من ذلك، وباستخدام قنابل النابالم؛ فأستشهد من استشهد، وأسر من أسر؛ ولذا أقول وبحق، لم يهزم الجندي المصري في يونيو 1967، ولكنه لم يُمنح فرصة القتال والدفاع عن أرضه، ودفع ثمن عدم كفاءة القيادة العسكرية للقوات المسلحة التي لم تدرك حجم عددها، ولم تخطط مع القيادة السياسية لفهم أبعاد الموقف، وتحديد المهام المطلوبة من أي عملية عسكرية، فخسرنا حجماً كبيراً من المعدات والأسلحة العسكرية التي اضطرت القوات لتركها وراءها لخطة الانسحاب، ودفع الجميع الثمن.

من أخطأ ومن لم يخطئ :

في صباح يوم 14 يونيو 1967، أي بعد النكسة بتسعة أيام، اتصلت تليفونياً من الإسماعيلية بالفريق أول محمد فوزي، القائد العام للقوات المسلحة، وسألته عن الموقف الحالي، فأجابني باقتضاب، طالباً مني أن أتوجه إلى القاهرة لمقابلته. تحركت

على الفور من الإسماعيلية إلى القاهرة، وتوجهت مباشرة إلى منزلي حيث استبدلت ملابس الميدانية التي لم أستبدلها طوال أسبوعين، ثم انتقلت إلى مقر القيادة، لكنني لم أجد القائد العام في مكتبه، وتجولت على بعض الزملاء في مكاتبهم، وكانت مقابلتهم لي تشي بأن هناك أمراً يحاول الجميع إخفاءه عني، حتى أعز الأصدقاء، شعرت في حواراتي معهم بشيء غامض، وكانوا وقتها في مؤتمر في العمليات يناقشون حسم مسألة ما إذا كان يجب أن تستمر القوات البرية في تشكيل الفرق، أم تنقسم إلى مجموعات عمليات مثلما يحدث في الجيش الإسرائيلي، واشتركت في المناقشة معهم وكنت مصمماً على الاستمرار في تشكيل الفرق، وكان تركيزي أساساً على إقناعهم بأن هذا التنظيم أفضل بكثير من حيث التسليح والتدريب وتكوين القادة، وكان رأيي مستنداً إلى خبرتي السابقة كقائد فرقة.

خلال المناقشات، تأكد لي إحساسي بأن هناك سراً يخفيه عني الجميع ولا يجرؤ أحدهم على مكاشفتي به، وكان أول ما خطر ببالي أن هناك قراراً سرياً صدر بإحالتي إلى التقاعد، فعدت إلى مكثبي في القوات البرية وطلبت اللواء محمود القاضي، الذي كان قد تسلم أعمال «كاتم أسرار»، ودار بيننا الحوار التالي: هل هناك شيء بخصوصي؟ - نعم. - هل صدر قرار بإحالتي إلى المعاش كباقي الضباط؟ - نعم. - شكراً. انتهى الحوار القصير، وغادرت سريعاً، وطلبت من سكرتيري جمع أوراقى، ثم توجهت إلى منزلي، وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع القرار، فإنني لم أجد له تفسيراً.

استرجعت جميع تصرفاتي قبل وأثناء وبعد المعركة، فلم أجد ما يشينني فيها جميعاً، لكنني كنت أشعر بخجل شديد أمام أسرتي وإخوتي، ولم أستطع إخفاء عصبيتي حتى إنني انفجرت غاضباً في ابني أثناء حواراه معي وقلت له: «أبوك لم يخطئ ولم يكن جباناً، بل أدى واجبه كاملاً وأكثر وستثبت لك الأيام ذلك». لم أتوقف عن التفكير في أسباب إحالتي للتقاعد، وفي اليوم التالي، فكرت في إرسال خطاب لعبد الناصر، أشرح له فيه موقعي وصدمتي في قرار استبعادي، وهو ما حدث، كتبت الخطاب وأرسلته ولم أنتظر طويلاً. فبعد 10 ساعات من إرسال الخطاب، فوجئت باتصال تليفوني من الفريق أول محمد فوزى، وطلب مني أن أزوره في مكتبه فتوجهت إليه دون تردد بملابسي المدنية، وفور دخولي عليه، بادرني بالقول إن «الرئيس أمر بعودتك إلى الخدمة وستتولى رئاسة هيئة التدريب». فقلت له إنني أشكر السيد الرئيس، لكنني قبل

عودتي أريد معرفة سبب القرار السابق بإحالي إلى التقاعد، فكان رده: «هذا الموضوع انتهى ويجب عدم الخوض فيه». عدت إلى الخدمة، محملاً بآمال وطموحات كبيرة في أن يكون لي شأن ودور في المعركة المقبلة، اقتناعاً مني بأن القوات المسلحة في حاجة إلى كل جهد وكل علم في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخها.

خلال الأيام العشرة الأولى من رئاستي هيئة التدريب، كان أهم ما ركزت عليه هو إنشاء ما يُسمى «مدارس المعركة المتحركة»، وهي باختصار تعتمد على إرسال ضباط وفنيين من إدارة التدريب المركزية إلى الجبهة لتدريب الضباط وضباط الصف في فرق تعليمية قصيرة مركزة، وكان لهذه المدارس المتحركة دور كبير في ذلك الوقت، لأن الظروف لم تكن تسمح بعودة الضباط وضباط الصف للتدريب في القاهرة وتغيبهم عن مواقعهم. وأثناء رئاستي هيئة التدريب، أتيت لي فرصة أن أرافق كبير الخبراء العسكريين السوفيت، جنرال لاشنكوف في المرور على الجبهة، ولا أنكر أن شخصية هذا الجنرال وعلمه ومعلوماته كان لها تأثير كبير في نفسي، وأقولها صراحة بأنه قائد بارع من جميع النواحي، وأننى حصلت من خلال مصاحبتي له واجتماعي به عدة مرات بعد ذلك على معلومات لها قيمتها.

في يوم 25 يونيو 67 استدعاني القائد العام وأبلغني بقرار سيصدر بتعييني قائداً للجبهة خلفاً للفريق صلاح الدين محسن اعتباراً من 1 يوليو 1967، وأمرني بالاستعداد لذلك، كما نبه عليّ بضرورة المرور عليه لمقابلته قبل أن أتسلم العمل.

عدت إلى مكنتي وأنا أفكر في هذا المهمة الصعبة في ذلك الوقت، فقد كنت عائداً من الجبهة قبل أيام قليلة، وكنت أشارك الفريق صلاح محسن أحلك الأوقات، كما سبق لنا التعاون معاً في إعادة تنظيم القوات وتسكينها غرب القناة، وحين صدرت لي الأوامر، كان الموقف على الجبهة يتلخص في الآتي: القوات مهلهلة تفتقد القيادات والتنظيم، وحالة المعدات سيئة للغاية ومعظمها تالف، وبعض الأسلحة تنقصه الذخيرة، والدبابات معطلة، بما في ذلك طرازات (T34، T55، T54، GS)، والروح المعنوية منخفضة للغاية، خاصة أن كثيراً من هذه القوات عاد من سيناء سيراً على الأقدام دون طعام أو مياه، وكان الأسوأ من ذلك أن الجنود فقدوا الثقة في ضباط الصف، وضباط الصف فقدوا الثقة في الضباط، والضباط فقدوا الثقة في قادتهم، والقيادة فقدت الثقة في هذه القوات.

كانت هذه الصورة الواضحة بالنسبة لحال القوات، أما الحالة الاستراتيجية، فيمكن تلخيصها في: رقعة من أرض الوطن يحتلها العدو، وجبهة قتال مكشوفة، وسيطرة جوية كاملة للعدو على غرب القناة، وقوات ضئيلة جداً ومبعثرة وأسلحة غير صالحة للعمل، وروح معنوية منهارة نتيجة الصدمة العصبية التي جعلت اليأس يسيطر على تفكير البعض. كنت أتأمل الجبهة، فأرى جنوداً في ملابس مهلهلة، لم يغتسلوا منذ أيام طويلة، حتى وصل الأمر إلى أن الضبط والربط الذي هو عقيدة أساسية للقوات المسلحة تحول إلى قرار اختياري، باختصار كان الموقف ميئوساً منه تماماً، خاصة أن العدو كان أماناً يتباهى بقوته وانتصاره على مرأى من أعين جنودنا، ووصل إلى درجة أن أفراد جيش الاحتلال كانوا يسبحون في قناة السويس، وإذا أطلق أحد جنودنا طلقة واحدة، يردون علينا بالعشرات.

لقد كان مجموع القوات عند تسلمي الجبهة كالآتي: الفرقة السادسة بقيادة اللواء سعدي نجيب والفرقة الثانية بقيادة اللواء عبدالسلام توفيق، رئيس أركانها وتشمل الكتيبة 120 واللواء الرابع واللواء أول مدرع الذي كان مجموع دباباته يوازي كتيبة مدرعة، أي أنها كانت بقايا الفرقة المدرعة. أصررت على اختيار اللواء محمد عبدالغنى الجمسي، والعميد حسن الجريدي؛ لإنجاح المهمة التي كُلفت بها، ولتحملاً معي مسؤولية إعادة تنظيم الجبهة. وقتها رفض الفريق أول محمد فوزي طلبي هذا بحجة الأقدمية. لكنني أصررت على الموقف حتى صدر قرار رئاسي بذلك.

انشغلت في تلك الفترة بإجراء تقدير موقف سريع ووضعت لنفسي أهدافاً محددة، أهمها: إعادة تنظيم القوات وشؤونها الإدارية وتدريبها وإعادة الضبط والربط إليها، وإعادة الثقة في نفوس الأفراد وبث الروح القتالية، والمحافظة على أمن القوات، ومنع العدو بجميع الوسائل والإمكانات المتيسرة من عبور قناة السويس، والرد بعنف على اشتباكات العدو الخاطفة. وطوال الشهور الثلاثة التالية، عملت على رفع الروح المعنوية للقوات من خلال بعض الإجراءات والعمليات، كان أهمها معركة رأس العش، وتدمير المدمرة إيلات وإغراقها، وتسلم الأسلحة والذخائر والمعدات الجديدة وتكثيف الفرق التعليمية وإعطاء الثقة للجنود والضباط في أسلحتهم والمرور المستمر على الوحدات يومياً.

كان رفع الروح المعنوية للجنود يتمثل في خوض معركة قتالية ناجحة ومنها معركة رأس العش، بعد أن اعتقد الشعب المصري والعالم بأكمله أن القوات المسلحة المصرية انتهت بنكسة 5 يونيو، ولكن يشاء الله أن يوفق الجنود المصريين في تحقيق نجاح منقطع النظير خلال معركة رأس العش بفضل التخطيط الدقيق، فعندما انسحبت القوات المسلحة أصبحت كل مدن القناة خالية من القوات، عدا مدينة واحدة هي بورفؤاد التي كان بها قوة عسكرية بسيطة، وكان هدفنا أن نمنع سقوط مدينة بورفؤاد فوضعنا فيها قوة بسيطة جداً تؤمن الدخول إليها من جنوب شرق القناة.

على الجانب الآخر كانت القوات الإسرائيلية تجهز للوصول إلى بورفؤاد هي الأخرى عبر هذا الجزء الضيق للغاية الذي يشبه الرأس، وكان يطلق عليها اسم طريق البركة، وقامت معركة رأس العش وانتصرت قوة الجيش البسيطة الصغيرة وبقيت بورفؤاد سالمة وارتفعت الروح المعنوية للجنود. الطريف في معركة رأس العش، أنها تم تصويرها بعدسات كاميرات محطات التلفزيون الأمريكية التي سمحت لها القيادة الإسرائيلية بالوجود مع القوات لتصوير احتلالها لمدينة بورفؤاد.

لم تكن معركة رأس العش وحدها التي رفعت الروح المعنوية للجنود المصريين، بل توالى المعارك الصغيرة الناجحة، ففي يوم 14 يوليو طلبت من الفريق مذكور أبو العز، قائد القوات الجوية، قصف العدو الإسرائيلي لرفع الروح المعنوية وتوصيل رسالة للعالم مفادها أن الجندي المصري لم يفقد القدرة على القتال رغم تفوق العدو، وبالفعل ارتفعت نسورنا إلى سماء سيناء وقصفت قوات العدو بعنف، الأمر الذي فاجأ القوات الإسرائيلية وأذهل العالم.

في 21 أكتوبر 1967 سجلت البحرية المصرية حدثاً فريداً في تاريخ الحروب البحرية على المستوى العالمي، ففي ذلك الوقت تقدمت المدمرة الإسرائيلية إيلات في غرور، ووصلت إلى مياها الإقليمية أمام مدينة بورسعيد، وانطلقت لنشاتها الصاروخية تسبقها لتطلق صواريخ بحر لأول مرة في الحروب البحرية لتسكن المدمرة إيلات التي تمثل نصف القوة البحرية الإسرائيلية في ذلك الوقت قاع البحر وتغرق معها آمال المؤسسة العسكرية وغطرستها. وكنت أتوقع من إسرائيل رداً عنيفاً على الجيش المصري عبر ضرب ميناء السويس الذي كان مكدساً بالمرائب وخزانات البترول؛ الأمر الذي يجعل من الميناء صيداً ثميناً جداً للعدو، وكان الأمر سيتحول إلى كارثة فعلية

لمصر في حالة ضرب إسرائيل ميناء السويس، وأرسلت تقريراً لعبد الناصر استعرضت فيه خطورة الموقف والتوقعات المحتمل حدوثها، فأمر بإخلاء ميناء السويس فوراً من البواخر ونقلها إلى خليج السويس بعيداً عن الميناء، كما أمر وزارة البترول في القاهرة بإخلاء خزانات البترول، وبعدها مباشرة حدث ما توقعته حين شن العدو غارات على السويس، لكن الخسائر لم تكن كبيرة بعد أن استبق عبد الناصر الغارات بقرار إخلاء القناة من المدنيين، وكان هذا بداية التهجير.

توالى العمليات الاستنزافية والقتالية لكنها كانت فترة عصيبة؛ لأن الجبهة كانت واسعة وتحتاج إلى سيطرة أكبر، وقتها رأيت ضرورة تقسيم الجبهة إلى جيشين ميدانيين، والعمل على إعادة تنظيم القيادة، وهو ما حدث بالفعل، وتوليت أنا قيادة الجيش الثاني، فيما تولى اللواء عدلي حسن سعيد قيادة الجيش الثالث. طوال تلك الفترة، كنت أعانى قلقاً شديداً، حتى إنني قبل نومي كنت أحرص على وضع التليفونات إلى جانب السرير، ولا أستطيع النوم إلا بعد اطمئناني على عودة جنودنا من الضفة الأخرى في الأيام التي كنا نكلفهم فيها بعمليات خاطفة ضد العدو، وإذا أصيب أو استشهد جندي أشعر بيني وبين نفسي بالذنب والمسئولية، وكثيراً ما كانت زوجتي تحاول التخفيف عني، خاصة عندما أتحدث أمامها عن أي شهيد وأقول لها إنني كنت السبب في يَتم أبنائه.

أذكر أنني حينما ذهبت للجبهة بعد النكسة، وأصررت على أن أكون مثل الجنود في كل شيء، حتى إنني كنت أنام في كشك من الصاج، وأمارس عملي في حجرة خشبية أسفل شجرة، وظللت هكذا حتى سقطت مريضاً بفعل الرطوبة والبرد الشديد، فتم بناء حجرة لي تحت الأرض بعيدة عن نيران العدو في حال قصف الموقع الخاص بقائد الجبهة. والحقيقة أنني لم أكن أهتم إلا بشيء واحد، كان هو هديفي الأساسي، وملخصه إعادة بناء وتنظيم الجبهة والدفاع عن عمق مصر، وتوجيه ضربات عسكرية موجعة للعدو الإسرائيلي كلما أمكن ذلك، وكان هناك العديد من الأبطال المصريين الذين سطوروا معجزات في تاريخ العسكرية المصرية ومن بينهم العميد الشهيد إبراهيم الرفاعي والذي أدى العديد من المهام الوطنية، ومنها على سبيل المثال تفجير إحدى المناطق الإدارية لنا في سيناء التي كان العدو قد استولى عليها بعد انسحاب القوات المصرية، وخزن بها ما تم جمعه من سلاح وذخائر وعتاد عسكري تركه الجنود دون أن يتمكنوا من العودة به.

كانت المعلومات قد وصلت لي من بعض البدو الوطنيين، بموقع هذه المنطقة الإدارية في شمال «الشط». وزاد إصراري على تفجير الموقع لحرمان العدو من الاستفادة منه، فعهدت لمجموعة من خمسة رجال من أبطال الصاعقة بتلك المهمة بقيادة إبراهيم الرفاعي، فعبروا القناة في قوارب صغيرة، وقاموا بتلغيم المركز كله، ثم عادوا سالمين إلى غرب القناة، ولن أنسى ما حييت مشهد النيران وهي تأكل المركز بالكامل، وعلمت أن القائد الإسرائيلي الذي كان مسئولاً عن هذه الذخائر قد قُتل في هذه العملية، كما أذكر لإبراهيم الرفاعي عملية أخرى لا تقل عن الأولى في عظمتها، حيث رصدنا عام 1968 أنواعاً جديدة من الصواريخ المثبتة على الضفة الشرقية للقناة، فكان لا بد من الحصول على أحدها لمعاينتها وفحص إمكانياتها، فأصدرت أوامري لمجموعة من أمهر المقاتلين يتقدمهم إبراهيم الرفاعي بإحضار أحد تلك الصواريخ، فتسللوا بملابس الضفادع البشرية لموقع العدو في الشط، وهم لا يحملون سوى خناجر وقاطعات أسلاك.. واستولوا على عدد من الصواريخ التي عادوا بها رغم الحراسة الإسرائيلية الشديدة. ولكنهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأقسموا على حماية الوطن..

كنا كلنا في الجيش المصري عقب نكسة يونيو 1967 نعلم، قادةً وجنوداً، أن يوم الثأر آتٍ لا ريب فيه؛ ولذا كان كل منا يعلم مهمته ويسارع لأدائها. وضعنا خطة دفاعية عن جبهة القناة، وعملنا تجهيزات دفاعية ممثلة في حفر الخنادق والمواقع الدفاعية، وزدنا من ساعات التدريب الشرس بما هو موجود بالفعل بين أيدينا، وازدادت مدفعيتنا قوةً وثباتاً، فأصدرت أوامري بإلحاق خسائر بالعدو عبر توجيه ضربات مباشرة له وكان ذلك في سبتمبر من عام 1968، فدمرنا بطاريات الصواريخ الإسرائيلية أرض/ أرض، التي كان العدو يقصف بها مدينة الإسماعيلية، ولعل ما قمنا به في تلك الفترة كان الدافع الأساسي للعدو للبدء في إنشاء خط تحصينات قوى يغطي خط المواجهة بأكمله، فكان خط بارليف.

سعد الدين الشاذلي:

"مهندس حرب 1973" (1)

في هذا الكتاب جمع المؤلف الفريق سعد الدين الشاذلي مجمل مذكرات حرب أكتوبر/تشرين الأول 1973، حيث تناول الشاذلي في مذكراته هذه، كل المناصب التي تولاها، والأحداث التي عاصرها منذ أن أصبح رئيسًا للأركان في الجيش المصري عام 1971، والكتاب يؤرخ فيه الفريق الشاذلي أحداث حرب أكتوبر على الجبهة المصرية. حيث عين في هذا المنصب خلفًا للفريق محمد فوزي متخطيًا بذلك الكثير من الشخصيات الذين هم أقدم منه في المؤسسة العسكرية، حتى أن الرئيس السادات أمر باعتقال الفريق محمد فوزي فور إعلانه تولي الشاذلي للمنصب، وكان الشاذلي قد اختير للمنصب أثناء ما يعرف بثورة التصحيح التي قادها السادات -بمعاونة بعض الشخصيات السياسية في الدولة- ضد كل معارضيه في أجهزة الدولة عام 1971، وهي الحركة التصحيحية التي عبر عنها الفريق الشاذلي في مذكراته بلفظ صريح "انقلاب".

يبدأ الفريق الشاذلي مذكراته قائلاً (لم نكف عن التفكير في الهجوم على العدو الذي يحتل أراضينا حتى في أحلك ساعات الهزيمة في يونيو 1967، لقد كان الموضوع ينحصر فقط في متى يتم مثل هذا الهجوم؟، وربط هذا التوقيت بإمكانيات القوات المسلحة لتنفيذه. وفي خريف 1968 بدأت القيادة العامة للقوات المسلحة تستطلع إمكان القيام بمثل هذا الهجوم على شكل مشاريع استراتيجية، تنفذ بمعدل مرة واحدة في كل عام، وقد كان الهدف من هذه المشاريع تدريب القيادة العامة للقوات المسلحة، بما في ذلك قيادات القوات الجوية والقوات البحرية وقوات الدفاع الجوي، وقد استمرت هذه المشاريع خلال عامي 1971 و1972. أما المشروع الذي كان مقررًا عقده عام 1973 فلم يكن إلا خطة حرب أكتوبر الحقيقية التي قمنا بتنفيذها فالسادس من تشرين الأول/أكتوبر 1973.

افرد الفريق الشاذلي صفحات حول المساعدات العربية بداية من الدورة الثانية عشر لمجلس التعاون العربي المشترك، ويقول أديت اليمين القانونية بصفتي الأمين

(1) حرب 1973 في رواية سعد الدين الشاذلي، القدس العربي 21 تشرين الأول/أكتوبر 2019. <https://www.alquds.co.uk>

كذلك: مذكرات سعد الدين الشاذلي عن حرب أكتوبر، فضاية الميادين، 10 نيسان/أبريل 2017. <https://www.almayadeen.net/books.2017>

العام المساعد للجامعة العربية للشئون العسكرية، وموجب هذا المنصب فيني أصبح رئيسًا للجنة الاستشارية العسكرية للجامعة العربية والتي تتكون من رؤساء أركان حرب القوات المسلحة في جميع البلدان العربية. واقتناعًا مني بهذا اقترحت أن تقوم الدول العربية التالية بتدعيم دول المواجهة بتعزيزات محددة، موزعة بين العراق والسعودية وليبيا والجزائر والمغرب. وتم تحديد هذه القوات بعد زيارتي للمغرب في فبراير 1971.

تحدث الشاذلي عن زيارته للجزائر والمغرب وليبيا في فبراير/شباط ومقابلته هوارى بومدين، والحسن الثاني، ومعمار القذافي. ويأتي الحديث عن زيارة وفد عراقي على مستوى عال إلى القاهرة ما بين 26-28 مارس/آذار 1972، وكان يتأسس الوفد صدام حسين الرجل الثاني في العراق واحد الأعمدة الرئيسية التي يركز عليها النظام العراقي، وكذلك زيارة الشاذلي العراق رغم معارضة السادات، لرأيه في حسن البكر، مثل بومدين والحسن الثاني، وفي النهاية وافق للشاذلي، كذلك عرض الشاذلي للدعم السوداني، ويقول أن العلاقات كانت على أحسن حال عقب 1969 فترة النميري، حيث قام السودان بارسال لواء مشاة للتمركز في جبهة قناة السويس.

ويعرض للعلاقات المصرية السوفيتية، ويقول في الساعة 2000 يوم 19 من مايو 1971 اجتمع وفد عسكري سوفيتي مع وفد عسكري مصري لبحث التسهيلات البحرية التي يطلبها الجانب السوفيتي في الموانئ المصرية. كان الوفد السوفيتي برئاسة الجنرال يفيموف Yefimov وعضوية الأدميرال فاسيلي Vassily والجنرال اوكينيف OKUNEV، وكان الوفد المصري برئاسة الفريق صادق وزير الحربية وعضوية اللواء الشاذلي (ر.ا.ح.ق.م.م) والعميد أمير الناظر، الأمين العام لوزارة الحربية. وكان الجانب السوفيتي يطلب زيادة في التسهيلات البحرية التي كان يمارسها فعلاً.

يقول الشاذلي أنه في تمام الساعة 1400 يوم 21 من أغسطس 1973، دخلت ميناء الإسكندرية باخرة ركاب سوفيتية، وعليها 6 من الرجال السوريين كان يتوقف على قرارهم مصير الحرب والسلام في منطقة الشرق الأوسط. كان هؤلاء هم اللواء طلاس وزير الدفاع، واللواء يوسف شكور (ر.ا.ح.ق.م.س)، واللواء ناجي جميل قائد القوات الجوية والدفاع الجوي، واللواء حكمت الشهابي مدير المخابرات الحربية، واللواء عبد الرزاق الدرديري رئيس هيئة العمليات، والعميد فضل حسين قائد القوات البحرية.

كانوا جميعًا بملابسهم المدنية ولم يخطر وسائل الإعلام في مصر أو في سوريا بأى شيء عن هذا الموضوع سواء قبل وصول الوفد أو بعده. كنت أنا في استقبالهم على رصيف الميناء، حيث خرجنا دون أية مراسم إلى نادى الضباط، حيث نزلوا خلال فترة إقامتهم بالإسكندرية في مبنى قيادة القوات البحرية المصرية في قصر رأس التين بالإسكندرية. كان الوفد المصرى يتكون من الفريق أول أحمد إسماعيل وزير الحربية، والفريق سعد الدين الشاذلى (ر.ا.ج.ق.م.م)، واللواء محمد على فهمى قائد الدفاع الجوى، واللواء حسنى مبارك قائد القوات الجوية، واللواء فؤاد زكريا قائد القوات البحرية، واللواء عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات، واللواء فؤاد نصار مدير المخابرات الحربية. كان هؤلاء الرجال الثلاثة عشر هم المجلس الأعلى للقوات المصرية والسورية المشتركة، وكان يقوم بأعمال السكرتارية لهذا المجلس اللواء بهي الدين نوفل.. كان الهدف من اجتماع هذا المجلس هو الاتفاق على ميعاد الحرب.

المذكرات وُضِّحَ وأجَابَ فيه الشاذلى عن أسئلة فاصلة ومحورية في تلك الحرب بل في ذلك الصراع العربي الإسرائيلي فيقول، على الرغم من صدور كتب كثيرة عن حرب أكتوبر 1973 بين العرب وإسرائيل، فما زال هناك الكثير من الحقائق الخافية، التى لم يتعرض لها أحد حتى الان كما أن ثمة حقائق أخرى قام بعضهم بتشويهها، أحيانًا عن جهل، وأحيانًا أخرى عن خطأ معتمد لإخفاء هذه الحقائق، ومن بين الموضوعات التى مازالت غامضة تبرز التساؤلات الآتية:

لماذا لم تقم القوات المصرية بتطوير هجومها نحو الشرق بعد نجاحها في عبور قناة السويس، ولماذا لم تستول على المضائق في سيناء؟. هل حقًا كان من تصور القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية أن يقوم العدو بالإختراق في منطقة الدفرسوار بالذات، وأنها أعدت الخطة اللازمة لدحر هذا الإختراق في حالة وقوعه؟. وإذا كان هذا حقيقيًا، فلماذا لم يقيم المصريون بالقضاء على الإختراق فور حدوثه؟. كيف تطور أختراق العدو في منطقة الدفرسوار يومًا بعد يوم، وكيف كانت الخطط التى يضعها العسكريون تنقض من قبل رئيس الجمهورية ووزير الحربية؟. من هو المسئول عن حصار الجيش الثالث؟. من هم القادة العسكريون أم القادة السياسيون؟. كيف أثر حصار الجيش الثالث على نتائج الحرب سياسيًا وعسكريًا، لا على مصر وحدها بل على العالم العربى بأسره؟.

في يوم 6 أكتوبر 1973 في الساعة 1405 (الثانية وخمس دقائق ظهرًا) شن الجيشان

المصري والسوري هجومًا كاسحًا على إسرائيل، بطول الجبهتين، ونفذ الجيش المصري خطة "المآذن العالية" التي وضعها الفريق الشاذلي بنجاح غير متوقع، لدرجة أن الشاذلي يقول في كتابه "حرب أكتوبر": في أول 24 ساعة قتال لم يصدر من القيادة العامة أي أمر لأي وحدة فرعية.. قواتنا كانت تؤدي مهامها بمنتهى الكفاءة والسهولة واليسر كأنها تؤدي طابور تدريب تكتيكي.

أرسلت القيادة العسكرية السورية مندوبًا للقيادة الموحدة للجبهتين، التي كان يقودها المشير أحمد إسماعيل تطلب زيادة الضغط على القوات الإسرائيلية على جبهة قناة السويس لتخفيف الضغط على جبهة الجولان، فطلب الرئيس السادات من إسماعيل تطوير الهجوم شرقًا لتخفيف الضغط على سوريا، فأصدر إسماعيل أوامره بذلك على أن يتم التطوير صباح 12 أكتوبر.

عارض الفريق الشاذلي بشدة أي تطوير خارج نطاق الـ 12 كيلو التي تقف القوات فيها بحماية مظلة الدفاع الجوي، وأي تقدم خارج المظلة معناه أننا نقدم قواتنا هدية للطيران الإسرائيلي.

بناء على أوامر تطوير الهجوم شرقًا هاجمت القوات المصرية في قطاع الجيش الثالث الميداني (في اتجاه السويس) بعدد 2 لواء، هما اللواء الحادي عشر (مشاة ميكانيكي) في اتجاه ممر الجدي، واللواء الثالث المدرع في اتجاه ممر "متلا". وفي قطاع الجيش الثاني الميداني (تجاه الإسماعيلية) هاجمت الفرقة 21 المدرعة في اتجاه منطقة "الطاسة"، وعلى المحور الشمالي لسيناء هاجم اللواء 15 مدرع في اتجاه "رمانة". وكان الهجوم غير موفق بالمرّة، وانتهى بفشل التطوير وخسرت القوات المصرية 250 دبابة من قوتها الضاربة الرئيسية في ساعات معدودات من بدء التطوير للتفوق الجوي الإسرائيلي.

بنهاية التطوير الفاشل أصبحت المبادأة في جانب القوات الإسرائيلية التي استعدت لتنفيذ خطتها المعدة من قبل والمعروفة باسم (الغزالة) للعبور غرب القناة وحصار القوات المصرية الموجودة شرقها، خاصة أن القوات المدرعة التي قامت بتطوير الهجوم شرقًا هي القوات التي كانت مكلفة بحماية الضفة الغربية ومؤخرة القوات المسلحة وعبورها القنال شرقًا وتدمير معظمها في معركة التطوير الفاشل، ورفض السادات سحب ما تبقى من تلك القوات مرة أخرى إلى الغرب، أصبح ظهر الجيش المصري مكشوفًا غرب القناة. فيما عرف بعد ذلك بنغرة الدفرسوار.

اكتشفت طائرة استطلاع أمريكية لم تستطع الدفاعات الجوية المصرية إسقاطها بسبب سرعتها التي بلغت ثلاث مرات سرعة الصوت وارتفاعها الشاهق وجود ثغرة بين الجيش الثالث في السويس والجيش الثاني في الإسماعيلية، وقام الأمريكيان بإبلاغ إسرائيل ونجح أرئيل شارون قائد إحدى الفرق المدرعة الإسرائيلية بالعبور إلى غرب القناة من الثغرة بين الجيشين الثاني والثالث، عند منطقة الدفرسوار القريبة من البحيرات المرة بقوة محدودة ليلة 16 أكتوبر، وصلت إلى 6 ألوية مدرعة، و3 ألوية مشاة مع يوم 22 أكتوبر.

تم تطويق الجيش الثالث بالكامل في السويس، ووصلت القوات الإسرائيلية إلى طريق السويس القاهرة، ولكنها توقفت لصعوبة الوضع العسكري بالنسبة لها غرب القناة، خصوصًا بعد فشل شارون في الاستيلاء على الإسماعيلية وفشل الجيش الإسرائيلي في احتلال السويس، مما وضع القوات الإسرائيلية غرب القناة في مأزق صعب، وجعلها محاصرة بين الموانع الطبيعية والاستنزاف والقلق من الهجوم المصري المضاد الوشيك. في يوم 17 أكتوبر طالب الفريق الشاذلي بسحب عدد 4 ألوية مدرعة من الشرق إلى الغرب، للزيادة من الخناق على القوات الإسرائيلية الموجودة في الغرب، والقضاء عليها نهائيًا، علمًا بأن القوات الإسرائيلية يوم 17 أكتوبر كانت لواء مدرع وفرقة مشاة فقط، وتوقع الفريق الشاذلي عبور لواء إسرائيلي إضافي ليلاً، لذا، فطالب بسحب عدد 4 ألوية مدرعة تحسبًا لذلك. وأضاف أن القوات المصرية ستقاتل تحت مظلة الدفاع الجوي وبمساعدة الطيران المصري، وهو ما يضمن التفوق المصري الكاسح وسيتم تدمير الثغرة تدميرًا نهائيًا وكأن عاصفة هبت على الثغرة وقضت عليها، وهذه الخطة تعتبر تطبيقًا لمبدأ من مبادئ الحرب الحديثة، وهو المناورة بالقوات، علمًا بأن سحب هذه الألوية لن يؤثر مطلقًا على أوضاع الفرق المشاة الخمس المتمركزة في الشرق. لكن السادات وأحمد إسماعيل رفضا هذا الأمر بشدة، بدعوى أن الجنود المصريين لديهم عقدة نفسية من عملية الانسحاب للغرب منذ نكسة 1967، مما أدى إلى خسائر فادحة.

في الواقع اننا امام خلاف مبكر، كما روى الفريق الشاذلي في مذكراته لملاسات الخلاف بينه وبين السادات في أثناء حرب أكتوبر، والذي بدأ في الأساس منذ أبريل عام

1973، حينما طرح وزير الحربية حينها تطوير خطة هجوم القوات المسلحة المصرية لتشمل الاستيلاء على المضائق، ومعارضة الشاذلي لهذه الخطة التي الهدف منها في الأساس هو إقناع الجانب السوري بدخول الحرب جنباً إلى جنب مع الجانب المصري. يروي الشاذلي لما بعد خلافه مع السادات وأحمد إسماعيل أثناء حرب أكتوبر، وعقب انتهاء الحرب بدأ الصراع يظهر على الساحة، وتم تعيين الشاذلي سفيراً لمصر في لندن عام 1974، وهو ما يعبر عنه في مذكراته بأنه لم يكن راضياً عنه، وتم ارسال محمد حسني مبارك له للوساطة، وكان الرفض من الشاذلي، وتم تحديد لقاء بين الشاذلي والسادات في اسوان واستطاع السادات اقناع الشاذلي بالموافقة على تعيينه سفيراً في لندن.

مذكرات حرب أكتوبر/تشرين الأول طويلة وصلت لخمسمائة وخمسين صفحة، وفي نهاية ما كتب، أعقب الفريق الشاذلي الكتاب ببلاغ مقدم إلى النائب العام، اتهم فيه السادات بارتكاب جرائم الإهمال الجسيم وإساءة استخدام السلطة وإصدار قرارات خاطئة تتعارض مع التوصيات التي أقرها القادة العسكريون، وكذلك تزيف التاريخ المصري في كتاب أسماه (البحث عن الذات)، وقد ملأ هذه المذكرات بالعديد من المعلومات الخاطئة التي تظهر فيها أركان التزييف المتعمد وليس مجرد الخطأ البريء، بالإضافة إلى الكذب على مجلس الشعب والشعب المصري في بياناته الرسمية، والادعاء الباطل بأن الفريق الشاذلي رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية قد عاد من الجبهة منهاراً يوم 19 أكتوبر/تشرين الأول 1973، وأنه أوصى بسحب جميع القوات المصرية من شرق القناة، في حين أنه لم يحدث شيء من ذلك مطلقاً.

إذا لم يكن من الممكن محاكمة رئيس الجمهورية في ظل الدستور الحالي على تلك الجرائم، فإن اقل ما يمكن عمله للمحافظة على هيبة الحكم هو محاكمتي لأنني تجرأت واتهمت رئيس الجمهورية بهذه التهم التي قد تعتقدون من وجهة نظركم انها اتهامات باطلة. إن البينة على من ادعى وإني أستطيع- بإذن الله- أن أقدم البينة التي تؤدي إلى ثبوت جميع هذه الادعاءات وإذا كان السادات يتهرب من محاكمتي، على أساس أن المحاكمة قد تترتب عليها إذاعة بعض الأسرار، فقد سقطت قيمة هذه الحجة بعد أن قمت بنشر مذكراتي في مجلة (الوطن العربي) في الفترة ما بين ديسمبر/كانون الأول 1978 ويوليو/تموز 1979 للرد على الأكاذيب والادعاءات الباطلة

التي وردت في مذكرات السادات. لقد اطلع على هذه المذكرات واستمع إلى محتوياتها عشرات الملايين من البشر في العالم العربي ومئات الألوف في مصر. وأرى أن الجملة الوحيدة الصادقة في كل هذا التصريح هي أنني لم أحصل على تصريح كتابي من وزارة الدفاع بنشر كتابي عن حرب أكتوبر. أما كل ما جاء على لسان مدير إدارة القضاء العسكري من اتهامات أخرى، فهي ادعاءات باطلة لا تستند إلى أي دليل. نعم، رفضت طلب التصريح بالنشر من وزير الحربية، لأن كتابي عن حرب أكتوبر كان مليئاً بالنقد اللاذع لرئيس الجمهورية ولوزير الحربية، ولأنني طالبت في هذا الكتاب بإلغاء منصب القائد العام للقوات المسلحة، وإبعاد وزير الحربية عن القرارات العسكرية.

تبقى هذه المذكرات شاهدة على أن الفريق الشاذلي أبي إلا أن يكشف للتاريخ حقيقة ما جرى، وأن يعرض تفاصيل حرب أكتوبر من داخل مطبخ العمليات بصفته أحد المخططيين لها. ويبقى أن المذكرات كشفت النقاب عن أخطاء السادات القاتلة من وجهة نظر الشاذلي مثل تسببه في ثغرة الدفرسوار التي غيرت مجرى حرب أكتوبر من نصر ساحق على الكيان الصهيوني إلى نصر هزيل.

محمد أحمد صادق:

«سنوات في قلب الصراع»⁽¹⁾

هو الفريق أول محمد أحمد صادق (14 أكتوبر 1917 - 25 مارس 1991) وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية (15 مايو 1971 - 15 أكتوبر 1972) ومدير المخابرات الحربية في (11 يونيو 1969 - سبتمبر 1969). في 15 أكتوبر 1972 عزلها السادات من وزارة الحربية لاختلافه مع رؤيته لتحرير سيناء.

ولد بقرية القطاوية مركز أبو حماد محافظة الشرقية والده أحمد باشا صادق قائد قوات بوليس السرايات الملكية خلال الفترة من 1923-1948 في عهدي الملك فؤاد والملك فاروق وبعد انتهائه من دراسته الثانوية التحق بالكلية الحربية ليتخرج منها ملازم ثان في إبريل عام 1939. عاون عدة فصائل من الضباط الأحرار قبل الثورة. وتولى بعد ذلك قيادة ثلاثة كتائب مشاة قبل أن يتولى قيادة لواء مشاة ميكانيكي. خدم في الفرقة الثانية بسيناء في حرب 56، وكبير لمعلمي الكلية الحربية أوائل الستينات، ثم ملحقاً عسكرياً بألمانيا الغربية حيث يحسب له أنه من كشف الستار عن صفقة الأسلحة الألمانية لإسرائيل مطلع عام 65 صيف 66 كافأه المشير عبد الحكيم عامر باستنسابه مديراً للمخابرات العسكرية ليستأنه على أمن القوات المسلحة. وامتنح في أزمة 67، قُصّر عن المطلوب سيّما لجهة الإنذار عن نوايا العدو وتوفير دقيق المعلومات عن إمكاناته. لكنه استبقي في تطهير 67 في ذات المنصب.

درس بأكاديمية فرونزه العسكرية الشهيرة بالاتحاد السوفيتي بعد إتمام دراسته بكلية القادة والأركان. أسند إليه منصب الملحق الحربي، ورئيس مكتب المخابرات بألمانيا الغربية في الفترة من عام 1962-1964. بعد عودته من ألمانيا تم تعيينه كبيراً للمعلمين بالكلية الحربية، ولم تمض فترة حتى صدر قراراً بتعيينه مديراً للمخابرات الحربية في 11 يونيو عام 1966. في 9 سبتمبر عام 1969 تم تعيين محمد أحمد صادق رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة المصرية بعد عزل المشير أحمد إسماعيل علي بسبب حادثة الزعفرانة، وتم ترقيته إلى رتبة فريق.

(1) الفريق أول محمد أحمد صادق: «سنوات في قلب الصراع»، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raiayoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

هنا حضرت مذكراته بعنوان: «سنوات في قلب الصراع»، حيث يظهر من المذكرات أنه لم يكن فقط صحفياً يتابع عمل وزارة الحربية «الدفاع الآن»، وإنما كانت له أدوار سياسية سواء قام بها أو امتنع عن القيام بها! «الصراع» الذي جاء في العنوان، وكان الوزير في قلبه، لم يكن فقط ذلك الذي كان بين مصر وإسرائيل، وإنما الذي كان جارياً في قلب السلطة المصرية آنذاك بين أطراف عدة، معسكر عبدالناصر في مواجهة معسكر المشير عامر، ومعسكر السادات في مواجهة معسكر علي صبري. ما كان مثيراً، وموجعاً في نفس الوقت، كان رواية الفريق أول عن «مفاجأة يونيو»، التي مثلت إشارة البداية في هزيمة عام 1967، فقد كتبت عن «مفاجأة أكتوبر» الاستراتيجية التي قامت بها القوات المسلحة المصرية عام 1973، والتي صارت واحدة من أهم الفصول في العلم الاستراتيجي جنباً إلى جنب مع وقائع تاريخية كبرى مثل الهجوم الياباني على «بيرل هاربر» في الولايات المتحدة، والعملية «بارباروسا» التي شنت بها ألمانيا الحرب على الاتحاد السوفيتي أثناء الحرب العالمية الثانية.

رغم أن كثيراً من المذكرات والكتب نُشرت عن حرب «الأيام الستة» سواء على الجانب المصري أو الإسرائيلي، بل في كثير من المعاهد والجامعات التي اهتمت بتاريخ الشرق الأوسط المعاصر أو تاريخ الحرب بشكل عام، ورغم ذلك كله فإن التركيز على جانب «المفاجأة» في الحرب ظل قاصراً وقليلاً، حتى ولو ظل عنصراً مهماً في مفاوضات معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية، التي حرص فيها الطرفان المصري والإسرائيلي على أن يكون في المعاهدة ما يمنع الطرفين من تحقيق «المفاجأة الاستراتيجية» تجاه الطرف الآخر. ما منع «مفاجأة يونيو» من الحصول على نفس الاهتمام الذي حصلت عليه «مفاجأة أكتوبر» أن المفاجأة لا تُعرف فقط بمن يقوم بها، وإنما أيضاً بتأثيرات ما فُعل على الطرف الذي وقعت عليه المفاجأة، فالمفاجأة الاستراتيجية تحدث عندما يتوافر شرطان: الأول أن تتوافر كل المعلومات عن تحركات الخصم في اتجاه الهجوم لدى الطرف الواقع عليه، والثاني أن يفشل الطرف الذي وقع عليه الهجوم في تفسير هذه المعلومات، ويفرض معناها الواضح نتيجة تصورات خاطئة مسبقة على وقوع التصعيد.

مذكرات الفريق أول صادق تلقى أضواء كاشفة على ما جرى في تلك الأيام الحرجة من تاريخ مصر، والتي دارت ما بين منتصف مايو والخامس من يونيو 1967، فقد تولى الفريق أول صادق منصب رئيس المخابرات الحربية المصرية في خريف عام

1966 قبل تسعة شهور من وقوع الحرب، التي جاءت في وقت كانت فيه مصر «تفتقد الاتزان الاستراتيجي» نظراً لتواجد نصف قواتها في اليمن. وبدون الدخول في كثير من التفاصيل، التي يحسن اللجوء من أجلها إلى الكتاب، فإن المخابرات الحربية نجحت في توفير المعلومات الخاصة بتواجد القوات الإسرائيلية ونواياها الهجومية، بل تحديد موعد هذا الهجوم واتجاه ضربته الرئيسية، وأكثر من ذلك أن المعلومات الذائعة آنذاك حول نية إسرائيل الهجوم على سوريا لم تكن صحيحة تماماً، بل إن تأكيد ذلك جاء من المصادر السورية ذاتها. العجيب في الأمر أن القيادة السياسية والعسكرية المصرية لم تكن مستعدة لقبول إمكانية وقوع الحرب، بل إنها وضعت تفسيرها للوقائع لكي تتلاءم مع تمنياتها، وكان أولها أن الحشد المصري والآخر الإسرائيلي ما هما إلا مظاهرات سياسية تستهدف تحقيق نتائج دبلوماسية وسياسية، وثانيها أنه إذا وقعت الحرب فإنها سوف تكون محدودة حينما تحاول إسرائيل فتح خليج العقبة للملاحة الإسرائيلية. ما حدث فعلياً كان مختلفاً كما هو معروف، ودفعت مصر ثمناً فادحاً وتاريخياً لما جرى، ولكن المدهش أكثر أنه لم تُشكّل لجنة تحقيق فيما جرى.

تشير مذكرات الفريق أول محمد صادق إلى أن التقرير عن الهزيمة جاء من خلال لجنة «المارشال زخاروف» الروسية المحايدة، والذي أعدته «من أجل التاريخ»، وصدرت منه نسختان: الأولى ذهبت إلى عبدالناصر، والأخرى ذهبت إلى الفريق أول محمد فوزي، وزير الحربية، وللأسف، ووفقاً لكاتب المذكرات، فإن نسختي التقرير اختفيتا، ومعهما جزء مهم من التاريخ المصري.

رد سامي شرف على مذكرات الفريق صادق:

يرد سامي شرف على ما جاء بمذكرات الفريق محمد أحمد صادق، حيث ما تم نشره تم بصورة مختصرة ومشوهة وهذا نص رد سامي شرف: "أعتدنا منذ وفاة الرئيس جمال عبد الناصر أن يطل علينا بين الحين والآخر ما يسمى مذكرات شخصية؛ يرصد فيها صاحبها ويحلل فترة حكم الرئيس عبد الناصر، ويعطي لنفسه أدواراً لم تكن له يوماً، سواء كان شخصية عامة تولت منصباً عاماً خلال فترة الرئيس عبد الناصر، أو شخصية عادية شاءت الأقدار أن يقابل الرئيس يوماً ولو صدفة. والحقيقة، كان من بين هذه المذكرات ما يستحق التعليق عليه، لأهميتها؛ حيث تتسم بالدقة

والموضوعية، ولكنها قد تحتاج لبعض المعلومات أو التوضيح لتكتمل الصورة لدى القارئ، وأخرى لفداحة ما ورد فيها من زيف وتشويه مبالغ متعمد، وهناك من المذكرات التي لا تستحق التعليق عليها. وما نشرته جريدة الأهرام على صفحاتها، تحت عنوان "مذكرات الفريق أول محمد صادق"!!، هي من النوع الثاني من المذكرات، التي جاءت مليئة بالمغالطات، والتناقضات، وإدعاء دور لم يكن يومًا لصاحبها، مما دفعني للتعليق؛ لتوضيح الحقائق للقارئ الكريم، من شخص عايش هذه الأحداث التي تناولتها المذكرات، وسبق وأشرت إليها من قبل في شهادتي «سنوات وأيام مع جمال عبد الناصر جـ 5، الفصول 24-25-26» لا سيما تلك المتعلقة بالفترة التي أعقبت الرحيل المفاجئ للرئيس جمال عبد الناصر، والسنوات الأولى لحكم الرئيس السادات".

لعل المثال البارز في هذا السياق؛ ما ذكره الفريق صادق!! في مذكراته عن وقائع 15 مايو 1971، وهي أحداث سياسية شديدة التعقيد، تبدلت فيها مواقف رجال، وسقطت أقنعة عن آخرين، لعبت المقادير دورًا حاكمًا، وكانت المؤامرة أمضى فعلًا من الإخلاص وصدق النوايا، إلا أن التاريخ ظل بوقائعه حكمًا عدلًا .. ينصف الحقيقة لا الأشخاص .. يكشف يومًا بعد يوم من تأمر ومن أخلص لهذا الوطن.

ولست هنا بصدد الدفاع عن الذات أو عن مواقف بعينها؛ فأحداث ما يسمى بـ(5 مايو 1971) لاقت من الجدل الكثير، وكما أشرت.. وقائع التاريخ فرقت ما بين حقيقة والزيف، ولكنني أكتب اليوم ضد هذه الجراءة من مقدم هذه المذكرات -عبد مباشر- والتي فاقت صاحب المذكرات نفسه، وتطاوله على الحقيقة؛ حين يقدم للمذكرات فيقول "يرحل الرئيس عبد الناصر عن عالمنا، فينفجر الصراع على السلطة، وقبل أن تكتمل خطوات انقلاب عسكري دبره الفريق أول محمد فوزي وزير الحربية، يتمكن بفضل الضغوط التي مارسها من إحباط هذه المحاولة، ويصل السادات إلى قمة السلطة، إلا أن فريق ورثة عبد الناصر الذين رأوا أنهم الأحق بالسلطة، بدأ العمل من أجل إزاحة السادات. ويقف الفريق صادق رئيس أركان حرب القوات المسلحة في جانب الشرعية ويتمكن من إحباط المخطط الانقلابي للورثة. وبذلك تنتهي معركة الصراع على السلطة خلال مايو 1971 لصالح الرئيس السادات ويتولى محمد صادق منصب وزير الحربية، وتبدأ مصر التخطيط لأول معركة هجومية لتحرير مساحة من سيناء شرق القناة".

في عام 1970، أصدر الرئيس عبد الناصر تعليمات لكل من شعراوي جمعه وأمين هويدي وسامي شرف باعتبارنا المسؤولين أمامه شخصيًا عن أمن النظام، على أن نشرك معنا بشكل غير مباشر - الفريق محمد أحمد صادق، وذلك فيما يتعلق بأمن القوات المسلحة، مع إخطار الفريق أول محمد فوزي بأي مسائل تمس هذا الموضوع. وكانت مسئولياتنا نحن الثلاثة كاملة في اتخاذ الوسائل التي تحقق تأمين النظام بما فيها المراقبات والتسجيلات، وكل ما كان يتجمع من هذه الوسائل كان يرفع للعرض على الرئيس. وهذا أمر معمول به ومطبق إلى الآن في كافة دول العالم كبيرها وصغيرها، ويعلمه خبراء الأمن، دون أن يتعارض ذلك مع اعتبارات احترام الحرية الشخصية، فالأمن القومي مقدم على ما سواه. وجميع تلك التسجيلات موجودة ومحفوظة في أرشيف سكرتارية الرئيس للمعلومات بمنشئة البكري".

بعد أن تولى السادات الرئاسة، استمر نفس الأسلوب بأوامر صريحة منه، إلا أنه لم يتم ترتيب أي نوع من التجهيزات للتسجيل في أي وقت حتى 13 مايو 1971 في منزل الرئيس السادات بالجيزة، أو في استراحة القناطر أو غيرها. وكانت اللقاءات الرسمية مع رؤساء الدول أو الوفود الرسمية أو الزوار، علاوة على اجتماعات مجلس الوزراء وغيرها من المناسبات الرسمية الأخرى هي التي يتم تسجيلها في الأماكن الرسمية فقط دون أماكن إقامته.. وكل هذه التسجيلات محفوظة في أرشيف سكرتارية الرئيس للمعلومات في منشئة البكري. وأستطيع أن أجزم بأنه لم يتسرب أي من هذه التسجيلات، كما لم تستغل أي معلومات شخصية وردت بها بأي شكل من الأشكال حتى 13 مايو 1971.

مع رحيل الرئيس عبد الناصر، رأت الولايات المتحدة وإسرائيل أن العقبة الكبرى التي كانت تقف في طريق هيمنتهم على مصر والمنطقة قد زالت، وبدءوا بالتقرب من خليفته الرئيس السادات، ووضعوا إستراتيجية محكمة للانقلاب على المشروع الناصري، وكانت نقطة البداية التخلص من الرجال الذين يؤمنون بمشروعه ومنهجه، واستبدلهم بآخرين يقبلون مشروع بديل مناقض له. كما يقول هنري كيسنجر في كتابه "سنوات في البيت الأبيض" ص 128 النسخة الانجليزية: "في يناير 1971 اتصل ضابط مصري كبير يمثل المصالح الأمريكية في مصر، وبلغه باسم الرئيس السادات أنه يبدي اهتمامًا كبيرًا باقتراح ديان". وهناك الكثير مما أعلن عنه في كتابات غربية وعربية -أشرت إلى بعضه في شهادتي- يوضح إلى أي مدى كان الترتيب بين السادات والأمريكان والسعوديين ضد

مشروع عبد الناصر، ولو كان السادات -كما يزعم حواريه- مراقبًا حقًا لعرفنا حقيقة ما كان بينه وبين الأمريكيان والسعوديين، ولم نكن نسمح له بفعل ما فعله، ولو اقتضى الأمر أن أتصرف وحدي، وعلى مسئوليتي الشخصية، بدافع وطني وأخلاقي، ولكان مسار كثير من الأحداث، ومصير المنطقة قد تغير.

هذه هي الحقيقة، أما ما جاءت به مذكرات صادق!! يؤسفني أن أؤكد أنها خالية من أي صدق فيما يتعلق بأحداث ما يسمى 15 مايو -على الأقل- وهو ما أستطيع أن أجزم به؛ لأنني كرجل عاصر وشارك في جميع وقائعها بحكم عمله وموقعه، ناهيك عن كثير من اللا منطقية في كثير من أجزائها الذي نشر بجريدة الأهرام.

شهادة أمجد محمد أحمد صادق

في السطور التالية يتحدث المحاسب أمجد صادق، نجل الفريق صادق، الذي لازمه في هذه الفترة الصعبة، وكان شاهدًا أو مستمعًا من والده عن تفاصيل الفترة، يروي الأحداث التي رآها وسمعاها. وصولًا لحرب أكتوبر التي لم تأت، من فراغ بل كانت ثمرة جهد وعمل شاق ومتواصل تعاقب عليه كثير من الرجال، وأعتقد أنه بدأ من 7 يونيو 1967 بعد الهزيمة مباشرة، بدأ الرئيس عبدالناصر يسترد سيطرته مرة أخرى فتم تعيين الفريق محمد فوزي وزيرًا للحربية، الذي كان رئيسًا للأركان بلا صلاحيات كما يقول هو نفسه، وباعترافه الشخصي مع المشير عبدالحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة وشمس بدران وزير الحربية آنذاك.

عملية إعادة بناء القوات المسلحة

مثلت الركيزة الأساسية، وهي تحسب للفريق محمد فوزي، الذي صاحبه فيها الفريق عبدالمنعم رياض رئيسًا للأركان، حيث إن قدراتهما وتأهيلهما العسكري مكناهما من أداء هذه المهمة الصعبة، وأشارت إلى وجود صف ثان من القاده قادر على العطاء ويتميز بالكفاءة والخبرة بدلًا من الاختيارات السابقة، التي اعتمدت على الثقة.

في أعقاب النكسة، حدثت تحقيقات في أسبابها، وهي الواقعة التي لم تتطرق إليها غالبية الكتابات عن هذه الفترة المهمة من تاريخ مصر فقد شكلت لجنة برئاسة الماريشال زخاروف رئيس الأركان السوفيتي، في ذلك الوقت، مكث في مصر أكثر من أسبوعين، قام خلالها بالاستماع لكثير من القادة للوقوف على أسباب ما حدث في 5 يونيو 67 بتكليف من جمال عبدالناصر والسوفيت وجلس مع الفريق صادق أكثر

من تسع ساعات حيث كان يشغل منصب مدير المخابرات الحربية، في ذلك الوقت كما جلس مع قيادات القوات البحرية والجوية ليقدم تقرير من نسختين إلى الرئيس عبدالناصر شخصيًا غير أن أحدًا والفريق صادق الذي بحث عن هذا التقرير لم يطلع عليه ولا أحد يعرف مصيره. أعتقد أنه بناء على تقرير زخاروف للرئيس عبدالناصر بدأت التغييرات في صفوف القوات المسلحة في إطار خطة إعادة بناء القوات المسلحة. بعد استشهاد الفريق عبدالمنعم تم تكليف اللواء أحمد إسماعيل برئاسة أركان القوات المسلحة لكن ما حدث من إغارة على الزعفرانة، وكان عبدالناصر يشهد أحد الأنشطة التدريبية للقوات المسلحة فكلف الفريق صادق الذي كان مدير المخابرات الحربية، اللواء عبدالقادر حسن بإبلاغ الرئيس بما حدث فكلف عبد الناصر اللواء أحمد إسماعيل رئيس الأركان بالتعامل مع الموقف فاتصل عبدالناصر بالأستاذ محمد حسنين هيكل للتأكد من الواقعة فأخبره بصحتها فقرر إحالة أحمد إسماعيل للتقاعد في 1969، ليتولى الفريق صادق رئاسة الأركان.

عن علاقة الفريق صادق بالسادات فهي قديمة وتعود إلى منتصف الأربعينيات، حيث كان صادق يعمل ضابطًا في الحرس الملكي والسادات في الحرس الحديدي الذي يشرف عليه طبيب الملك يوسف رشاد فقد تم طرد السادات من الخدمة بالجيش بعد مقتل أمين عثمان فتعرف عليه الوالد من خلال ترده على يوسف رشاد ومن المواقف أنه عندما أرادوا القبض على السادات سبق الوالد إلى منزل السادات وأخلاه من المفترقات حتى لا يتم توريط السادات وتثبت التهمة عليه. عندما قامت الثورة كان الفريق صادق في الحرس الملكي، المرافق للملك فاروق في قصر رأس التين بالإسكندرية، وكان ممن دافع عن الملك ووقع اشتباك مع القوات التي كانت تحاول محاصرة القصر واقتحامه نتج عنه إصابات بسيطة، وكان الفريق عبدالمحسن مرتجى ضمن قوات الحرس الملكي مع الفريق صادق والفريق سعد متولي أيضًا، الذي أصبح يجاور الرئيس عبدالناصر والسادات، عندما توفي عبدالناصر كانت العلاقة بين الفريق محمد فوزي والوالد جيدة جدًا، لكن ما حدث كان خلافًا سياسيًا فقد رفض الفريق صادق المشاركة في الانقلاب الذي كان يعد له الفريق أول محمد فوزي، وزير الحربية، وشعراوي جمعة وزير الداخلية، وعلي صبري رئيس الاتحاد القومي، لأن الفريق صادق كان يرى أن الأوضاع صعبة ومصر تحاول استعادة أرضها في سيناء وتعد للحرب لا

تحتمل انقلاباً وصراعاً على السلطة يدخل الجيش في عمل غير القضية التي يستعد لها والتي تنتظرها مصر كلها رغم أن العلاقة بين السادات وصادق عادية جداً رغم متانتها في السابق بل أصبحت علاقة عمل رئيس الجمهورية ورئيس الأركان ولم تعد هناك اتصالات.

الفريق محمد فوزي حاول استمالة الفريق صادق للإطاحة بالسادات لكن صادق انحاز إلى الشرعية والمصلحة العليا لمصر، وليس للسادات الذي أكد في خطاب رسمي أن الفريق صادق تحرك وأحبط الانقلاب من وحي ضميره وإحساسه بالمسئولية وليس أمراً أو توجيهاً من أحد. كان الموقف واضح بالنسبة للفريق صادق أن مصر لن تحتمل انقلاباً في ظل وجود عسكري وقواعد سوفيتية والوضع خطير لذا كان قرار الفريق صادق بدون توجيه من أحد.

يوم 14 مايو اتصل الأستاذ هيكल بالوالد طالباً منه الحضور لحلف اليمين الذي أداها الساعة الثانية فجراً أي بعد عشر ساعات من قرار التعيين بعد إحباط الانقلاب. أما الليثي ناصف فقد كان حتى آخر لحظة لم يحسم أمره بل أنه لم ينحاز للسادات، إلا عندما علم موقف الجيش بقيادة الفريق صادق الذي أرسل عناصر من المجموعة 39 قتال التابعة للمخابرات، بعمل كمائن أمام القصر الجمهوري لمنع أي دبابة تخرج من الحرس الجمهوري من الاقتراب من القصر وأن يتم التعامل معها بحسم. بل أن الرئيس السادات طلب من الفريق صادق السماح لدبابات من الحرس الجمهوري لحماية منزله بالجيزة فرفض صادق، مؤكداً أن الأوامر والتعليمات واضحة بمنع خروج وتحرك مركبات ومدرعات الجيش من الوحدات لأنه إذا حدث سوف يتم التعامل معها، وذلك إحصاً للسيطرة على الموقف، ساعتها بدأ الليثي ناصف يميل إلى الشرعية وينحاز إلى السادات.

طلب الفريق فوزي من الوالد وفي كتاب بخط يده أخفاه الوالد خلف برواز صورة بالمنزل ولم يخرجها إلا بعد وفاة الرئيس السادات، لأن ظهوره في حياة الرئيس كان يعنى إعدام الفريق فوزي، وإن كان الأستاذ هيكل قد نشر هذا الخطاب، وتضمن تحريك للقوات وعمل شوشرة على الإذاعة. تعامل الفريق صادق بكل الاحترام مع الفريق فوزي فقد أمر أن يكون سجن الفريق فوزي بالمستشفى العسكري بما يليق بما قدمه لمصر.

خطط الحرب بدأت في الظهور بعد مايو 1971 أعتقد في يوليو بدأت تظهر جرانيت 2 والمعدلة بعدها ظهرت خطة المآذن العالية، وبعد أحداث مايو 71 تولى الشاذلي رئاسة أركان حرب القوات المسلحة مع الفريق صادق الذي أصبح وزيراً للحربية. كان السادات يشك في كل الناس فعندما سافر الفريق صادق إلى الاتحاد السوفيتي وتم استقبله مثل الرؤساء واجتمع مع بريجنيف وجريشكو لمدة أربع ساعات أثار ذلك حفيظة السادات.

خلال حرب أكتوبر حضر إلى منزل والدي شخصيه مقربة من السادات وكان سيذهب بعدها إلى الرئيس السادات قال له الفريق صادق إنه مستعد لخدمة مصر في أي موقع وأنه رهن الإشارة، وقال له الفريق صادق: بلغ السادات سلامي، وقل له خلي بالك من الدفروسوار وكان هذا قبل حدوث الثغرة. كان هناك خطة معدة لتدمير الدفروسوار بمعنى أن القوات المسلحة كانت تتوقع حال حدوث العبور أن تفكر إسرائيل في القيام بعمل كما حدث في الزعفرانة، لذلك كانت هناك قوات معدة للتدريب والتعامل مع مثل هذه المواقف، بمعنى إعداد منطقة شرك أو اصطيد للقوات الإسرائيلية، وهناك قوات متدربة على ذلك.

في 1972 طلب السوفيت قاعدة بحرية في مطروح غير أن الفريق صادق رفض في الوقت الذي بدأ فيه السادات يميل للموافقة، فطلب صادق من القذافي الدفع بوحدة مدرعة، حيث كانت مصر وليبيا ضمن اتحاد الجمهوريات العربية المتحدة، لتأخذ نفس الموقع الذي طلبه السوفيت فأفسد الفريق صادق بالتعاون مع القذافي هذه الخطة.

مذكرات الفريق صادق تكشف تفاصيل مشيرة لتهديب عرفات خلال أيلول الأسود

ضمن مذكرات الفريق محمد صادق ابان ايلول الأسود في الاردن. وفي إحدى المهمات أثناء توليه رئاسة أركان الجيش المصري، عندما سافر مع وفد برئاسة الرئيس السوداني جعفر نميري، كمبعوثين من مؤتمر القمة العربية المنعقد في أيلول/ سبتمبر لوقف القتال بين الأردن وفلسطين، وكلف شخصياً من الرئيس عبد الناصر بإحضار الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات، المحاصر في الأردن.

من مذكرات الفريق أول محمد أحمد صادق، كواليس كاملة لتهديب ياسر عرفات، على لسان منفذ المهمة الفريق أول محمد أحمد صادق من واقع مذكراته:

”القذافي“ لوزير الحربية: سفرك الآن ضرورة لإنقاذ الثورة الفلسطينية اعتباراً من يوم 17 سبتمبر 1970، بدأ الجيش الأردني قصف معسكرات وأماكن تجمعات المقاومة الفلسطينية بنيران كثيفة ومتصلة، وأدرك قادة المقاومة أن الملك حسين يخوض هذه المعركة لتصفية وجود المقاومة الفلسطينية بالأردن، وأنه قد حسم أمره فعلاً، ومستعد للمضي إلى النهاية. وقررت كل المنظمات الفلسطينية خوض المعركة، ولم يكن أمام المقاومة فرصة للانتصار على الجيش الأردني حسن التدريب والموالي للملك حسين، وتساعد هذا الغضب الذي لم تبال به القيادات الفلسطينية في الوقت المناسب، بل ولم تعره أى اهتمام استناداً إلى وجودها القوي ورسوخ أقدامها بالصفة الغربية للأردن التي تضم نسبة كبيرة من السكان الفلسطينيين، وكذلك إلى تعاطف الرأي العام العربي معها باعتبارها أول تجسيد للمقاومة العربية بعد نكسة يونيو 1967، وظل الغضب يتصاعد ضد المقاومة الفلسطينية ورجالها. وكنت قبل أن يبدأ الهجوم الأردني على المقاومة الفلسطينية قد قررت دخول مستشفى القوات المسلحة في ضاحية المعادى بالقاهرة لإجراء جراحة ولم أخبر أحداً بدخولي المستشفى، كان في ذلك الوقت الرئيس جمال عبدالناصر موجوداً في مرسى مطروح لراحه إجبارية فرضها عليه الأطباء، ولن يزعجني أحد، وعلى أن أجري الجراحة وأمضي بضعة أيام في المستشفى ثم أعود لعملتي كرئيس لهيئة أركان القوات المسلحة المصرية، وبعد دخولي المستشفى بساعة واحدة دق جرس التليفون وقيل لي إن الرئيس عبدالناصر على التليفون. لازلت أذكر صوته يرن في أذني: ”أهلاً يا صادق.. انت فين.. إحنا عاوزينك لمهمة عاجلة ستسافر الآن فوراً إلى الأردن في مهمة لوقف القتال الدائر هناك، المقاومة في مأزق وانت أعرف الناس بهم، انت فين دلوقت؟“ ولم أشأ أن أقول للرئيس إنني في المستشفى، وعاد عبدالناصر يكمل حديثه قبل أن أرد: ”إلى جواربي الآن الرئيس القذافي هو أيضاً سيكلمك“. ويقول القذافي: ”يا أخ صادق سفرك الآن ضرورة لإنقاذ الثورة الفلسطينية“، ويعود الرئيس عبدالناصر ليتابع تعليماته: ”جهز نفسك للسفر فوراً إلى عمان“. وأجيب أنا: ”لكن يا سيادة الرئيس.. عمان تحترق، القتال في الشوارع، مطار عمان مغلق“. ويرد الرئيس: ”يا صادق تصرف، وأنا واثق في حسن تصرفك، كل ما نطلبه من الملك حسين هو وقف نزيف الدم.. وتحقيق المصالحة وإنقاذ عرفات من هذا المأزق الخطير“.

السفر إلى الأردن ولقاء الملك حسين وشروط وقف إطلاق النار

غادرت المستشفى من دون أن أجري الجراحة.. رغم تجهيز حجرة العمليات فعلياً، ومن مستشفى المعادي إلى مطار "أماظة" مباشرة، حيث أصدرت تعليماتي بتجهيز طائرة حربية للإقلاع فوراً على أن تملأ خزانات الوقود إلى نهايتها.. ولم أشأ أن أطلعهم على وجهة سفري، فقط اكتفيت بالقول إننا متجهون إلى بيروت، وعند وصولنا أجواء العاصمة اللبنانية قلت لقائد الطائرة: "الآن إلى مطار المفرق في الأردن"، وبلا إجراء أي اتصالات لاسلكية كنا فوق مطار المفرق وهبطت الطائرة. وهناك توجهت لقائد المطار العسكري وكشفت له عن شخصيتي، أنا الفريق محمد صادق رئيس أركان القوات المسلحة المصرية، أريد لقاء عاجل مع جلالة الملك حسين.. معي رسالة مهمة من الرئيس عبدالناصر، اتصالات عديدة تمت مع القصر الملكي.. أخيراً الملك حسين على التليفون ليقول لي: "الطريق غير مأمون لوصولك". قلت: أعلم ذلك.. أرجو إرسال طائرة هليكوبتر للوصول إليك، وبالفعل جاءت طائرة الملك حسين إلى مطار المفرق، وركبنا الطائرة التي هبطت بنا في فناء القصر الملكي بالبحر.

الملك حسين في رداءه العسكري.. مظاهر الإرهاق بادية على وجهه.. استقبلني مرحباً ومتسائلاً: "ها أنت ترى أفعالهم، لابد من القضاء على الفتنة وإنقاذ الأردن". جلست طويلاً مع الملك وبعد أن أطلعني على كل دقائق الموقف العسكري قلت: أريد أن أقابل ياسر عرفات.. وأين هو عرفات؟ قال لي الملك: "لن تجده.. نحن نبحث عنه ولا نجده. وبعد مناقشات دامت حوالي ثلاث ساعات غادرت القصر الملكي بسيارة مصفحة نقلتني إلى مقر السفارة المصرية في جبل عمان حيث يواجهها فندق الأردن أكبر فنادق عمان العاصمة، وهناك لم أجد أحداً في السفارة إلا ضابط اتصال مصري شجاع، لم يكن معنا في السفارة سوى جهاز اللاسلكي، وجهاز راديو، والقصف يحيط بنا من كل النواحي، ظلت ثلاثة أيام داخل السفارة، ومن الطابق العلوي كنت أراقب مسرح العمليات وأجريت من خلال ضابط الاتصال المصري اتصالات مباشرة مع عدد من قادة المقاومة وبدأت عملية إبلاغ الرسائل إلى أبوعمار عن طريق إبراهيم الدخايني ضابط الاتصال حول شروط وقف إطلاق النار.

الملك حسين يبلغ عبدالناصر في القاهرة بالشروط التي يراها ملائمة لوقف إطلاق النار ويتصل عبدالناصر بي لأبلغها بدوري لضابط الاتصال الذي يقوم بإبلاغها

لياس عرفات، وكان عليه أن يخترق خطوط القتال سيراً على الأقدام من الجانب الأردني إلى الجانب الفلسطيني، وقد رأى ياسر عرفات أن الشروط الأردنية قاسية، ولا يستطيع قبولها، وطلب في رسالة إلى عبدالناصر الحصول على شروط أفضل من تلك الشروط.

عبد الناصر: أحضروا ياسر عرفات حيًّا إلى القاهرة

وعدت إلى القاهرة وقابلت على الفور الرئيس عبدالناصر وقدمت له تقريره النهائي، وقتها كان عبدالناصر قد دعا الملوك والرؤساء العرب لاجتماع قمة طارئ يعقد في القاهرة، وخلال المؤتمر اقترح عبدالناصر تشكيل وفد يمثل القمة العربية برئاسة الرئيس السوداني جعفر النميري وعضوية الباهي الأدغم رئيس وزراء تونس آنذاك، والشيخ سعد عبدالله السام، وزير الدفاع الكويتي آنذاك، بالإضافة إلى شخصي كرئيس لأركان القوات المصرية المسلحة. واتفق على أن يكون هذا الوفد ممثلًا لكل المجتمعين في القاهرة وله سلطة التصرف باسمهم في الموقف على أساس الاتصالات بالملك حسين وبالسيد ياسر عرفات.

كانت قمة القاهرة قد عقدت في محاولة جادة من مصر لإيجاد مخرج للأزمة المتدهورة في الأردن حيث يرتفع عدد الضحايا كل دقيقة بطريقة مخيفة، وعقد وفد القمة اجتماعاً في فندق هيلتون، تم خلاله الاتفاق على خطة عمل الوفد المسافر إلى عمان، وبعد ذلك اتجهت للقاء منفرد مع الرئيس عبدالناصر الذي بادرنى قائلاً: “أهم شيء عندي الآن هو أن تحضر لي ياسر عرفات حيًّا إلى القاهرة، فعرفات يمثل الرمز الفلسطيني ولا بد من إنقاذ هذا الرمز، عليك أن تتصرف في نطاق من السرية الكاملة، ولك كل الصلاحيات، بقية المهام يقوم بها وفد القمة مجتمعاً، وضع خططك ونفذ التعليمات فنحن في سباق مع الزمن”.

غادرنا جميعاً مطار القاهرة إلى مطار عمان، حيث فوجئ الجميع بوصول وفد الملوك والرؤساء العرب، واتجهنا فوراً إلى لقاء الملك حسين الذي كان يحيط به كبار ضباطه، وبدأ العاهل الأردني شرحاً مطوَّلاً للموقف، وعقب انتهاء المباحثات، وجه الرئيس نميري بياناً أذيع عبر إذاعة عمان موجهاً لجماهير الشعب الأردني قال فيه: “إننا جئنا إليكم باسم مؤتمر القادة العرب الذي انعقد اليوم في القاهرة، فور أن حلت النكبة في بلدكم العزيز هذا، وما وقع فيه من أحداث دامية مؤسفة عصرت الدماء في قلب الأمة العربية، لقد كانت الشعوب العربية تتابع كفاحكم ضد العدو

المشترك لحظة بلحظة طوال السنوات الماضية.. ولكنها روعت فجأة بوقوع الكارثة بالأردن المفتوح، وقد كانت تتوقع حدوث أي شيء ما عدا هذا لثقتها بأن الذي يقف في أرض المعركة هو أكثر الناس إدراكاً وتمسكاً بمعنى الاتحاد والتعاون والتلاحم تحت كل الظروف، إن الشعوب العربية لم تكن تتصور أن تتفاقم الأحداث وتصل إلى ما وصلت إليه بين الأخوة الأشقاء في الدار والدم واللحمة والهدف والمصير، بل كانت تؤمن أن القوى الصامدة في الأردن هي أكبر من كيد العدو ومكره وأساليبه الخبيثة المدمرة، لقد اجتمعت وأعضاء الوفد العربي إلى جلالة الملك حسين ولمست مع إخواني جراحات قلبه وأسى فؤاده.. ولكننا لمسنا إلى جانب ذلك إيمانه بالعمل الفدائي، وحرصه عليه، وإيمانه بوحدة شعبه وقديسيته وحرصه عليه، وقد لمسنا من جلالته الاستجابة الصادقة والفورية لنداء أمته وصوت ضميرها وهو الذي كافح وعمل في سبيل أمته طوال حياته، ولئن تعذر علينا الاجتماع بالأخ ياسر عرفات، فقد اجتمعنا بالأخوة صلاح خلف، وفاروق قدومي، وإبراهيم بكر، وبهجت أبوغريه، والعقيد سمير الخطيب، ووجدنا عندهم الاستجابة الفورية والصادقة لنداء أمتهم وصوت ضميرها وهم العاملون المكافحون في سبيل قضيتها المقدسة“.

أخيراً نجحت الجهود العربية، وتم الاتفاق على عودة قوات الجيش الأردني إلى ثكناتها وقواعدها العادية، وجلاء الفدائيين من عمان والمدن والقرى، ونقل قواعدهم إلى خطوط وقف إطلاق النار والتفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت تضم وقتئذ منظمات المقاومة العشر برئاسة السيد ياسر عرفات، وتطبيق نظم الدولة وقوانينها على الفدائيين وعلى كل من يعيش على أرضها. عدنا إلى القاهرة وقد وصلت الجهود إلى نتيجة يمكن لها على الأقل أن توقف النزيف والخراب، وأن تعطي للقادة العرب فرصة للتفكير والتدبر، فهناك اتفاق تم التوصل إليه لوضع حد للحرب الأهلية في الأردن، وهذا الاتفاق يحظى بموافقة كل الأطراف -أردنيًا وفلسطينيًا وعربيًا- وكان هذا بالتحديد يوم 23 سبتمبر/ أيلول سنة 1970، وفي هذا اليوم غادر الرئيس اللبناني شارل حلو القاهرة إلى بيروت بعد أن شارك في جانب من اجتماعات القادة العرب وفي الوقت نفسه كان الرئيس اللبناني الجديد سليمان فرنجية قد تسلم سلطاته الدستورية اعتباراً من يوم 23 أيلول ثم غادر بيروت إلى القاهرة صباح 24 أيلول ليشترك في اجتماعات القمة العربية، وفي اليوم التالي 24 أيلول 1970 حدثت المفاجأة،

فاتفاق وقف إطلاق النار لم يصمد طويلاً، القتال استؤنف بطريقة أشد وأعنف. عاد القادة العرب المجتمعون في القاهرة لليوم الثالث على التوالي إلى مشاوراتهم ووصلوا إلى نتيجة محددة، أن الأمور وصلت بما تتجه إليه الأحداث في الأردن إلى حد يتعين معه حسم الموقف بصفة قاطعة ونهائية. واتفق القادة العرب على أن يعود الرئيس جعفر نميري إلى عمان مرة أخرى وأخيرة على رأس وفد يضم الباهي الأدغم، والسيد حسين الشافعي، والشيخ سعد العبدالله السالم، والدكتور رشاد فرعون مستشار الملك فيصل، والسيد فاروق أبو عيسى وزير خارجية السودان آنذاك، والفريق محمد أحمد صادق، وكانت مهمة الوفد المعلنة هي تقصى الحقائق والعمل بكل الوسائل من أجل وقف إطلاق النار على أن يعود الملوك والرؤساء العرب للاجتماع مرة أخرى في اليوم التالي (25 سبتمبر) للنظر في النتائج النهائية لمهمة الوفد. كانت هذه هي مهمة الوفد الرسمية والمعلنة، أما المهمة الأخرى السرية التي لم يكن يعرفها أحد غيري فهي صدور تعليمات مباشرة لي من الرئيس عبدالناصر بإحضار ياسر عرفات إلى القاهرة بأي طريقة وبأي أسلوب كان.

ثلاث سيارات مصفحة لتحرير "عرفات" قرب جبل اللويبة

وصلنا إلى عمان وعقدنا اجتماعاً مطوّلاً مع الملك حسين، تركت الاجتماع وذهبت إلى شرفة القصر الملكي استطلع ميدان المعارك، كان القصف مركزاً وشديداً على مناطق معينة علمت أنهم يعتقدون أن أبوعمار كان موجوداً فيها، وأثناء المقابلة الطويلة قطعت الإذاعة الأردنية إذاعتها التي كانت تقتصر على الأناشيد العسكرية، لتعلن أن الرئيس نميري سيذيع بياناً بعد وقت قصير، وفي الساعة الحادية عشرة وعشر دقائق مساء 24 سبتمبر/ أيلول أذاع راديو عمان نداء بصوت الرئيس نميري كان نصه: "الأخ المناضل ياسر عرفات، باسمي شخصياً ونيابة عن الوفد الذي وصل إلى عمان هذه الليلة نرجو منكم أن تقترحوا علينا كيف يمكن الاتصال بكم ومكان وموعد الاجتماع وبأي وسيلة متاحة، وبما أن الأمر هام وعاجل فأرجو تحقيق ذلك حالاً.. نكرر حالاً وشكراً..". وظل راديو عمان يكرر النداء بعد ذلك عدة مرات، وبعد حوالي الساعة.. وفي الساعة الثانية عشرة و45 دقيقة رد أبوعمار على النداء ببيان أذيع من راديو اللجنة المركزية في دمشق قال فيه: "سيادة الأخ الرئيس اللواء أركان حرب جعفر محمد نميري.. سمعت نداءكم الموجه إلينا من إذاعة عمان من أجل لقاء عاجل

وفوري يجمعنا.. وتلبية لندائك أقول: ليكن الاجتماع الليلة وفي حدود الساعة الواحدة ، ونقترح أن تصلوا سيادتكم عبر الطريق الموصل من فندق الكرمان إلى مدرسة عالية إلى مقر سفارة الجمهورية العربية المتحدة في جبل اللويده ويصلكم مندوب من طرفنا ليرافقكم إلى مقر الاجتماع، لقد عممنا على قوات الثورة في جبل اللويده لتأمين وصولكم وعدم التعرض لسيادتكم وسيكون أكثر أمناً لمسيرتكم لو شددتم على الطرف الآخر بالتقيد بوقف إطلاق النار في جبل اللويده هذه الليلة وإلى أن نلتقى بكم لكم التحية من إخوانكم المناضلين“.

من القصر الملكي في عمان ذهبنا إلى لقاء ياسر عرفات وكان دليلي هو ذلك الضابط المصري الشجاع إبراهيم الدخاني، وتحت ستار من القصف المدفعي الشديد توجهت ثلاث سيارات مصفحة إلى مكان الاجتماع بعرفات، توقفت السيارات الثلاث عند مكتب الوزير المفوض المصري في جبل اللويده، منطقة يسيطر عليها الجيش الأردني، وعلى بعد كيلو متر واحد يقف الفدائيون متحصنين في مواقعهم على قمم جبال عمان وفوق أنقاض المنازل التي تهدمت وصل مندوب من ياسر عرفات، وبعد مداولة قصيرة تقرر أن ينتقل الرئيس السوداني ومعه أعضاء الوفد إلى المقر السري لعرفات، ويتم اللقاء، ويتفق على أن ينتقل الجميع إلى مقر السفارة المصرية في جبل عمان، وكان لابد من تغيير زي أبوعمار حتى لا يتعرف عليه أحد، وبالفعل نجحنا وركبنا السيارات ومعنا عرفات ودخلنا السفارة المصرية من دون أن يحس أحد أن معنا ياسر عرفات، وبدأنا المفاوضات مع الملك حسين.

في الساعة الثانية إلا الثلث بعد ظهر يوم 25 سبتمبر أذاع راديو عمان أن وفد الملوك والرؤساء قد اجتمع مع كل من الملك حسين وياسر عرفات، وقال أنه نتيجة للجهود المباركة التي بذلها الوفد برئاسة اللواء جعفر نميري فقد تم بحمد الله الاتفاق الشامل على وقف إطلاق النار، وأضاف أن ياسر عرفات سلم إلى اللواء نميري “نداء خطياً” موقعاً منه بوقف القتال، بعد ذلك بدأ وفد الرؤساء بحث الخطوات التنفيذية للاتفاق، ولكنها تعثرت بالتطورات التي حدثت عند العصر، فالقتال استؤنف مرة أخرى وتجدد القصف وشمل كل مناطق عمان. ولكي أتمكن من إخراج ياسر عرفات من عمان من دون علم أي فرد في الأردن طلبت منه أن يصعد إلى الطابق الثالث من السفارة ويظل هناك إلى أن أحضر إليه، في الوقت نفسه طلبت من ضابط

الاتصال المصري أن يقوم أبوعمار بتسجيل بيان يذاع بصوته في وقت حددته له من إذاعة المقاومة يهاجم فيه الأردن ويعلن استمرار القتال حتى يتم الاتفاق الكامل على وقف إطلاق النار، وقتها اعترض أبوعمار قائلاً: كيف ذلك؟ قلت له: أرجوك لا وقت لدينا نفذ ما طلبته منك وأنا ضامن للنتيجة النهائية وهي حقن الدماء، وسأتجه أنا الآن مع وفد القمة العربية للقاء أخير مع جلالة الملك حسين. وبالفعل ذهبت مع الرئيس نميري ودخلنا مع الملك حسين في مفاوضات حول تثبيت وقف إطلاق النار، وبعد مضي نصف ساعة، دخل علينا أحد ياوران الملك حسين ومعه جهاز تسجيل أداره للملك فسمعنا بياناً بصوت ياسر عرفات يهاجم فيه الأوضاع بشدة ويعلن استمرار القتال حتى يتم التوصل إلى إيقاف حقيقي للمعارك، وثار الذين من حول الملك وبدا الوضع في غاية الصعوبة فقلت لهم بالقطع هذا ليس صوت عرفات، ولم يستمع أحد لتبريراتي، وانتهى الاجتماع بقرارنا العودة فوراً إلى القاهرة. وعدنا إلى السفارة المصرية وقد اشتدت المعركة، وقد لاحظت من خلال متابعتي أن القصف تركز هذه المرة على المنطقة التي التقينا فيها بياسر عرفات في جبل اللويدة، وقبل أن يغادر السفارة المصرية طلبت أن اصطحب معي في الطائرة عدداً من المصريين الذين حاصرتهم الأحداث، وبالفعل وصل إلى مقر السفارة عدد من السيدات طلبت منهن أن يجهزن أنفسهن لركوب السيارات التي ستتجه إلى المطار، وصعدت إلى الطابق العلوي من السفارة وطلبت من أبوعمار أن يحلق ذقنه وهنا فقط أخبرته أنه سيصحبنا إلى القاهرة، فعارض عرفات ذلك بشدة، فقلت له أن هذا هو قرار الرئيس عبدالناصر، وإن وجودك الآن حيّاً خارج عمان أفضل للمحافظة على الثورة الفلسطينية، والرئيس عبدالناصر لديه من الخطط ما يضمن إنهاء الاقتتال الدائر خلال يومين أو ثلاثة، عارض عرفات طويلاً ولكنه في النهاية وافق، ثم استعرت عباءة الوزير الكويتي وألبستها لعرفات ونزلت به إلى الطابق الأرضي للسفارة وطلبت من إحدى المواطنات المصريات أن تركب السيارة ومعها عرفات وابنتها، وبدأنا جميعاً نتحرك إلى السيارات من دون أن يشعر به أي فرد من رجال المخابرات الأردنية. ووصلنا إلى مطار عمان فطلبت من سائق سيارة عرفات أن يتجه مباشرة إلى الطائرة ونزل عرفات ومعه السيدة المصرية التي لم تكن تعرفه وصعد إلى الطائرة وجلس في مقعده من دون أن يحس به أحد بينما كنت أنا منهمكاً في حديث ضاحك مع أحد ضباط الجيش الأردني الكبار كما صافحت حرس الطائرة لأشغلهم عن متابعة الصعود إلى داخلها.

”أبو عمار“ يصل القاهرة ودهشة جمال عبد الناصر

انطلقت الطائرة إلى القاهرة ونزل منها الرئيس نميري وبقية أعضاء الوفد واستقبلنا في المطار من دون أن يشعر أي فرد في مصر، ومن المطار إلى مكنتبي في رئاسة الأركان ومعني عرفات، وفجأة دق جرس التليفون، كان المتحدث سامي شرف: ”حمداً لله بالسلامة.. نقدر جهودكم، الرئيس عبدالناصر يسأل عنك وما هي أخبارك“، قلت: ”كله تمام“، سأل سامي شرف: ”ماذا تعني، ماذا أقول للرئيس؟“. قلت: ”كله تمام“. قال: ماذا تعني؟ قلت: ”لا شيء“، فقط أرجو إبلاغه: المهمة نفذت“. قال: ”أي مهمة؟“ قلت: ”أرجوك أبلغ الرسالة للسيد الرئيس“ وبعد دقائق كان عبدالناصر شخصياً على التليفون ”يا صادق حمداً لله بالسلامة، ماذا فعلت؟“ قلت: ”المهمة نفذت يا فندم، كله تمام، عرفات موجود معي“. قال الرئيس: ”موجود فين؟“ قلت: ”عرفات معي الآن“. قال الرئيس: ”معك الآن في القاهرة؟ كيف حصل ذلك؟ كيف خرجت به من عمان من دون أن يعلم أحد؟ وكيف دخلت به القاهرة من دون أن يراك أحد؟“ قلت: ”يا فندم أبوعمار إلى جوارى الآن يرتدي بذلة الياور المرافق لي“. قال الرئيس: ”إذن أحضر أنت وهو فوراً..؟ نعم الآن وفوراً..“ وبعد دقائق كنا ياسر عرفات وأنا في منزل الرئيس عبدالناصر بالأحضان وبالعناق قابله عبدالناصر والدموع تملأ عينيه.. ”الحمد لله“ ... قالها الرئيس عدة مرات. قلت للرئيس عبدالناصر: ”ما العمل الآن يا سيادة الرئيس؟“ قال: ”ماذا تقترح؟“ قلت: ”يظل عرفات معنا بصفة سرية لبضعة أيام ثم يطير إلى دمشق ومن هناك يبدأ العمل“. هنا قال عبدالناصر: ”بل عرفات سيظهر للناس غداً وبصفة رسمية..“. قلت: ”هذا سيؤزم الموقف“. قال الرئيس: ”يا صادق اذهب الآن لتنام لقد نفذت مهمتك بنجاح.. واترك لي المهمة الآن“. وبالفعل تركت عبدالناصر ومعه أبوعمار وعدت إلى مكنتبي. وبعد ساعتين دق التليفون وصوت عبدالناصر: ”يا صادق افتح الراديو اخبار الساعة الواحدة والنصف مساء ستعلن وصول ياسر عرفات إلى مصر“. قاطعته قائلاً: ”يا ريس أخشى من تأزم الموقف“. وهنا قال عبدالناصر ”ظهر غد يكون الملك حسين في القاهرة وستتحقق المصالحة“. في اليوم التالي كان الملك حسين يتصل بالرئيس عبدالناصر ويبلغه أنه في طريقه إلى القاهرة لحضور القمة.

في مساء يوم 27 سبتمبر أعلن من القاهرة التوصل إلى اتفاق شامل بين

الحكومة الأردنية والمقاومة الفلسطينية، وبدأ الملوك والرؤساء العرب يغادرون القاهرة إلى عواصم بلادهم وكنت مع عبدالناصر بالمطار وكانت السعادة تغمره، وكانت آخر كلماته لي: “يا صادق اذهب الآن لتستريح، وبعد ذلك فلتدخل المستشفى لتجرى الجراحة، لماذا لم تقل لي وقتها انك كنت في المستشفى عندما طلبت منك السفر فوراً إلى عمان؟”. قلت له يا سيادة الرئيس لم أفعل سوى الواجب، فلتعد سيادتكم الآن للمنزل وتستريح. قال لي: “بالفعل أنا تعباً وسأنام ملء جفوني. الحمد لله. تحققت المعجزة. سأذهب لأنام ولا أريد أي إزعاج من أي واحد منكم. أنت أيضاً اذهب لتنام مفهوم وبعدها سنلتقى...”. وودعت الرئيس بعد أن أدت له التحية العسكرية وذهبت إلى مكثبي. وبعد ساعات دق جرس التليفون: عليك بالتوجه فوراً إلى منزل الرئيس عبدالناصر. وقتها قلت لنفسي ”سبحان الله، الراجل ده مش حايريح نفسه أبداً..“ ولم يخطر على بالي أي شيء سوى أنها مهمة جديدة سيكلفني بها الرئيس عبدالناصر. وفي بيته في منشية البكري كانت الفاجعة ... عبدالناصر ف رحاب الله.

أحمد بدوي..

المشير بين "قصة صمود السويس" وصولاً لـ "قيادة الجيش الثالث الميداني" (1)

هو المشير أحمد بدوي سيد أحمد رجل من رجالات القوات المسلحة المصرية قدم روحه قرباناً لوطنه وفداءً لأرضه مثل التجسيد الحي للصلاية والشدة في عمله ومهامه فهو خير مثال للأصالة المصرية النابعة من تراب أرضها سجل إسمه في تاريخ الجيش المصري بحروفٍ من ذهب وهو أحد أبرز قيادات نصر أكتوبر العظيم فقد كان أحمد بدوي قائداً للفرقة السابعة المشاة في تلك الحرب والتي كانت ضمن وحدات الجيش الثالث الميداني الذي كان يقوده اللواء عبد المنعم واصل وكان المشير أحمد بدوي من الشخصيات العسكرية التي تدرك معنى الجندية التي ينتمى إليها وكان يؤمن بعدم مركزية القيادة وضرورة إعطاء القادة حرية إتخاذ القرار في ميدان المعركة كما كان مثالاً للقائد المتفاني الحريص على حياة جنوده.

ولد المشير أحمد بدور في يوم 3 ايريل عام 1927 بمدينة الإسكندرية وبعد أن حصل علي شهادة إتمام الدراسة الثانوية إلتحق بالكلية الحربية وليتخرج منها عام 1948 وليشارك في نفس العام في حرب فلسطين حيث قاتل ضمن صفوف القوات المصرية في المجدل ورفح وغزة والعسلوج وإكتسب من خلال ذلك خبرة كبيرة في النواحي القتالية والإدارية وفي فن القيادة. وبعد إنتهاء حرب فلسطين تم تعيينه مدرساً في الكلية الحربية عام 1955 ثم أصبح مساعداً لكبير معلمي الكلية الحربية حتى عام 1958 وخلال هذه الفترة أضاف الكثير إلى العلوم العسكرية التي كانت تدرس في ذلك الوقت في الكلية الحربية وحرر البرامج التعليمية فيها من السطحية وحولها إلى برامج متعمقة وأكثر تخصصية ثم سافر في بعثة دراسية إلى الإتحاد السوفيتي لمدة ثلاث سنوات حيث إلتحق بأكاديمية فرونز العسكرية العليا وتخرج منها حاملاً درجة أركان حرب عام 1961.

بعد عودة المشير بدوي من الإتحاد السوفيتي إشتراك في حرب اليمن عام 1965 وحارب في العديد من المعارك هناك ثم عاد ليتولى رئاسة الفرقة السادسة مشاة وإشتراك

(1) المشير أحمد بدوي.. قصة صمود السويس وصولاً لقيادة الجيش الثالث الميداني، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

المشير أحمد بدوى في حرب الخامس من يونيو عام 1967 وأبلى بلاءً حسنًا وأدى واجبه في معركة الكونتلا وهي قرية تابعة لمركز نخل بمحافظة شمال سيناء على بعد نحو 30 كيلو متر شمال مدينة طابا ونحو 10 كيلو متر من الحدود المصرية الإسرائيلية ولذلك فإن موقعها له أهمية إستراتيجية بالغة ولكن النتائج النهائية لتلك الحرب حجت الكثير من العمليات البطولية التي أثبت فيها المقاتل المصرى قدرته على التفوق أمام العدو الإسرائيلي في الالتحام والمواجهة حيث أنه للأسف الشديد قد إنتهت الحرب بهزيمة مهينة لقواتنا المسلحة وإنتصار مدوى لإسرائيل وكان ذلك بسبب غياب الخطط العسكرية الحربية على مستوى القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية وإنشغال القيادات العليا بالجيش في أمور بعيدة عن الشؤون العسكرية إلى جانب نقص التدريب الجيد والأسلحة المتطورة في صفوف قواتنا المسلحة بينما كان هناك إستعداد جيد جدًا للحرب من الجانب الإسرائيلي وتجلي ذلك في إستخدام إسرائيل لعنصر المفاجأة في ضرب القوات الجوية والبرية حيث لم تتوقع القيادة المصرية هجوماً عند الفجر لكن إسرائيل نفذت الهجوم في هذا الوقت مما أفقد القيادة توازنها وشل تفكيرها وسبب خسائر فادحة في صفوف قواتنا المسلحة علاوة على تفوق القوات الإسرائيلية المسلحة بأفضل الأسلحة الغربية الحديثة وخاصة سلاح الطيران وسلاح المدرعات الإسرائيليين اللذان سيطرت بهما إسرائيل على ميادين القتال في الجبهات المختلفة مع مساندة الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية لإسرائيل عسكرياً وإقتصادياً وبعد حرب الخامس من يونيو عام 1967 صدر قرار بإحالاته إلى المعاش وإعتقل لمدة عام على خلفية التخوف من دفعة شمس بدران وزير الحربية أثناء حرب 1967 وهي نفس دفعة أحمد بدوى والذي كان أحد القيادات الفاشلة التي تسببت في نكسة عام 1967 ثم تم الإفراج عنه في شهر يونيو عام 1968 وإلتحق خلال تلك الفترة بشعبة إدارة الأعمال بكلية التجارة بجامعة عين شمس وحصل منها على درجة البكالوريوس عام 1974.

في شهر مايو عام 1971 صدر قرار من الرئيس الراحل أنور السادات بعد توليه الحكم في شهر أكتوبر عام 1970 خلفاً للرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعودته إلى الخدمة في صفوف القوات المسلحة المصرية وإلتحق بأكاديمية ناصر العسكرية العليا في عام 1972 وحصل منها على درجة الزمالة عام 1972 وتم إختياره ليكون قائداً للفرقة السابعة المشاة خلال حرب أكتوبر عام 1973 وفي يوم 13 ديسمبر عام 1973 ليكون

قائدًا للجيش الثالث الميداني مع ترقيته إلى رتبة اللواء ثم عين رئيسًا لهيئة تدريب القوات المسلحة في يوم 25 يونيو عام 1978 ليشرف على تدريب جيش مصر بأكمله ولم تمض إلا شهور قليلة إلا وتم إختياره ليشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في يوم 4 أكتوبر عام 1978 خلفًا للمشير محمد علي فهمي وبحكم منصبه شغل أيضًا منصب الأمين العام المساعد للشؤون العسكرية في جامعة الدول العربية وفي يوم 26 مايو عام 1979 تمت ترقيته إلى رتبة الفريق ثم تم تعيينه وزيرًا للدفاع وقائدًا عامًا للقوات المسلحة في يوم 14 مايو عام 1980.

لقد تجلت بطولة المشير أحمد بدوي في حرب أكتوبر عام 1973 حينما استطاع مع فرقته عبور قناة السويس إلى أرض سيناء ضمن فرق الجيش الثالث الميداني واستطاع هو وفرقته أن يصدوا هجمات العدو الإسرائيلي المضادة بدون دبابات أو مدرعات حيث تأخر تركيب كبارى العبور في قطاع الجيش الثالث الميداني نظرًا للصعوبات الطبيعية التي واجهت سلاح المهندسين خلال عملية فتح الثغرات في الساتر الترابي نظرًا لسمكه الكبير وشدة إرتفاعه إلى جانب صلابة التربة وإحتوائها على عناصر كلسية متحجرة مما جعل عملية التجريف عملية شاقة جدًا وأدت هذه المعوقات إلى الإكتفاء بتجهيز ميول حادة بالثغرات التي تم فتحها حتى يمكن تقليل الوقت وبالتالي تستطيع الدبابات والمدرعات والعربات المجنزرة التي كانت الحاجة ماسة إليها شرق القناة في ذلك الوقت العبور إلى هناك ووقف البطل أحمد بدوي وقائد الجيش البطل عبد المنعم واصل بين رجال المهندسين العسكريين يحثونهم على سرعة الإنتهاء من هذا العمل وفي النهاية تم إنشاء كبارى الفرقة السابعة المشاة بعد حوالي 16 ساعة من بدء العبور بتأخير قدره حوالي 7 ساعات عن التخطيط الموضوع مسبقًا وتمكنت دبابات ومدرعات ومجنزرات هذه الفرقة من العبور إلى شرق القناة كما أمر اللواء واصل بعبور قوات الفرقة 19 مشاة على كبارى ومعدات الفرقة السابعة المشاة التي على يسارها وبإتمام عملية تركيب كبارى العبور والتي عبرت عليها دبابات ومدرعات الفرقة السابعة المشاة والفرقة 19 مشاة تمرکز البطل أحمد بدوي بفرقته شرق القناة بعد تطهير مواقع العدو وتمكنت الفرقة من صد هجمات العدو الإسرائيلي المضادة وإنشاء رأس كوبرى بعمق حوالي 8 كيلو مترات شرقي القناة خلال يومي 6 و7 أكتوبر عام 1973 وفي يوم 8 أكتوبر عام 1973 صدرت أوامر قائد الجيش الثالث الميداني اللواء

عبد المنعم واصل لكل من قائد الفرقة السابعة مشاة العميد آنذاك أحمد بدوي وقائد الفرقة 19 مشاة العميد آنذاك يوسف عفيفي بتطوير هجومهما شرقاً للوصول للحد النهائي لمهمتهما طبقاً للخطة الموضوعة للحرب.

كان هدف عملية تطوير هجوم الفرقة السابعة المشاة التي يقودها البطل أحمد بدوي هو تأمين تقاطع طريق الشط مضيق الجدي وهي المنطقة التي إتخذ منها العدو الإسرائيلي قاعدة لإنطلاق هجماته المضادة على الجانب الأيسر للفرقة نظراً لطبيعتها الحاكمة في المنطقة وأصدر العميد أحمد بدوي أوامره للعميد أحمد حلمي بدوي قائد اللواء 25 المدرع المستقل الملحق علي الفرقة بدفع سرية دبابات لإحتلال منطقة التقاطع المشار إليها والعمل كحرس جنب للفرقة وفي الساعة الرابعة مساء يوم 8 أكتوبر عام 1973 أصدر البطل العميد أحمد بدوي أمره إلى ألوية الفرقة للبدء في التقدم لتطوير الهجوم شرقاً إلا أن العدو شن هجمات مضادة قوية على الجانب الأيسر للفرقة مما عطل عملية الهجوم حتي الساعة السابعة والنصف مساءً ولذا أمر العميد أحمد بدوي بدفع دورية إستطلاع خلف خطوط العدو للإبلاغ عن أوضاع ونشاط العدو الذي تواجهه الفرقة كما أصدر تعليماته بدفع سرية دبابات وسرية مشاة ميكانيكية لدعم الكتيبة 603 التابعة للواء 130 مشاة الأسطول والتي يقودها المقدم البطل إبراهيم عبد التواب وكان الهدف من ذلك هو دعم سرية الدبابات التي تم دفعها للعمل كحرس جنب للفرقة عند تقاطع طريق الشط ممر الجدي على أن يتم إحتلال منطقة التقاطع هذه قبل آخر ضوء من يوم 8 أكتوبر عام 1973 وفي تمام الساعة السابعة والنصف كما ذكرنا سابقاً بدأت تشكيلات الفرقة في التحرك في إتجاه الشرق فإندفع المشاة مترجلين ومن خلفهم وعلى مسافة 200 متر تقدمت الدبابات وناقلات الجنود المدرعة وتمكن اللواء الأيمن للفرقة من الوصول إلى الموقع المطلوب إحتلاله بعد منتصف الليل بينما تعرض الجانب الأيمن للواء المشاة الميكانيكي الذي كان في مقدمة وسط الفرقة عدة مرات لهجمات مضادة قوية من دبابات العدو مما عطل تقدمه كما تعطل أيضاً اللواء الأيسر للفرقة لنفس السبب وهنا أمر العميد أحمد بدوي قائد اللواء 25 المدرع المستقل الملحق علي الفرقة السابعة المشاة بدفع كتيبة دبابات للإلتفاف حول الجانب الأيسر لقوات العدو الإسرائيلي وتدميرها إلا أن هذه الكتيبة قد تعثرت في أداء مهمتها نظراً لرداءة الرؤية

وطبيعة الأرض ولكنها نجحت في إجبار قوات العدو للإرتداد شرقاً في تمام الساعة السادسة والنصف صباح يوم 9 أكتوبر عام 1973.

في الساعة الواحدة والربع ظهر يوم 9 أكتوبر عام 1973 تمكنت الكتيبة 603 مشاة الأسطول المدعومة بسرية دبابات وفصيلة مشاة ميكانيكية من الإستيلاء على نقطة خط بارليف الحصينة المعروفة بإسم حصن بوتزر بموقع كبريت شرق وفي الساعة التاسعة مساء يوم 9 أكتوبر عام 1973 وبعد مجهود جبار بذله قائد الفرقة السابعة المشاة العميد بدوي ورجاله الأبطال تمكنت ألوية الفرقة من الوصول إلى أوضاعها النهائية التي تحركت منذ صباح اليوم السابق من أجل الوصول إليها وقام أفرادها برص الألغام أمام حدها الأمامي وعمل التجهيزات الهندسية اللازمة وقام العميد بدوي بناءً على تعليمات اللواء واصل قائد الجيش الثالث الميداني بدفع كتيبة مشاة مدعمة بسرية دبابات لتأمين الجانب الأيسر للجيش وتأمين القوات التي إستولت على موقع كبريت شرق وبتحقيق هذه المهمة والمهمة التي كلفت بها الفرقة 19 مشاة بدأت الأرتال الإدارية في عبور قناة السويس من الغرب إلى الشرق تحمل التعيينات والمياه والذخيرة والأسلحة المضادة للدبابات والمدفعية التي تم إستهلاك كميات كبيرة منها خلال 4 أيام منذ قيام الحرب وتدفقت حوالي 700 سيارة لورى في قطاع الجيش الثالث الميداني وهي محملة بأكداس من المؤن والتشوينات وقبل أول ضوء صباح يوم 10 أكتوبر عام 1973 عادت اللوريات إلى غرب القناة بعد أن تم تحميلها بالجرحى المصريين وكذا جرحى وأسرى العدو الإسرائيلي كما تم إنتقال مراكز القيادات الرئيسية لفرق المشاة وألويتها إلى مواقعها المستجدة شرق القناة بالإضافة إلى عبور باقى مجموعة مدفعية الألوية والفرق أيضاً من غرب القناة لتتخذ مواقعها شرق القناة.

في يوم 12 أكتوبر عام 1973م قررت القيادة العامة للقوات المسلحة تطوير الهجوم شرقاً بداية من صباح اليوم التالي 13 أكتوبر عام 1973 وإعترض على ذلك رئيس الأركان الفريق سعد الشاذلي واللواءان سعد مأمون وعبد المنعم واصل قائدا الجيشين الثاني والثالث الميدانيين واللذان تم إستدعاؤهما للقيادة العامة لمناقشتها في هذا القرار وإنتهى الأمر بضرورة تنفيذه وكل ما تم هو تأجيله لمدة 24 ساعة ومن العجيب أن اللواء 11 المشاة الميكانيكي الذى كان سيتم دفعه من رأس كوبرى الفرقة السابعة المشاة لتنفيذ مهمة تطوير الهجوم شرقاً قد تحرك لتنفيذ المهمة الموكلة

إليه قبل موعدها بأربع وعشرين ساعة حيث تحرك هذا اللواء مع أول ضوء صباح يوم 13 أكتوبر عام 1973 بدلاً من صباح يوم 14 أكتوبر عام 1973 وذلك يعود إلى أنه عندما تقرر في البداية القيام بعملية تطوير الهجوم شرقاً نحو المضائق صباح يوم 13 أكتوبر عام 1973 وقبل تأجيل تنفيذ القرار إلى اليوم التالي كان قد تم إبلاغ قادة الفرق والألوية التي ستشارك في عملية تطوير الهجوم بالموعد الأول لزوم عمل التجهيزات والإستعدادات اللازمة لتنفيذ الهجوم، نظراً لضيق الوقت ولما تم إستدعاء قائدى الجيشين الثاني والثالث الميدانيين إلى القيادة العامة بالقاهرة، وتم تأجيل تنفيذ القرار إلى صباح يوم 14 أكتوبر عام 1973، وتم إبلاغ رئيسي فرعي العمليات بكل من الجيشين الثاني والثالث الميدانيين بالموعد الجديد والذين قاما بإبلاغ قادة الفرق والألوية التي ستشارك في تطوير الهجوم بالموعد الجديد، إلا أنه قد حدث خطأ أو سهو فلم يتم إبلاغ العميد آنذاك أحمد بدوي قائد الفرقة السابعة المشاة التي سيتم دفع اللواء 11 المشاة الميكانيكي من خلال رأس الكوبري الخاص بهذه الفرقة وبالتالي بدأ في تنفيذ مهمته علي أساس الموعد الأول وعمومًا فقد فشل هذا اللواء والذي تم دفعه نحو ممر الجدي في تنفيذ مهمته نظراً لتعرضه للقصف الجوي والمدفعي المكثف وخسرت كتيبة الدبابات التي يضمها هذا اللواء عدداً كبيراً من دباباتها وإستشهد عدد كبير من ضباطه وجنوده ولم يكن هناك مفر من التراجع والإسراع بالعودة إلى رأس كوبري الفرقة السابعة المشاة وفي الحقيقة فقد كان هذا الفشل متوقعاً وتنبأ به رئيس الأركان وقائد الجيش الثالث الميداني نظراً لخروجه من مظلة الدفاع الجوي المصري ومن ثم فسوف يتعرض لهجمات جوية معادية مكثفة وقصف مدفعي أيضاً إلى جانب أنه سيواجه قوات مدرعة متفوقة عليه عدة وعتاداً.

بعد حدوث الثغرة وبدء تسلل القوات الإسرائيلية إلى غرب القناة بداية من ليلة 15/16 أكتوبر عام 1973 وفشل المحاولات التي جرت لتصفيتها يومي 17 و18 أكتوبر عام 1973 وعبور فرقتين مدرعتين إسرائيليتين إلى غرب القناة وفي خلال ليلة 20/21 أكتوبر عام 1973 وأيضاً خلال الليلة التالية لها أي ليلة 21/22 أكتوبر عام 1973 دفع العدو بفرقة مدرعة جديدة غرب القناة وبذلك أصبح للعدو عدد 3 فرق غربي القناة فرقة إيريل شارون شمالاً في مواجهة الإسماعيلية وفرقتا الجنرال كلمان ماجن والجنرال إبراهيم أذان تضغطان على الفرقة الرابعة المدرعة في إتجاه الجنوب والتي

كانت تقاتل ببسالة في ظروف غاية في الصعوبة، حيث كان الطيران الإسرائيلي يسيطر على سماء المنطقة علاوة على تفوق العدو في المدرعات بنسبة الضعف، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع العدو إكتساب أراض جديدة يومي 21 و22 أكتوبر عام 1973، وفي هذا اليوم الأخير صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار وعلى أن يبقى كل طرف على أوضاعه ولكن لكي يفاوض الإسرائيليون من موقف قوة ولكي يملوا شروطهم على مصر تم إستئناف القتال صباح يوم 23 أكتوبر عام 1973 بهدف إتمام حصار الجيش الثالث الميداني وإحتلال مدينة السويس أو محاصرتها على الأقل وتحجبت إسرائيل بأن الجيش الثالث قد إنتهك وقف إطلاق النار، ولم تكن قد وصلت قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة لمراقبة إلتزام الطرفين بقرار وقف إطلاق النار، وتم تثبيت الفرقة الرابعة المدرعة بأحد الألوية المدرعة الإسرائيلية وإندفعت ثلاثة ألوية مدرعة أخرى جنوبًا لتحقيق الهدف المشار إليه وهو حصار الجيش الثالث الميداني وتمكنوا من الوصول إلى ميناء الأدبية الذي يقع جنوب مدينة السويس وبحلول يوم 24 أكتوبر عام 1973 كانت القوات الإسرائيلية قد تمكنت من إتمام حصار الجيش الثالث ومدينة السويس كما قامت بشن غارات جوية مكثفة على جميع معابر وكباري ومعهديات الجيش الثالث الميداني ودمرتها تمامًا مما قضى على أي فرصة لإنسحاب قوات هذا الجيش أو سحب أي قوات منه للعمل غرب القناة.

في هذا اليوم أيضًا وخلال الأيام التالية وحتى يوم 27 أكتوبر عام 1973 حاولت القوات الإسرائيلية إحتلال مدينة السويس إلا أن المقاومة العنيفة التي واجهت هذه القوات من جانب قوات الدفاع الشعبي في مدينة السويس وبعض الجنود الذين تواجدوا في السويس في ذلك الوقت مع بعض أطقم إقتناص الدبابات التابعة للفرقة 19 مشاة التابعة للجيش الثالث والتي قامت بملاحمة بطولية، فلم تستطع القوات المدرعة الإسرائيلية دخول المدينة والتي كانت تحلم بالوصول إلى مبني محافظة السويس ورفع العلم الإسرائيلي فوقه، وبحلول يوم 28 أكتوبر عام 1973 كانت قد وصلت قوات الطوارئ الدولية وتم تفعيل قرار وقف إطلاق النار، ولكن إسرائيل رفضت العودة إلى خطوط يوم 22 أكتوبر عام 1973 بحجة أن هذه الخطوط غير معلومة بدقة وبوصول قوات الطوارئ الدولية إلى جبهة القتال وتفعيل قرار وقف إطلاق النار بدأت الأمور تأخذ إتجاها آخر مع تدخل الولايات المتحدة الأمريكية

وإيفاد وزير خارجيتها الدكتور هنرى كيسنجر إلى المنطقة وبدء مفاوضات الكيلو 101 على طريق القاهرة السويس الصحراوي بين الجانب المصري والذي ترأسه اللواء محمد عبد الغني الجمسي رئيس هيئة العمليات وبين الجانب الإسرائيلي الذي ترأسه الجنرال أهارون ياريف وذلك تحت إشراف الجنرال أنزيو سيلاسفو قائد قوات الطوارئ الدولية والتي أسفرت في النهاية عن إتفاقية سميت بإتفاقية النقاط الست والتي بموجبها تم السماح بمرور الإمدادات الطبية والتعيينات والمياه إلى قوات الجيش الثالث المحاصرة شرق القناة وإلى مدينة السويس كما تم فك الحصار البحري الذي فرضته القوات البحرية المصرية على باب المندب وتم السماح بمرور السفن المتجهة إلى ميناء إيلات الإسرائيلي كما تم البدء في تبادل الأسرى بين الجانبين وكنوع من الضغط على مصر وإجبارها على تقديم تنازلات من أجل فك الحصار عن الجيش الثالث الميداني كان الإسرائيليون يتعمدون تعطيل كل شيء ويتعنتون في إجراءات وصول الإمدادات الغير عسكرية إلى القوات المحاصرة ويقومون بتفتيش السيارات التي تحملها تفتيشاً دقيقاً كما رفضوا السماح للسائقين المصريين بتعدي علامة الكيلو متر 101 وأصرّوا على أن يتولى قيادتها بعد ذلك إما سائقون إسرائيليون أو سائقون يتبعون قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة.

خلال فترة الحصار ثم بعد أن تولى أحمد بدوي قيادة الجيش الثالث الميداني بداية من يوم 13 ديسمبر عام 1973، ولم يكن قد تم فك الحصار عن مدينة السويس وعن قوات الجيش الثالث الميداني بعد ضرب البطل أحمد بدوي ورجاله أروع المثل في الصمود والتحدي والأهم من ذلك كله الحفاظ على الروح المعنوية للقوات الواقعة تحت الحصار وقد كان حريضاً على أن يأكل الجنود قبل الضباط وأن ينام القادة بعد الضباط والجنود وكان حريضاً أيضاً على ألا يشمل موقع قيادته أي علامة تشير إلى أي درجة من درجات الترفيه فكان يلتحف ببطانية واحدة بينما كان لكل جندي بطانيتان أو ثلاث كما كان حريضاً على المرور اليومي على كل القطاعات ومخاطبة الجنود والتحدث إليهم وتسهيل عملية إتصالهم بأسرهم في القاهرة وبقية المحافظات ولا ننسى موقع كبريت الذي ظل تحت الحصار لمدة 114 يوماً بلا طعام ولا مياه ولا أدوية أو ضمادات لمداواة الجرحى وحرص البطل أحمد بدوي على الإتصال بقائد المقدم البطل إبراهيم عبد التواب، كما حرص على توصيل أي تعيينات لهذا الموقع المحاصر من خلال

عمليات بطولية كانت تتم أثناء الليل تحت إشرافه المباشر، علاوة على مساهمة بعض قواته في الدفاع عن مدينة السويس التي فشل العدو الإسرائيلي في دخولها وإحتلالها. في خلال شهر نوفمبر والنصف الأول من شهر ديسمبر عام 1973 وصلت إلى مصر إمدادات عسكرية من بعض الدول العربية والدول الصديقة كان أهمها عدد من الدبابات، عوض إلى حد ما العدد الكبير مما تم تدميره خلال المعارك التي تمت بصفة خاصة أيام 14 و17 و18 أكتوبر عام 1973، وتم إعادة حشد الفرقتين المدرعتين 4 و21 وفرق المشاة الميكانيكية 3 و6 و21 إلى جانب وحدات من الصاعقة والمظلات ووضعت هذه القوات تحت قيادة اللواء سعد مأمون الذي كان قد تعافى وغادر المستشفى بعد تعرضه لأزمة قلبية يوم 14 أكتوبر عام 1973 وسميت هذه القوات قوات تصفية الثغرة وقد وقع الإختيار على اللواء سعد مأمون لكونه كان متصلًا بالحرب منذ فترة الإعداد لها وتوليه قيادة الجيش الثاني الميداني أكبر تشكيل قتالي في الجيش المصري والأداء المتميز الذي أداه هذا الجيش تحت قيادته في الأيام الأولى لحرب أكتوبر عام 1973 وحتى إصابته بالأزمة القلبية وتم وضع خطة سميت بالخطة شامل لتصفية الثغرة وأصبحت جاهزة للتنفيذ منذ يوم 24 ديسمبر عام 1973 بعد أن راجعها اللواء سعد مأمون وأجرى عليها بعض التعديلات بعد أن زار الجبهة وشاهد أوضاع القوات المصرية والإسرائيلية على الطبيعة وتدربت عليها الوحدات التي ستقوم بتنفيذها ومن ثم تم إعتمادها من رئيس الأركان والقائد العام والقائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية.

كانت في تلك الآونة قد بدأت حرب إستنزاف ضد الجيب الإسرائيلي في الثغرة غرب القناة خلال فترة الحشد ووضع خطة تصفية الثغرة على الرغم من سريان قرار وقف إطلاق النار بهدف عدم السماح للقوات الإسرائيلية بأي فترة هدوء أو راحة وحرمانها من تثبيت دفاعاتها أو تحصينها هندسيًا ومن الناحية العسكرية كان الجيب الإسرائيلي المتواجد غرب القناة قد أصبح يمثل مأزقًا عسكريًا ووضعًا خطيرًا للقوات المتواجدة فيه حيث أصبح هذا الجيب منفصلًا عن قواعده في سيناء ولا يربطه بها سوى ممر ضيق عرضه حوالي 10 كيلو مترات مهدد بأن يتم قطعه بواسطة القوات المصرية التي أصبحت تحيط به من كل جانب، كما كانت القيادة الإسرائيلية مضطرة لنقل جميع الإحتياجات الإدارية اللازمة لقواتها غرب القناة لمسافة تصل إلى حوالي

300 كيلو متر مما قد يعرضها لخطر مهاجمتها برًا وجوًا كما أنه نتيجة إمتداد وقت الحرب من يوم 6 أكتوبر عام 1973 وحتى أواخر شهر ديسمبر عام 1973، اضطرت إسرائيل إلى الإحتفاظ بتعبئة الإحتياطي لمدة طويلة وهو ما يخالف سياستها المعهودة في تعبئة الإحتياطي لمدة قصيرة حيث بذلك أصبح إقتصادها القومي مهددًا بالشلل والإنهيار حيث أن جنود جيش الدفاع الإسرائيلي هم أنفسهم المهندسون والأطباء والمحاسبون والعمال الذين تعتمد عليهم كل الأنشطة في الحياة اليومية في إسرائيل. لذا فبعد جولات مكثفة من المفاوضات ورحلات مكوكية لوزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر بين القاهرة وتل أبيب تم في يوم 18 يناير عام 1974 التوقيع على الإتفاقية الأولى لفض الإشتباك بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية والتي كان أهم بنودها أن تقوم إسرائيل بسحب قواتها من غرب وشرق القناة إلى مسافة حوالي 30 كيلو متر شرق القناة بينما تقوم مصر بسحب قواتها من شرق القناة مع إحتفاظها بعدد 7000 جندي وضابط بالإضافة إلى عدد 30 دبابة على ألا يتجاوز وجودها شرق القناة مسافة 10 كيلو مترات شرقها.

في الوقت نفسه تتواجد قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة في المنطقة الفاصلة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية وعرضها حوالي 20 كيلو متر مع النص على أن هذه الإتفاقية لا تعد إتفاقية سلام بين الطرفين بل هي مجرد خطوة للوصول إلى معاهدة سلام دائمة بين الطرفين يتم التفاوض بين الطرفين بشأنها داخل إطار مؤتمر جنيف للسلام الذي نادى به الأمم المتحدة في ذلك الوقت.

كم كانت حياة المشير أحمد بدوي مليئة بالمعارك والبطولات كان موته لغزا محيرا ونهاية لم تغلق بعد رغم مرور سنوات طويلة + حجم الخط - 47 سنة مرت على حرب 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1973، أو حرب "العاشر من رمضان" التي سجلت فيها العسكرية المصرية أروع انتصاراتها ضد الاحتلال الإسرائيلي، وتظل سيرة قادة الحرب والشخصيات التي سجلت بطولات خالدة لا ينساها التاريخ حاضرة مع كل ذكرى.

لا ينسى المصريون ذكرى الانتصار، ووقوف القائد العسكري أحمد بدوي أمام الرئيس أنور السادات قائلاً: "حافظت على الجنود والضباط وصمدنا ولم نستطع أن ينال منا العدو وكان في جميع اشتباكات ومحاولاته هو الخاسر وكان يخسر أكثر مما خسرنا ونتيجة لهذا لم يجرؤ العدو على أن يقوم باقتحام مواقعنا بعد أن كبدها خسائر جسيمة". وكما لم ينس المصريون أيضًا رد الرئيس السادات عليه قائلاً: "الجيش

الثالث الذي صمد وضرب أروع أمثلة البطولة والفداء والصمود، ولقائده أحمد بدوي تقديري وتقديركم جميعاً تعبيراً عن تقدير الوطن كله"، فما هو الدور الذي لعبه أحمد بدوي في الحرب؟ ولماذا مثلت نهايته لغزاً محيراً إلى يومنا هذا؟.

بطل الثغرة

تجلت بطولة القائد العسكري المصري أحمد بدوي، خلال خوضه غمار حرب 6 أكتوبر/ تشرين الأول 1973 الخالدة، والتي حققت فيها العسكرية المصرية أول انتصار لها على دولة الاحتلال الإسرائيلي. تمثلت اللحظة الأصعب في تاريخ بدوي، فيما يعرف خلال الحرب بـ"ثغرة الدفرسوار"، إذ كان ضمن تشكيلات الجيش الثالث الميداني، وقائد اللواء 25 مدرعاً، الذي يعد من أقوى ألوية الدبابات المصرية بما له من دبابات تي 62 ذات مدفع 115 ملم القوي والدقيق جداً في ذلك الوقت.

بدأت الثغرة يوم 17 أكتوبر/ تشرين الأول 1973، عندما قام الجيش الإسرائيلي بعمل معبر على قناة السويس بمنطقة الدفرسوار، وعبرت منها 3 فرق مدرعة بقيادة كل من (أريئيل شارون - أبراهام أذان - كلمان ماجن)، للجانب الغربي من القناة. بعدها ازداد تدفق قوات العدو وتطور الموقف سريعاً، إلى أن تم تطويق الجيش الثالث المصري بالكامل في السويس، والذي كان أحمد بدوي ضمن قادته، ووصلت القوات الإسرائيلية إلى طريق (السويس - القاهرة)، ولكنها توقفت لصعوبة الوضع العسكري بالنسبة لها غرب القناة.

لقد فشل الجنرال أريئيل شارون في الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية وفشل الجيش الإسرائيلي في احتلال مدينة السويس، وضع القوات الإسرائيلية غرب القناة في مأزق صعب، وجعلها محاصرة بين الموانع الطبيعية والاستنزاف والقلق من الهجوم المصري. هنا برزت عبقرية أحمد بدوي أثناء الثغرة والحصار عندما اندفع بقواته إلى عمق سيناء، لخلخلة جيش العدو، واكتسب أرضاً جديدة، من بينها مواقع قيادة إسرائيلية في منطقة "عيون موسى" جنوب سيناء.

في بداية حرب أكتوبر، استطاع بدوي وفرقته ببسالة عبور قناة السويس إلى أرض سيناء، وذلك من موقع جنوب السويس ضمن فرق الجيش الثالث الميداني متغلباً على الصعوبات الطبيعية التي واجهته خصوصاً في اللحظات الأولى للعبور. وتمركز بدوي

بفرقته في موقعه شرق القناة بعد تطهير مواقع العدو، حيث تمكن من صد هجوم إسرائيلي، استهدف مدينة السويس وحطمه.

نجمة الشرف

ظهرت الشخصية العسكرية القيادية الحاسمة للقائد أحمد بدوي أيام حصار الثغرة، عندما استطاع الصمود مع رجاله شرق القناة، في مواجهات معارك السويس، وقام بتدبير وسائل الإعاشة لهم من الخزين القليل المتبقي، رغم المحاصرة القاسية للعدو، وانقطاع الإمدادات ووسائل الإعاشة عن قواته. ذلك الصمود المبهر في القتال، دفع الرئيس السادات، بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة، لإصدار قرار فوري يوم 13 ديسمبر/ كانون الأول 1973، بترقية أحمد بدوي إلى رتبة لواء، وتعيينه قائداً للجيش الثالث الميداني. وبعد عودة بدوي من ميدان القتال سالماً بقواته، قام السادات في 20 فبراير/ شباط 1974، بتكريمه في مجلس الشعب (البرلمان) ومنحه نجمة الشرف العسكرية، بعد أن أجرى معه تحقيقاً على مرأى ومسمع من الشعب، تمت إذاعته على شاشات التلفزيون الرسمي، في مشهد من أشهر مشاهد ما بعد الحرب. حينها سأله السادات بشكل مباشر، قائلاً: "تبلغت إليك الأوامر بالصمود وادعى العدو أن السويس احتلت.. هل احتلت السويس؟ ليرد بدوي "لم يتمكن العدو من احتلال السويس ودمرنا جميع دباباته التي حاولت دخول السويس، وتمسكنا بالسويس وظلت صامدة ولم ينل منها العدو أبداً". ثم سأله السادات مرة أخرى: كانت قوات بدر تحت قيادتك حوالي 50 ألفاً بأسلحتها ومعداتها، هل حافظت على المعدات والأسلحة؟ ليقول بدوي بحسم: "حافظت على جميع معداتي وأسلحتي وقاتلت العدو ورديت على جميع اشتباكاتة بعنف وطورت الهجوم وعدلت مواقعي وكسبت أراضي جديدة". السادات حينها قال: "الجيش الثالث الي (الذي) قيل عنه أنه محاصر الي قائده أحمد بدوي الذي رقيته وهو في الحصار قائدا للجيش الثالث الذي حمى السويس.. الجيش الثالث الذي صمد وضرب أروع أمثلة البطولة والفداء الصمود ولقائده أحمد بدوي تقديري وتقديركم جميعاً تعبيراً عن تقدير الوطن كله". وبعد تلك الإشادات حصل اللواء بدوي على تحية مدوية من نواب البرلمان، ونال إعجاب كافة المصريين، الذين عرفوا عن قرب شخصية ذلك القائد العسكري الذي أصبح علامة من علامات حرب أكتوبر.

رحيل غامض

في 2 مارس/ آذار 1981، استيقظ المصريون على خبر مفجع، مع إذاعة خبر مصرع وزير الدفاع الفريق أحمد بدوي، مع 13 من كبار قادة القوات المسلحة، عندما سقطت بهم طائرة عمودية، في منطقة سيوة، بالمنطقة العسكرية الغربية، بمطروح. الحادثة تم تناولها على نطاق واسع في كثير من التحقيقات والمذكرات العسكرية، التي أشارت إلى أن الوفاة ليست طبيعية وأن الحادث ربما يكون مدبرًا. بعد الحادثة مباشرة أصدر الرئيس السادات قرارًا بترقية الفريق أحمد بدوي إلى رتبة المشير وترقية رفاقه الذين قضوا معه إلى الرتب الأعلى. وانطلقت من مقر وزارة الدفاع، جنازة عسكرية يتقدمها السادات وكبار رجال الدولة، كما أقيمت صلاة الغائب على أرواحهم في المحافظات وسار أبناؤها في جنازات رمزية.

كان المثير للتساؤل حول الواقعة، أن يكون من نجا من الحادث 5 أفراد فقط منهم 4 من طاقم الطائرة وسكرتير وزير الدفاع، وهو ما خلف الكثير من العلامات حول نجاة طاقم الطائرة، خاصة وأن طراز الطائرة (س 8 هيل) كان من النوع الذي يجب أن يفتح بابه من الخارج ولا توجد فتحة إلى قمرة القيادة أي أن من في الداخل محبوس وهو ما رجح أن تكون هناك أيدي خفية أو شبهة تواطؤ. وكما كانت حياة المشير أحمد بدوي مليئة بالمعارك والبطولات دفاعًا عن أرض مصر، وضد العدوان الخارجي، كان موته لغزًا محيرًا، ونهاية لم تغلق بعد رغم مرور سنوات طويلة.

هو من كان يقرأ في كل المجالات في العسكرية بعلومها المتشعبة والمتشابهة وفي العلوم الاقتصادية والسياسية والإدارية وكذلك في العلوم القانونية بالإضافة لحبه للسياسة وكان يقرأ أيضًا في الأدب والفلسفة والشعر والملاحظ أنه كان يقرأ على طريقة المتخصصين وليس الهواة حتى وصل إلى مستوى عظيم من التحصيل في كثير من العلوم يفوق مستوى الخبراء والمتخصصين فعلاً في تلك العلوم كما كان يجيد اللغة الإنجليزية والروسية.

كمال حسن علي..

في "مشاوير العمر: أسرار وخفايا"⁽¹⁾

هو الضابط، المقاتل، مدير سلاح المدرعات، مساعد وزير الحربية، رئيس المخابرات العامة، وزير الدفاع، وزير الخارجية، نائب رئيس الوزراء، رئيس الوزراء... ثم رئيس البنك المصري الخليجي. حياة حافلة عاشها الفريق أول كمال حسن علي منذ تخرجه في الكلية الحربية عام 1942 كمحارب ومفاوض سياسي واقتصادي، وبقدر المهام الصعبة والمسئوليات الجسيمة كان تأثيرها على الانسان كمال الدين حسن علي مصاب العمليات في حروب ثلاث وكانت قسوة الأيام والعلاج المستمر حتى آخر العمر.

عاش كمال حسن علي في فترة العشرينات وحتى نهاية القرن الماضي كانسان مصري عايش هموم وطنه منذ ميلاده في القاهرة في 18 ستمبر 1921 في أسرة متوسطة تنتمي لعائلة من الصعيد في أسيوط واستقرت في القاهرة وأنجبت لمصر مجموعة ناجحة من الأبناء.. المهندس والطبيب والتربوي والضابط، فقد قدمت لمصر الضابط محمد طلعت وشقيقه الأصغر منه كمال الدين الذي أحب مثله العمل كضابط في الجيش المصري في سلاح الفرسان (المدرعات الآن). أنهى الشاب كمال حسن علي دراسته الثانوية والتحق بالكلية الحربية مثل شقيقه الأكبر منه طلعت والذي تخرج قبله وعمل ضابطاً بسلاح المدرعات (الفرسان) وتخرج كمال حسن علي ضابطاً بسلاح المشاة برتبة ملازم وكان شقيقه طلعت برتبة نقيب بسلاح الفرسان ويتنقل الضابط كمال حسن علي إلى سلاح الفرسان في عام 1943 ليستكمل حياته ضابطاً للدبابات أو المدرعات. وتشاء الأقدار أن يتولى اللواء محمد طلعت حسن علي منصب مدير المدرعات وبعده بسنوات قليلة يتولى شقيقه الأصغر كمال الدين حسن علي نفس المنصب (مدير المدرعات) وأن تغيرت الظروف. وكان سلاح الفرسان قد شهد الاقبال على العمل بالسلاح فقد التحق به ثلاثة أشقاء، استشهد الشقيق الأوسط وكان برتبة مقدم في حرب أكتوبر 1973 والشقيق الأكبر منه برتبة العميد وكان يعمل بإدارة المدرعات مع اللواء كمال حسن علي مدير المدرعات في حرب أكتوبر والشقيق الأصغر برتبة النقيب.

(1) الفريق أول كمال حسن علي.. في "مشاوير العمر: أسرار وخفايا"، مصادر عالمية، 5 تشرين الثاني/ نوفمبر 2020.
<https://masdrapp.com/news>

كذلك: رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoun.com/index.php>

بداية الرحلة عمل

الملازم كمال حسن قائدًا لفصيلة مشاة سلاح المشاة وكانت الحرب العالمية الثانية تشهد اجتياح قوات المحور لأوروبا وتدخلت بريطانيا وفرنسا ضد قوات المحور وأسهم الجيش المصري ببعض قواته لحماية مصر وكانت مهمة الملازم كمال حسن علي مع فصيلته مراقبة العمليات بقناة السويس بمنطقة الاسماعيلية حيث استهدفت الغارات الألمانية قناة السويس وكانت مصر تحت الاحتلال البريطاني. وانتقل الضابط كمال حسن علي إلى سلاح الفرسان وشارك بوحدته الجديدة في تأمين المنشآت المهمة بالقاهرة كما شارك في عزل القاهرة لمنع انتشار وباء الكوليرا في البلاد. وبدخول مصر حرب فلسطين في 15 مايو 1948 بعد اعلان قيام دولة اسرائيل شارك الضابط كمال حسن علي بفصيلته المدرعة في الحرب وسافر ضمن القوات المصرية وتحرك بقوته المدرعة إلى رفح المصرية ثم وصل إلى غزة وتمركز بفصيلته شرق غزة وخاض بعض المعارك وأصيب وكانت اصابته الأولى ثم نقل للعلاج في القاهرة. وهو يحمل أول وسام -علامة جرحى الحرب. وبعد شفائه سافر الضابط كمال حسن علي إلى إنجلترا في بعثة لدراسة الاشارة واللاسلكي استمرت نحو خمسة شهور وعاد في عام 1950 إلى سلاح الفرسان. وفي 25 يناير 1952 حدثت معركة الاسماعيلية وقاومها رجال الشرطة بأسلحتهم البدائية وقتل معظم القوة التي رفضت الاستسلام وفي اليوم التالي 26 يناير احتُرقت القاهرة وشارك الضابط كمال حسن علي بوحدته المدرعة في الحفاظ على الأمن في القاهرة وقامت ثورة 23 يوليو 1952.

عسكري محترف

عاش الضابط كمال حسن علي حياته كضابط محترف بسلاح المشاة ثم سلاح الفرسان وكان شقيقه طلعت حسن علي ضابطا محترفا أيضا بنفس السلاح. وقامت حركة يوليو 1952 ولم يكن كمال حسن علي أو شقيقه طلعت من ضباط يوليو أو من الضباط الأحرار. وكانت أول أزمة تواجه الحركة في مارس 1954 هي أزمة سلاح الفرسان نتيجة للصراع بين اللواء محمد نجيب القائد المعروف للثورة وبين البكباشي جمال عبد الناصر القائد الحقيقي للثورة. وحتى ينأى الضابط كمال حسن علي بنفسه عن الصراعات تقدم للدراسة بكلية القادة والأركان ليواصل دراسة العلوم العسكرية لمدة

عام تابع فيها تشجيع الثورة للمقاومة في القناة ضد القوات البريطانية للانسحاب من مصر والاسراع في مفاوضات الجلاء حتى وقعت بريطانيا اتفاقية الجلاء في 19 أكتوبر 1954 وانسحب آخر جندي بريطاني يوم 18 يونيو 1956 واعتبرته مصر عيداً للجلاء وهو كذلك بحق.

الطريق إلى السويس :

كان الضابط كمال حسن علي بكلية القادة والأركان عام 1955 عندما تعرضت القوات المصرية في غزة للاعتداءات الاسرائيلية على معسكر مصري شرق مدينة غزة ومركز للبوليس المصري في خان يونس واحتلال المنطقة المحايدة في العوجة على الحدود المصرية الاسرائيلية وفشل المباحثات المصرية للحصول على السلاح الأمريكي لدعم الجيش المصري. وكانت مصر تحصل على السلاح البريطاني والفرنسي فعقدت مصر صفقة الأسلحة التشيكية للحصول على السلاح الشرقي واشتعل سباق التسلح.. وكان لصالح اسرائيل.

تابع كمال حسن علي خلال دراسته بكلية القادة والأركان تسلم سلاح المدرعات لأول دبابة شرقية تدخل سلاح المدرعات الدبابة (تي 34-)، وعاصر تأميم قناة السويس في 26 يوليو 1956 والتهديدات الغربية بالحرب ورصدت مصر تحركات عسكرية بريطانية فرنسية وتوقعت قيامها بعمل عسكري ضد مصر. عاد كمال حسن علي إلى سلاح المدرعات وتولى مسئولية أركان حرب العمليات في القيادة العسكرية لمواجهة العدوان المحتمل. وكانت المفاجأة بدء العدوان الاسرائيلي يوم 29 أكتوبر 1956 ووصول القوات الاسرائيلية إلى ممر متلا فدفعت مصر قواتها المسلحة لسيناء لصد القوات الاسرائيلية ومطاردتها للعودة إلى داخل اسرائيل ولكن كانت هناك مفاجأة أخرى.

اتضح المؤتمر الثلاثية لاحتلال سيناء والقناة وقررت مصر سحب قواتها من سيناء وحشدها في الغرب لحماية القناة. ورفضت مصر الانذار بينما قبلته اسرائيل وكان الضابط كمال حسن علي يرى أن قرار الانسحاب كان منطقيًا. وبدأ العدوان البريطاني الفرنسي على منطقة القناة بغارات جوية على المطارات المصرية واسقاط مظلي على مدينة بورسعيد وعدوان بحري تم صده. وقامت قوات الجيش والشرطة والمقاومة بالتصدي للعدوان واضطرت بريطانيا وفرنسا للانسحاب من بورسعيد يوم 23 ديسمبر 1956 واعتبرته مصر عيداً للنصر.

انسحبت اسرائيل من سيناء في مارس 1957 وتم تكليف كمال حسن على عضوية لجنة خسائر مصر من الاحتلال الاسرائيلي لسيناء خسائر القوات المسلحة والخسائر الاقتصادية والبشرية.

بين سوريا واليمن :

عقب فشل العدوان الثلاثي عام 1956 قامت مصر بتطوير قواتها المسلحة وتزويدها بالسلح الروسي، وعاصر كمال حسن علي تزويد سلاح المدرعات بالدبابات الشرقية الحديثة. سافر كمال حسن علي إلى روسيا عام 1959 في بعثة دراسية استمرت نحو عام عمل بعدها في القيادة الشرقية بالاسماعيلية التي تتولى مسؤولية منطقتي القناة وسيناء حتى الحدود الدولية الشرقية وسافر إلى سوريا ليلتقي بالقيادات وليزور معهم الجبهة السورية. وتم تعيين كمال حسن علي رئيسًا لأركان لواء مدرع سوري ثم قائدًا له ضمن القادة المصريين الذين عملوا في الجيش السوري وعاش تجربة الانفصال المريرة بعد الانقلاب السوري على الوحدة ليلة 28 ستمبر 1961 وقبض عليه لمدة يومين عاد بعدها إلى مصر للعمل بادرة المدرعات ثم عمل مدرسة بكلية القادة والأركان.

تابع كمال حسن علي الثورة اليمنية خلال عمله بكلية القادة والأركان في 26 ستمبر 1962 باعلان سقوط الملكية وقيام الجمهورية اليمنية ومعارك الملكيين وأنصارهم ضد الثورة اليمنية. وطلب قادة الثورة اليمنية المساعدة المصرية لمواجهة الملكيين وقام كمال حسن علي بزيارة قصيرة لليمن عام 1963 بعد زيادة القوات المصرية ونجاحها في قتال الملكيين وسيطرتها على معظم اليمن. وانتقل للعمل بهيئة عمليات القوات المسلحة في عام 1963 ثم انتقل للعمل بالقيادة المصرية في اليمن بالعاصمة صنعاء والتي سيطرت على الأراضي اليمنية وطاردت المرتزقة من بقايا الملكيين وأفراد القبائل الذين كانوا يعتدون على القوات المصرية.

خلال عمله باليمن استقل طائرة هليكوبتر اصطدمت بأحد الجبال بالقرب من صنعاء ورغم نجاته فقد أصيب أثناء عودته إلى صنعاء عند انقلاب عربته المدرعة وكانت اصابة الحرب الثانية له بعد اصابته في فلسطين وتقرر عودته للعلاج بالقاهرة.

حرب يونية 1967م:

شارك العميد أركان حرب كمال حسن علي في حرب يونيو 1967 وكان قائدًا لأحد الألوية المدرعة وكان يتابع الأحداث التي مهدت للحرب ورفع درجة الاستعداد منتصف

مايو 1967 والتهديد الاسرائيلي بالحرب عقب اغلاق مضيق تيران وخليج العقبة أمام الملاحة الاسرائيلية وطلب مصر سحب قوات الطوارئ الدولية وقرار تدفق القوات المصرية إلى سيناء لردع اسرائيل عن محاولة ضرب سوريا التي أعلنت عن حشود اسرائيلية على حدودها والذي اتضح عدم صحته وضخم الاتحاد السوفيتي من خطورتها. كانت رؤية العميد كمال حسن علي التي تأكدت له فيما بعد أن الظروف التي مهدت للحرب لم تبدأ في مايو 1967 ولكنها بدأت منذ نوفمبر 1966 ومصر متورطة في حرب اليمن وكانت فرصة لاسرائيل لضرب القوات المصرية واحتلال سيناء. واستهدفت القوات الاسرائيلية في عام 1967 القضاء على الطيران المصري وعلى القوات البرية وأفراد الجيش المصري الذين تركوا أسلحتهم ومعداتهم التي ضربها الطيران الاسرائيلي بينما تفرغت الدبابات لمطاردة الأفراد العزل المنسحبين والذين تركوا أسلحتهم الخفيفة المخصصة للدفاع عن النفس. ويشير العميد كمال حسن علي إلى ما قاله وزير الدفاع الروسي (جريتشكو): (لو أن كل جندي مصري أطلق طلقة واحدة لتغيرت نتيجة المعركة أو لكان الموقف العسكري أفضل).

معركة مضيق الجدي :

يتذكر المقاتل الفريق أول كمال حسن علي أحداث حرب يونيو 1967 والهزيمة التي لحقت بالقوات المصرية والمعارك القليلة جدًا التي خاضتها بعض الوحدات ولم يعلن عنها بسبب الهزيمة وتحدث عنها مع جيهان السادات في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي وهي تزور جرحى حرب 1967 وروى لها معركة مضيق الجدي التي خاضها وتجربته كقائد لواء مدرع وهو ما نقلته لزوجها السيد أنور السادات وهو ما تأكد للرئيس السادات أن القوات المسلحة لم تكن سببًا في الهزيمة ولكنها كانت ضحية لها وأن الوحدات التي أتيح لها أن تحارب واجهت القوات الاسرائيلية. تحرك العميد كمال حسن علي بأحد الألوية المدرعة يوم 14 مايو 1967 ضمن تشكيل الفرقة المدرعة التي يتبعها اللواء ودخل سيناء يوم 24 مايو 1967 وتحرك بالدبابات على الجنزير حتى (تمادا) بوسط سيناء واحتلت مواقع غير مجهزة مع أوامر متضاربة بالتحرك في جهات متعددة وارتجال في عمليات الامداد والتموين للمعدات والأفراد. وبعد الوصول إلى (تمادا) تقرر التحرك إلى جنوب (مظلة حزم) 40 كيلومترًا

من الحدود الاسرائيلية ووصلها فجر 6 يونيو 1967 وبمجرد وصوله تقرر عودته إلى (تمادا) من نفس الطريق ورفضت القيادة اقتراح العميد كمال حسن علي باختيار طريق بديل فتعرض اللواء لضرب الطيران الاسرائيلي وفقد اللواء 40% من دباباته فقرر قائد اللواء اختيار الطريق البديل لحماية دباباته.

بعد وصول اللواء المدرع إلى (تمادا) تقرر التحرك إلى مضيق الجدي مغرب 6 يونيو 1967 وتبين الغاء المهمة دون اخطار وتقرر التحرك إلى كوبري جنوب البحيرات عن طريق مضيق الجدي وتعرض اللواء لضرب الطيران الاسرائيلي وتعطلت 6 دبابات لعدم اعادة التزود بالوقود وتم طلب الوقود وتقرر التحرك إلى شرق مضيق الجدي وايقاف تقدم العدو مع قبول الحصار وتأخر الوقود حتى فجر 8 يونيو 1967.

في الساعة السابعة والنصف صباح 8 يونيو وأثناء تقدم كمال حسن علي لمنطقة مضيق الجديتين تقدم كتيبة دبابات اسرائيلية إلى المضيق فأمر قائد اللواء بالاشتباك معها وتم تدمير 8 دبابات اسرائيلية ولم تصب أى دبابة مصرية وانسحبت بقية الدبابات وأمر قائد اللواء بمطاردتها، ولكن الدبابات المنسحبة أعطت اشارة دخان للطيران الاسرائيلي الذي دمر معظم الدبابات اللواء المتبقية. وتعامل كمال حسن علي مع الطيران الاسرائيلي فوق (تمادا) فأسقطت الكتيبة المضادة للطائرات باللواء ثلاث طائرات اسرائيلية فقام الطيران الاسرائيلي بتدمير معظم كتيبة الدبابات المضادة للطائرات.

يرى العميد أركان حرب كمال حسن علي أن القتال المتلاحم مع القوات الاسرائيلية كان سيحرم الطيران الاسرائيلي من ضرب القوات المصرية لصعوبة التمييز بين المدرعات وحتى لا يضرب المدرعات الاسرائيلية بطريق الخطأ وكان يمكن تقليل الخسائر المصرية. وأصيب كمال حسن علي بصاروخ أطلقه الطيران الاسرائيلي على عربة القيادة التي يستقلها فأصابه الصاروخ وكانت الاصابة الثالثة من اصابات الحرب.

المدرعات في المعركة :

عقب اصابة العميد أركان حرب كمال حسن علي في مضيق الجدي نقل إلى مستشفى الهلال بالسويس عبر القناة ودمر الطيران الاسرائيلي المعبر بعد عبوره وتم نقله إلى مستشفى القوات المسلحة بالمعادي لبدأ رحلة جديدة بعد شفائه للمشاركة في حرب التحرير المنتظرة لتحرير سيناء. وعين اللواء كمال حسن علي نائباً لمدير ادارة

شئون ضباط القوات المسلحة ثم عاد لسلاح المدرعات وعين قائدًا لأحدى الفرق المدرعة والمكونة من الدبابات الشرقية الحديثة التي وصلت بعد الحرب وكانت المهمة حماية الاسماعيلية وشارك بفرقة المدرعة في جميع العمليات بالقطاع الشمالي للجهة. اهتم كمال حسن علي بالقدرات القتالية للوحدات والكفاءة القتالية للقادة والضباط والجنود بعد تجربته في الحرب عام 1967 واقتناعه بقدرة الوحدات القتالية وكفاءة المقاتل المصري ثم اختير للعمل بهيئة عمليات القوات المسلحة في يناير 1971 وشارك في التخطيط للحرب المنتظرة وعين في نفس العام رئيسًا لأركان ادارة المدرعات ثم مديرًا للمدرعات في عام 1972 وهو في نفس المنصب الذي شغله شقيقه الأكبر محمد طلعت حسن علي ولكن مع اختلاف الظروف.

حرص كمال حسن علي على اعداد سلاح المدرعات لخوض المعركة المنتظرة التي أكد الرئيس السادات في اجتماعه مع المجلس الأعلى للقوات المسلحة أنها معركة مصيرية لاسترجاع الأرض وأنا يجب أن نحارب بها في أيدينا من أسلحة من أجل تحرير سيناء. وأثبتت المعارك التي خاضتها التشكيلات المدرعة في حرب أكتوبر 1973 على امتداد الجبهة في الجيشين الثاني والثالث الميدانيين قدرة القوات المدرعة المصرية في مواجهة المدرعات الاسرائيلية وحتى بعد حدوث الثغرة تأكد كمال حسن علي كما قال السادات أنها معركة اسرائيلية خاسرة وأنه يمكن تصفيتهم لأن القوات الاسرائيلية كانت محاصرة وشاركت في حصارها احدى الفرق المدرعة بالجهة. وظل اللواء كمال حسن علي مديرًا للمدرعات حتى تقرر تعيينه مساعدًا لوزير الحربية.

كمال حسن رجل المخابرات :

قدم الرئيس السادات المقاتل اللواء كمال حسن علي مساعد وزير الحربية تقديمًا طيبًا عند اختياره رئيسًا للمخابرات العامة، فروى لأول مرة معركة مضيق الجدي كاملة وبعدها بدأ السيد كمال حسن علي عمله كرئيس للمخابرات العامة بدرجة وزير مرحلة رجل المخابرات الذي صحح جهاز المخابرات العامة عقب ما نسب له من تجاوزات قبل 15 مايو 1971. وأكد كمال حسن أن المخابرات العامة المصرية تعمل مثل أي مخابرات عالمية ولا يرتبط عملها بالحدود الجغرافية للدولة أمنياً وسياسياً ولكن تحدده اهتماماتها وأهدافها الاستراتيجية ودورها الوقائي لحماية الجبهة الداخلية من الأنشطة المعادية الأجنبية ومحاولات التخريب الداخلية المرتبطة

بجهات أجنبية ومقاومة الحرب النفسية ومكافحة التجسس وحماية الأسرار العسكرية والاستراتيجية للدولة خاصة في فترات التوتر أو التهديد بالحرب.

كانت رؤية كمال حسن أن المخابرات العامة تعمل وفقًا للقانون والدستور للمحافظة على سلامة وأمن الدولة وحفظ كيان النظام السياسي بوضع السياسات العامة للأمن وجمع الأخبار وفحصها وتحليلها وعرض المعلومات المتصلة بسلامة الدولة على رئيس الجمهورية ومن يراهم طبقًا لقوانين عمل المخابرات العامة مؤكدًا أن ما نسب للمخابرات العامة مرتبط ببعض الأشخاص الذين أحيلوا إلى المحاكمة أما المخابرات العامة فانها لم تنحرف.

حرص كمال حسن رئيس المخابرات العامة على تحديد دور الجهاز في حالة الحرب وما يتعلق بإسرائيل قبل وأثناء وبعد الحرب وتحديد أهمية الانذار المبكر من الأخطار المحتملة والأنشطة المختلفة للمخابرات العامة داخليًا وخارجيًا فقد توقع نوايا العدو في حرب يونيو 1967 وموعد الهجوم بالتقريب وهذه الحقائق أمام لجنة كتابة تاريخ يوليو 1952 مما يؤكد سلامة تقديرات المخابرات العامة وأن دورها مستمر في الحرب والسلام لحماية أمن وسلامة العباد..

أول وزير الدفاع عقب توقيع اتفاقية السلام :

كان طبيعيًا أن يتغير اسم وزارة الحربية إلى وزارة الدفاع وعين الفريق أول كمال حسن علي أول وزير للدفاع في مصر يوم 3 أكتوبر 1978 وحضر مع الرئيس السادات أول عرض عسكري بعد تعيينه. وكانت أهم معارك السلام معركة المفاوضات مع الجانب الاسرائيلي للانسحاب من سيناء وأصرت مصر على الانسحاب من العريش والطريق الساحلي حتى العريش يوم 25 مايو 1979 في احتفال عالمي.

خاض الفريق أول كمال حسن علي والوفد المرافق له مفاوضات صعبة مع الجانب الاسرائيلي لوضع خطة الانسحاب من سيناء بعد الانسحاب من العريش وتمت هذه المباحثات في (بلرهاوس) بالعاصمة الأمريكية واشنطن أكدت فيها مصر السيادة على كل سيناء دون تفريط في حبة رمل واحدة. وتم تحديد خمس مراحل للانسحاب وشهدت الشهور التالية الفريق أول كمال حسن علي وهو يرفع علم مصر على كل منطقة تنسحب منها اسرائيل بينما تنساب دموع الجنود والمجنندات الاسرائيليات مع نزول العلم الاسرائيلي في كل مرحلة حتى انتهت مراحل الانسحاب من نصف سيناء.

استعادت مصر آبار البترول ساحل خليج السويس وغرب سيناء ومنطقة سانت كاترين حتى تم الانسحاب إلى خط (العريش - رأس محمد) في 25 يناير 1980. وكان آخر انسحاب اسرائيلي في عهد الرئيس الراحل السادات قبل اغتياله وكان المقرر أن يتم الانسحاب الكامل إلى الحدود الدولية في 25 ابريل 1982.

استمرت المهام الصعبة التي اهتم بها الفريق أول كمال حسن علي وأهمها متابعة تطوير القوات المسلحة لتكون قادرة على أداء دورها في حماية الوطن وحماية السلام. كما اهتم الفريق أول كمال حسن علي بتنفيذ سياسة تنويع مصادر السلاح وادخال السلاح الغربي إلى جانب السلاح الشرقي من خلال خبرته كمدير للمدرعات ورئيس للمخابرات العامة وخبرته القتالية في حرب يونيو 1967.

اهتم الفريق أول كمال حسن علي بالاستفادة من الوعاء التجنيدي للشباب لاختيار أفضل العناصر لتجنيدها وتدريبها على المهن التي تفيدهم في حياتهم المدنية بعد انتهاء فترة التجنيد والحفاظ على الاستعداد القتالي للقوات المسلحة.. وهو ما يزال وسيظل الهدف الرئيسي لحماية الوطن وهو ما تنفذه القوات المسلحة حتى الآن.

مثلث طابا :

اثبت الفريق أول كمال حسن علي قدرته على التفاوض مع الأمريكيين والدول الغربية ومع السوفييت فيما يتعلق بمفاوضات التسليح ونجح في وضع خطة ناجحة لتنويع مصادر السلاح. وأثبت نجاحه في مفاوضات الانسحاب الاسرائيلي لذلك كان قرار الرئيس السادات باختياره وزيراً للخارجية في الوزارة التي رأسها الرئيس السادات وكان كمال حسن علي نائباً لرئيس الوزراء ووزيراً للخارجية. وكانت أهم الأحداث التي واجهته أثناء عمله في وزارة الخارجية ما قامت به اسرائيل من ضرب المفاعل النووي العراقي عقب زيارة مناحيم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلي للرئيس السادات في 7 يونيو عام 1981 حيث اتهمت مصر بعلمها وموافقتها على العملية الاسرائيلية بينما كانت مصر تستعد لاقام الانسحاب الاسرائيلي من سيناء وتستعد للعرض العسكري بمناسبة انتصارات أكتوبر يوم 6 أكتوبر 1981، والذي أغتيل خلاله الرئيس السادات.. لتبدأ مرحلة جديدة.

بعد الاستفتاء على رئاسة الجمهورية واصل كمال حسن علي دورة كوزير للخارجية ونائب لرئيس الوزراء وأثارت اسرائيل الشكوك حول التزام مصر بمعاهدة

السلام بعد اغتيال السادات وتولي مبارك رغم تأكيد مصر أن الاتفاقية بين دولتين وليست بين أشخاص وافتعلت اسرائيل مشكلة طابا الحدودية مع مصر. ورأت القيادة السياسية، بحكمة بالغة، تجاوز مشكلة طابا عندما ادعت اسرائيل أنها جزء من حدودها مع مصر بينما هى تعلم أن طابا أرض مصرية وتولي كمال حسن علي وزير الخارجية ابلاغ الجانب الاسرائيلي بضرورة الانسحاب في موعده وتأجيل بحث مشكلة طابا.

طلبت مصر تفعيل بنود معاهدة السلام لتسوية النزاع مع الجانب الاسرائيلي بعد فشل المفاوضات ومحاولة اسرائيل الاحتفاظ بطابا وطلبت اسرائيل اللجوء إلى التوفيق ورفضت مصر لأن طابا مصرية ولجأت إلى التحكيم وهو ما أعلنه كمال حسن علي وكان مفاجأة لاسرائيل كما أثار مخاوف بعض المصريين من انحياز المحكمين لاسرائيل ولكن كمال حسن علي أعلن ثقته في أن التحكيم لصالح مصر.

كان كمال حسن علي قد عين رئيسًا للوزراء بالنيابة في 5 يونيو 1984 وبعدها عين رئيسًا لمجلس الوزراء في 16 يوليو من نفس العام وحتى تقديم استقالته لأسباب صحية في أغسطس 1985 وبعدها شغل أول عمل اقتصادي رئيسًا لمجلس ادارة البنك المصري الخليجي بالقاهرة حتى استقال منه لأسباب صحية أيضًا في 30 يونيو 1991. وعاش المقاتل والمفاوض والسياسي والاقتصادي كمال حسن علي فرحة انتصاره وانتصار مصر بعودة طابا إلى الوطن الأم في 19 مارس 1989. وكان ذلك عقب استقالته من رئاسة مجلس الوزراء وخلال عمله رئيسًا لمجلس ادارة البنك المصري الخليجي والتي بدأها في يناير 1986 ليبقي كمال حسن علي واحدًا من الأبطال في ذاكرة الوطن الذي حارب من أجله وقدم دمه له في غزة بفلسطين وفي صنعاء باليمن وفي مضيق الجدى بسيناء وهى أوسمة يحملها في جسده ويحملها على صدره في علامة جرحى الحرب وعليها رقم (2) أي (جريح حرب) ثلاث مرات.

حياة مثيرة

أهم الأوسمة التي يحملها كمال حسن علي الانسان هى الأوسمة التي يحملها في جسده وهى الجروح التي تثبت أنه عاش (حياة مثيرة) فيها القتال وفيها الحرب وفيها الدماء وفيها أيضًا أوسمة كثيرة حصل عليها خلال حياته المثيرة. وقد سجل كمال حسن علي تجربته في الحرب والسلام في كتابه (محاربون ومفاوضون) روى فيه

قصته مع الحرب كمقاتل أو كمحارب حتى أصبح وزيراً للدفاع أول وزير للدفاع في مصر وروى قصته مع السلام من خلال المواقع المهمة في الوطن. وسجل كمال حسن علي تجربته كانسان في كتابه (مشاوير العمر).. وهو عنوان يعبر عن حياته المثيرة كتبها بأسلوب أقرب إلى السيرة الذاتية لحياته وأسرته الكبيرة والصغيرة. ويمضي البطل حتى يودع الحياة في 27 مارس 1993 في فصل الربيع بينما كان قد جاء الى الحياة في ستمبر 1921 في فصل الخريف وبينهما 72 سنة هي كل حياته المثيرة.

محمد عبدالغني الجمسي:

"ثعلب الصحراء المصري" (1)

بعد انتهاء إحدى جلسات مفاوضات فض الاشتباك الأول (الكيلو 101) التي أعقبت حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، خرج رئيس وفد المفاوضات المصري من خيمته للتفاوض دون أن يسلم على أي من أعضاء وفد المفاوضات الإسرائيلي أو تصدر عنه كلمة واحدة، وكانت هذه عادته طوال زمن المفاوضات، فأسرع وراءه قائد الوفد الإسرائيلي الجنرال "عيزرا وايزمان" الذي أصبح رئيسًا لإسرائيل فيما بعد، وقال له: "سيادة الجنرال، لقد بحثنا عن صورة لك وأنت تضحك فلم نجد، ألا تضحك أبدًا؟!". فنظر إليه المفاوض المصري ثم تركه ومضى.. وبعدها كتب وايزمان في مذكراته عنه "لقد هزني كرجل حكيم للغاية، إنه يمثل صورة تختلف عن تلك التي توجد في ملفاتنا، ولقد أخبرته بذلك". أخبره كيسنجر بموافقة السادات على انسحاب أكثر من 1000 دبابة و70 ألف جندي مصري من الضفة الشرقية لقناة السويس، فرفض وسارع بالاتصال بالسادات الذي أكد موافقته؛ وكان صدام القرار الاستراتيجي والعسكري.. تم تصنيفه ضمن أبرع 50 قائدًا عسكريًا في التاريخ حسب أشهر الموسوعات العسكرية العالمية.. إنه (الجنرال النحيف) كما لقبته جولدا مائير (محمد عبدالغني الجمسي). نعم جلسته المفضلة كانت بنادي هليوبوليس؛ حيث اعتاد الجلوس مع أصدقائه أمام ملعب الكروكية، ليس جنرال على المعاش من طائفة جنرالات المقاهي الذين يعيش الواحد منهم على ذكريات الماضي يجتر انتصاراته، ويفخر بمعاركه والحروب التي خاضها، خاصة لو كانت حقيقية ولها تاريخ، لكن كل هذا تغير وانقلب تمامًا، لمن جلس معه وجده رجل بسيط متواضع قد لا تستطيع تمييزه عن غيره من الناس الذين تقابلهم في الشارع، وتزاملهم في العمل، وتجاورهم في الأوتوبيس. واحد من فلاحي ريف مصر البسطاء، نحيف الجسد دقيق الملامح، كأنما هي منحوتة نحتًا، هادئ بسيط وعادي، لا تتصور وهو يكلمك بعادية وتلقائية وهدوء أنه هو الجنرال الذي تدرس على الحياة بين طلقات الرصاص، واحترف العمل في ساعات الخطر. ولولا

(1) محمد عبدالغني الجمسي: "ثعلب الصحراء المصري"، رأي اليوم اللندنية، 9 كانون الأول/ ديسمبر 2020. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية <https://www.politics-dz.com>

وقار الرجل وهيبته واسمه الذي تعرفه الدنيا كلها "أشهر من النار على العلم" لكانت جلستنا من التباسط والحميمية التي لم يتكلفها الجنرال أقرب إلى جلسات أهل الريف تحت أشجار الجميز التي تتخللها أكواب الشاي وأحاديث السمر. هكذا كتب عنه مراسل إحدى الصحف بعد اللقاء معه.

بساطة الفلاح وعظمة الجنرال المنتصر هما وجهان لعملة واحدة لم يعرف المشير الجسمي غيرهما في حياته الطويلة التي لم يكن فيها سوى فلاح أو جنرال؛ ففي نهاية عام 1921 ولد الطفل محمد عبد الغني الجسمي لأسرة ريفية كبيرة العدد فقيرة الحال يعمل عائلها في زراعة الأرض في قرية البتانون بمحافظة المنوفية، ولفقر الأسرة المدقع كان الوحيد من بين أبنائها الذي حصل تعليمًا نظاميًا قبل أن تعرف مصر مجانية التعليم، ولعب القدر دوره في حياة الجسمي بعد أن أكمل تعليمه الثانوي، حينما سعت حكومة مصطفى النحاس باشا الوفدية لاحتواء مشاعر الوطنية المتأججة التي اجتاحت الشعب المصري في هذه الفترة؛ ففتحت -لأول مرة- أبواب الكليات العسكرية لأبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة التي كانت محرومة منها، فالتحق الجسمي ولم يكن قد أكمل السابعة عشرة بالكلية الحربية مع عدد من أبناء جيله وطبقته الاجتماعية؛ حيث كان منهم جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وصلاح وجمال سالم، وخالد محيي الدين... وغيرهم، وتخرج فيها عام 1939 في سلاح المدرعات، ومع اشتعال الحرب العالمية الثانية ألقت به الأقدار في صحراء مصر الغربية؛ حيث دارت أعنف معارك المدرعات بين قوات الحلفاء بقيادة مونتجمري والمحور بقيادة روميل، وكانت تجربة مهمة ودرسًا مفيدًا استوعبه الجسمي واختزنه لأكثر من ثلاثين عامًا حين أتيح له الاستفادة منه في حرب رمضان.

عقب انتهاء الحرب واصل الجسمي مسيرته العسكرية؛ فتلقى عددًا من الدورات التدريبية العسكرية في كثير من دول العالم، ثم عمل ضابطًا بالمخابرات الحربية، فمدرسًا بمدرسة المخابرات؛ حيث تخصص في تدريس التاريخ العسكري لإسرائيل الذي كان يضم كل ما يتعلق بها عسكريًا من التسليح إلى الإستراتيجية إلى المواجهة. فكان الصراع العربي الإسرائيلي هو المجال الذي برع فيه الجسمي، وقضى فيه عمره كله الذي ارتبطت كل مرحلة فيه بجولة من جولات هذا الصراع منذ حرب 1948 وحتى انتصار 1973، وحتى بعد اعتزاله للحياة العسكرية ظل مراقبًا ومحللاً للوضع المشتعل، مؤمنًا بأن أكتوبر ليست نهاية الحروب، وأن حربًا أخرى قادمة لا محالة؛ لأن مواجهة

مصرية لا بد أن تقع، وأن الانتفاضة الفلسطينية هي السلاح الأفضل والأنجع حاليًا لضرب العدو الصهيوني، ولا بد من تدعيمها بكل ما نملك.

كانت هزيمة يونه 1967 بداية تصحيح المسار في مواجهة آلة الحرب الصهيونية؛ حيث أسندت القيادة المصرية للجمسي مهام الإشراف على تدريب الجيش المصري مع عدد من القيادات المشهود لها بالاستقامة والخبرة العسكرية استعدادًا للثأر من الهزيمة النكراء، وكان الجمسي من أكثر قيادات الجيش دراية بالعدو، فساعده ذلك على الصعود بقوة، فتولى هيئة التدريب بالجيش، ثم رئاسة هيئة العمليات، ورئاسة المخابرات الحربية، وهو الموقع الذي شغله عام 1972، ولم يتركه إلا أثناء الحرب لشغل منصب رئيس الأركان.

لم يضيع الجمسي يومًا واحدًا؛ فبدأ الاستعداد لساعة الحسم مع العدو الصهيوني، فكان لا يتوقف عن رصده وتحليله وجمع كل المعلومات عنه، وعندما تم تكليفه مع قادة آخرين بإعداد خطة المعركة أخذ يستعين بكل مخزون معرفته، وبدأ تدوين ملاحظاته عن تحركات الجيش الصهيوني، وتوقيتات الحرب المقترحة، وكيفية تحقيق المفاجأة. وللحفاظ على السرية التامة دَوَّن كل هذه المعلومات السرية في الشيء الذي لا يمكن لأحد أن يتصوره؛ فقد كتب الجمسي كل هذه المعلومات في كشكول دراسي خاص بابنته الصغرى؛ فلم يطلع عليه أو يقرؤه أحد إلا السادات وحافظ الأسد خلال اجتماعهما لاتخاذ قرار الحرب!.

اختار القائد المصري المحنك توقيت الحرب بعناية بالغة: الساعة الثانية ظهرًا من يوم السادس من أكتوبر 1973 الموافق العاشر من رمضان 1393، وهو أنسب توقيت ممكن للحرب؛ نظرًا لوجود 8 أعياد يهودية وموافقته لشهر رمضان. ولأن التنسيق بين الجيشين المصري والسوري كان من أصعب مهام الحرب، ويحتاج إلى قائد من طراز فريد؛ لم يكن هناك أفضل من الجمسي.

عاش رئيس هيئة العمليات المسئول الأول عن التحركات الميدانية للمقاتلين ساعات عصيبة حتى تحقق الانتصار، لكن أصعبها تلك التي تلت ما عرف بثغرة الدفرسوار التي نجحت القوات الصهيونية في اقتحامها، وأدت إلى خلاف بين السادات ورئيس أركانه وقتها الفريق سعد الدين الشاذلي الذي تمّت إقالته على إثرها ليتولى الجمسي رئاسة الأركان، فأعد على الفور خطة لتصفية الثغرة وأسماها "شامل"، إلا أن السادات أجهضها بموافقته على فض الاشتباك الأول عقب زيارة وزير الخارجية الأمريكي هنري كيسنجر للقاهرة!.

بانهاء المعركة وتكريم اللواء الجمسي، وترقيته إلى رتبة الفريق، ومنحه نجمة الشرف العسكرية.. لم تنته الساعات العصيبة في حياة الجمسي؛ فقد عاش ساعات أقسى وأصعب؛ هي ساعات المفاوضات مع عدو ظل يقاقله طيلة أكثر من ربع قرن. حيث اختاره السادات ليتولى مسئولية التفاوض مع الإسرائيليين فيما عرف بمفاوضات (الكيلو 101)، وكقائد تجري دماء العسكرية في دمه نفذ الجمسي أوامر القيادة التي يختلف معها، وإن كان قد قرر ألا يبدأ بالتحية العسكرية للجنرال "ياريف" رئيس الوفد الإسرائيلي، وألا يصفحه، وهذا ما حدث فعلاً. وبدأ الرجل مفاوضاً صلباً مثلما كان عسكرياً صلباً، حتى جاءت أصعب لحظات عاشها الفريق في حياته كلها، لحظات دفعته -لأول مرة في حياته العسكرية- لأن يبكي! كان ذلك في كانون الثاني/يناير 1974 عندما جلس أمامه وزير الخارجية الأمريكي الأسبق هنري كيسنجر ليخبره بموافقة الرئيس "السادات على انسحاب أكثر من 1000 دبابة و70 ألف جندي مصري من الضفة الشرقية لقناة السويس!! فرفض الجمسي ذلك بشدة، وسارع بالاتصال بالسادات الذي ما كان منه إلا أن أكد موافقته؛ ليعود الرجل إلى مائدة التفاوض يقاوم الدموع، ثم لم يتمالك نفسه فأدار وجهه ليداري دمعة انطلقت منه حارقة؛ حزناً على نصر عسكري وأرواح آلاف الرجال تضيعها السياسة على موائد المفاوضات. وكانت مفاجأة لهنري كيسنجر أن يرى دموع الجنرال الذي كثيراً ما أسر له القادة الإسرائيليون بأنهم يخشونه أكثر مما يخشون غيره من القادة العسكريين العرب. وكان القرار الذي ندم عليه في حياته، قائلاً بأسى: "اشتراكي في التفاوض مع اليهود".

في مذكراته يستعرض الموقف العسكري على المستوى الاستراتيجي في حرب أكتوبر 1973 التي هزت منطقة الشرق الأوسط هزاً عنيفاً وقلبت الموازين السياسية والعسكرية والاقتصادية في المنطقة وهو شهادة تصلح لتكون إماماً للمتخصصين في كتابة التاريخ . واكد الجمسي على أن الصهيونية العالمية "القوة المسلحة" قامت على إنشاء الدولة فقد أنشأت في وقت مبكراً جداً في فلسطين أول منطقة عسكرية ولما كان إنشاء الدولة اليهودية في فلسطين ليس هدفاً في حد ذاته، بل هو مرحلة للتوسع على حساب الأرض والسيطرة عسكرياً واقتصادياً وسياسياً. وأشار إلى أن القوة العسكرية الإسرائيلية كانت صاحبة الدور الأقوى والأهم ومصدر الخطر الرئيسي على الدول العربية ثم جاءت حرب أكتوبر 1973 لتقلب الموازين بصورة مختلفة تماماً عن

الحروب السابقة في الصراع العسكري الدائم بين العرب وإسرائيل. حيث تم على إثرها فض الاشتباك الأول على الجبهتين المصرية والسورية ثم فض الاشتباك الثاني، وأعيد فتح قناة السويس للملاحة وألغيت معاهده الصداقة المصرية السوفيتية. وأوضح أنه رغم أن الموقف الاستراتيجي في 1973 كان أصعب منه في حرب 1967 حيث عبرت القوات المسلحة المصرية الهزيمة وحققت النصر في ظروف سياسية معقدة. وفي أعقاب ذلك دخلت مصر مرحلة جديدة وحدث تغير شامل في مؤسسات وأجهزة الدولة.

بعد الحرب مباشرة رُقي الفريق الجمسي إلى رتبة الفريق أول مع توليه منصب وزير الحربية عام 1974 وقائد عام للجبهات العربية الثلاث عام 1975، وواصل أثناء توليه للوزارة استكمال تدريبات الجيش المصري؛ استعداداً للمعركة التي ظل طوال حياته يؤمن بها، وكان قرار السادات بالألا يخرج كبار قادة حرب أكتوبر من الخدمة العسكرية طيلة حياتهم تكريمًا لهم، إلا أن السياسة أفسدت هذا التكريم؛ فقد تزايدت مساحة الخلاف بين الجمسي والسادات بعد مبادرة الأخير بالذهاب إلى إسرائيل عام 1977.

تطورت الأحداث بما أدى لخروج الجمسي من وزارة الحربية عام 1978، واختلف الناس حول أسباب هذا الإبعاد، ولكن ظل السبب الأرجح هو رفض الجمسي نزول الجيش إلى شوارع مصر لقمع مظاهرات 18 و19 كانون الثاني/يناير 1977 الشهيرة، فأصرها السادات له، وكان قرار قبوله التقاعد بناء على طلب الجمسي، وتغير اسم وزارة الحربية إلى وزارة الدفاع. إلا أنه رقي عام 1979 إلى رتبة المشير، وحين خرج للحياة المدنية كان أول قرار له هو رفض العمل بالسياسة، وظل محافظاً على ذلك، وكان دائماً ما يردد: إن الرجل العسكري لا يصلح للعمل السياسي، وإن سبب هزيمتنا عام 1967 كان بسبب اشتغال وانشغال رجال الجيش بالألعاب في ميدان السياسة؛ فلم يجدوا ما يقدمونه في ميدان المعركة.

خرج المشير الجمسي من الحياة العسكرية، لكنه ظل محتفظاً بنفس التقاليد الصارمة من الالتزام والانضباط والتزام الصمت بعيداً عن الأضواء، وحين بدأت موجة الكتابة عن حرب أكتوبر تنتشر في مختلف أنحاء العالم، كانت المعلومات تتكشف تدريجياً عن دور الرجل في الحرب، وتعددت معها الألقاب التي أطلقت عليه؛ فجرت المقارنة بينه وبين الجنرال الألماني الأشهر روميل؛ فسمي "تغلب الصحراء المصري"؛ نظراً لبراعته في قيادة معارك الصحراء، ولُقب بأستاذ المدرعات التي احترق القتال

في سلاحها منذ تخرجه في الكلية الحربية.. أما أحب الألقاب إلى قلبه فكان لقب "مهندس حرب أكتوبر"؛ نظراً لاعتزازه بالحدث وفخره به. إلا أن أغرب الألقاب التي أُطلقت على المشير الجمسي؛ فكان ذلك الذي أطلقته عليه جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل إبان حرب أكتوبر، حين وصفته بـ"الجنرال النحيف المخيف".

في صمت رحل المشير الجمسي بعد معاناة مع المرض؛ العدو الوحيد الذي لم يستطع قهره، فرفع له الرايات البيضاء؛ استجابة لنداء القدر، وصعدت روحه إلى ربه في 7-6-2003 عن عمر يناهز 82 عامًا، عاش خلالها حياة حافلة بالانتصارات، وممتلئة جملة النياشين والأوسمة التي تجاوز عددها 24 وسامًا من مختلف أنحاء العالم في الجنازة المهيبة التي حضرها كبار رموز الدولة والعسكرية المصرية تكريمًا ووفاء لذكرى الرجل.. نتذكر كلماته الأخيرة: "انتصار أكتوبر هو أهم وسام على صدري، وليتني أحيأ لأقاتل في المعركة القادمة".!

فؤاد أبو ذكري:

«قائد القوات البحرية خلال حرب أكتوبر»⁽¹⁾

هو المشير فؤاد ذكري (17 نوفمبر 1923 - 26 يناير 1983) قائد القوات البحرية في حرب أكتوبر 1973. وهو المخطط لعملية المدمرة إيلات عام 1967 ويعد من أبرز قادة القوات البحرية في التاريخ المصري الحديث، وهو ضابط البحرية الوحيد الذي وصل إلى رتبة فريق أول بحري ثم رتبة مشير في تاريخ العسكرية المصرية.

ولد الفريق أول فؤاد ذكري في السابع عشر من شهر نوفمبر عام 1923، وهو من أبناء العريش. وفي الثاني من شهر فبراير عام 1946 تخرج برتبة ملازم بحري، وعمل في وحدات البحرية العائمة بالفرقاطات والكاسحات ثم تولى قيادة قاعدة الإسكندرية البحرية، وقيادة المدمرة القاهرة ثم المدمرة الظافرة. منذ عام 1959 وحتى 1963 تولى قيادة لواء المدمرات، ثم تولى رئاسة شعبة العمليات الحربية، وبعد أسبوع من هزيمة يونيو عام 1967 عين قائداً للقوات البحرية فأعاد بناء القوات البحرية المصرية وخطط لأروع إنجازاتها التي تحققت في معارك الاستنزاف، وأكتوبر 1973.

سبق أن حصلت «ذاكرة مصر المعاصرة» التابعة لمكتبة الإسكندرية على المجموعة الأرشيفية الخاصة بقائد القوات البحرية خلال حرب أكتوبر «الفريق فؤاد أبو ذكري»، وقد أهدت هذه المجموعة حرم الفريق الراحل السيدة نادية الشاذلي. ذلك في إطار توثيق مكتبة الإسكندرية لتاريخ مصر الحديث والمعاصر، وبحثها عن العائلات، التي يكون أحد أفرادها قد شارك في صنع وتنفيذ السياسة المصرية خلال أي فترة من فترات تاريخ مصر الحديث والمعاصر لأرشفته ضمن الموقع الإلكتروني modernegypt.bibalex.org.

هو «الفريق أول فؤاد أبو ذكري» من مواليد 17 من نوفمبر لعام 1923 بالعريش وتخرج في الكلية الحربية برتبة ملازم بحري في الثاني من فبراير عام 1946، وعمل في وحدات البحرية العائمة بالفرقاطات والكاسحات، ثم عمل كقائد لقاعدة الإسكندرية البحرية، وقيادة المدمرة القاهرة ثم المدمرة الظافرة. منذ عام 1959 حتى 1963 تولى

(1) قائد القوات البحرية خلال حرب أكتوبر «الفريق فؤاد أبو ذكري»، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

قيادة لواء المدمرات، ثم تولى قيادة شعبة عمليات القوات البحرية، وبعد (أسبوع من هزيمة يونيو عام 1967 صدر القرار بتعيينه قائدًا للقوات البحرية، ولعب دورًا كبيرًا في بناء القوات البحرية خلال تلك الفترة“. وقد نقل على إثر حادث الزعفرانة الشهير كنائب وزير في وزارة النقل البحري حتى عام 1972 حيث أعاده السادات قائدًا للقوات البحرية ورقى إلى درجة الفريق الفخري في أول يناير 1972 ليشترك في حرب أكتوبر، ويحصل على وسام نجمة الشرف العسكرية.

الفريق الراحل له تاريخ مهني لامع، فهو الضابط الوحيد الذي تولى منصب قائد القوات البحرية مرتين، وخدم عدد ساعات في البحر أكثر من أي ضابط في البحرية المصرية وفقًا لملفه، كما أنه مؤلف كتاب ”البحرية المصرية، الطريق إلى أكتوبر“. وقد برز دور الفريق الراحل قبل حرب أكتوبر بسنوات عندما كان يعمل رئيسًا لشعبة العمليات البحرية، عام 1967، عندما خطط وأدار عملية عودة القوات المصرية من اليمن إلى ميناء أبو الغصون جنوب برنيس، ومن هناك اتجهت قواتنا مباشرة إلى سيناء. فمن التحديات الكبيرة، التي تصدّ لها أبو ذكري بعد هزيمة 67 وقبل حرب أكتوبر، إعادة بناء وتنظيم القوات البحرية، واستيعاب أنظمة التسليح الجديدة، التي تم الحصول عليها من الاتحاد السوفيتي، فضلًا عن صيانة وإصلاح وإعادة تعمير القطع البحرية، التي استهلكت، خصوصًا تلك، التي كُلفت بإغلاق مضيق تيران طبقًا لقرار الرئيس عبد الناصر في أواخر مايو 1967.

”الفريق فؤاد أبو ذكري“ اعتبر أن ذلك القرار كان الذريعة، التي كانت تنتظرها إسرائيل لشن عدوانها آنذاك على مصر، حيث تم إرسال هذه القطع إلى الهند وباكستان لإجراء عمليات رئيسية فيها على نفقة الدولتين. و”أبو ذكري“ لم يشغله إعادة بناء وتنظيم القوات البحرية عن تخطيط وتنفيذ عمليات بحرية تعرضية ضد القوات الإسرائيلية، ومن أبرز تلك العمليات إغراق الغواصة الإسرائيلية ”ذاكار“ أمام الإسكندرية في مارس 69 بواسطة كاسحة الألغام أسيوط، وقبل ذلك إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في 21 أكتوبر 1967 بواسطة لنشات صواريخ، ومنذ التاريخ الأخير، يتم الاحتفال في هذا اليوم بعيد البحرية المصرية».

لقد ارتبط اسم ”ذكري“ بإنجازات عسكرية عالمية تدرس في كبرى الأكاديميات العسكرية في العالم بـ”اعتباره القائد، الذي خطط وأمر بضرب المدمرة إيلات باستخدام

لنشأت الصواريخ لأول مرة في تاريخ البحرية في العالم، كذلك خلال حرب أكتوبر كان لذكري شرف قيادة أول معركة تصادمية بالصواريخ خلال حرب أكتوبر بعد أن حاصر باب المنذب بقواته قبيل حرب أكتوبر بـ 10 أيام، ويحسب له دوره في إعادة تنظيم وتطوير القوات البحرية خلال فترة وجيزة“.

رجل المهام الصعبة الفريق أبو ذكري:

برز دور الفريق بحري فؤاد أبو ذكري قبل حرب أكتوبر بسنوات عندما كان يعمل رئيسًا لشعبة العمليات البحرية عام 1967 عندما خطط وأدار عملية عودة القوات المصرية من اليمن إلى ميناء أبو الغصون جنوب برنيس، ومن هناك اتجهت قواتنا مباشرة إلى الجبهة في سيناء. وبعد أن شنت إسرائيل عدوانها عام 1967 وسيطرت على قناة السويس انقطعت الملاحة بين البحرين الأبيض والأحمر، هنا واجه اللواء أبو ذكري تحدّيًا كبيرًا بسبب احتجاز قطع بحرية من مدمرات (4 مدمرة) وغواصات في البحر الأحمر بعيدًا عن القاعدة البحرية الرئيسية في الإسكندرية، وكانت هذه القطع البحرية مهددة بالتدمير من قبل الطيران الإسرائيلي الذي كان له السيادة الجوية في سماء مسرح العمليات عقب حرب 1967. إلا أن الله أمكن (للواء) أبو ذكري أن يوفر الحماية الذاتية لهذه القطع البحرية ضد الطيران الإسرائيلي المتفوّق، ويوفر لها أعمال الصيانة والإصلاح، ولأطقمها استمرار التدريب رغم بعد المسافة، حيث أعاد تمرّكها في ميناء الجديدة باليمن الشماع آنذاك وميناء عدن باليمن الجنوبي، وفي بورسودان حيث وجدت إحدى غواصاتنا التي كلّفت بمهمة اعتراض خطوط الملاحة البحرية لإسرائيل في البحر الأحمر، ونجحت في إغراق ناقلة بترول إسرائيلية في 8 أكتوبر، ومنذ ذلك التاريخ منعت إسرائيل سفنها من الدخول أو الخروج من البحر الأحمر.

بالنظر إلى وجود هذا الحجم من القطع البحرية في البحر الأحمر أنشأ اللواء أبو ذكري آنذاك قيادة فرعية لأسطول البحر الأحمر تحت قيادة العميد أشرف رفعت، وهنا برزت فكرة إغلاق الملاحة البحرية نهائيًا في وجه السفن الإسرائيلية بالبحر الأحمر من خلال إغلاق مضيق باب المنذب بجنوب البحر الأحمر، وبذلك نقضي على حجة إسرائيل في الاحتفاظ بميناء شرم الشيخ بدعوى حماية الملاحة في خليج العقبة من وإلى إيلات.

من التحديات الكبيرة التي تصدّى لها اللواء أبو ذكري بعد هزيمة 67 وقبل حرب أكتوبر، إعادة بناء وتنظيم القوات البحرية، واستيعاب أنظمة التسليح الجديدة التي تم الحصول عليها من الاتحاد السوفيتي وشملت لنشات طوربيدات وزوارق وصواريخ ساحلية وزوارق مرور سريعة وكاسحات ألغام، فضلاً عن صيانة وإصلاح وإعادة تعمير القطع البحرية التي استهلكت، خصوصاً تلك التي كُلفت بإغلاق مضيق تيران طبقاً لقرار الرئيس الراحل عبد الناصر في أواخر مايو 1967، وكان ذلك القرار الذريعة التي كانت تنتظرها إسرائيل لشن عدوانها آنذاك على مصر. حيث تم إرسال هذه القطع إلى الهند وباكستان لإجراء عمليات رئيسية فيها على نفقة الدولتين.

تدمير المدمرة إيلات وحدها أم إيلات وحيفا؟:

لم تكن إعادة بناء وتنظيم القوات البحرية يشغل اللواء أبو ذكري عن تخطيط وتنفيذ عمليات بحرية تعرضية ضد القوات الإسرائيلية، سواء البحرية أو البرية الموجودة على الساحل شمال سيناء، وكان أبرز تلك العمليات إغراق الغواصة الإسرائيلية (داكار) أمام الإسكندرية في مارس 69 بواسطة كاسحة الألغام "أسبوت"، وقبل ذلك إغراق المدمرة الإسرائيلية إيلات في 21 أكتوبر 1967 بواسطة لنشات صواريخ. وكانت هذه المدمرة تحت قيادة الأدميرال إسحق بني شوشان، تحمل طلبة الكلية البحرية الإسرائيلية في مهمة تدريبية، ولرفع الروح المعنوية للطلبة بإظهار سيطرة البحرية الإسرائيلية على السيادة الإقليمية المصرية شمال سيناء، بل والقدرة على الوصول إلى شمال بورسعيد. وكانت هذه المدمرة قد جاءت أكثر من مرة قرب المياه الإقليمية المصرية لإثبات هذا المفهوم.

في الساعة 2200 يوم 20 أكتوبر 1967 رصدت أجهزة المراقبة بالزوار وبصرياً ظهور أهداف معادية على مساحة تتراوح من 13 إلى 25 ميلاً بحرياً خارج المياه الإقليمية المصرية طوال الليل وحتى النهار. وفي الساعة 715 صباح يوم 21 أكتوبر رصدت أجهزة الإنذار في قاعدة بورسعيد هدفين يتحركان على مسافة 15-25 ميلاً من ساحل بورسعيد بالتبادل، أي تقترب قطعة من الساحل لمسافة 15 ميلاً في حين تكون الأخرى على مسافة 25 ميلاً. وفي الساعة 1125 تأكد لوسائل الاستطلاع البصرية بقاعدة بورسعيد أن هوية الهدف المعادي هو مدمرة من طراز z (زد) بريطانية المنشأ، وفي سعت 1200 دخلت قطعة بحرية معادية المياه الإقليمية بميل واحد لتصبح مسافتها

من الساحل 11 ميلاً فقط وفي سعت 1210 صدقت القيادة العامة على تدمير أي هدف يدخل المياه الإقليمية. وفي الساعة 1500 أبلغ ربان السفينة التجارية المصرية (قناة السويس) المبحرة قبالة سواحل بورسعيد برصده قطعتين بحريتين إسرائيليتين قبالة سواحل بورسعيد. وعلى الفور تم رفع درجة استعداد سرب لنشات كومار في بورسعيد بقيادة النقيب أحمد شاکر الذي طلب تعطيل رادار القاعدة البحرية لتأثيره على كفاءة رادارات لنشات الصواريخ بالميناء وفي سعت 1615 كان الهدف البحري على مسافة 14.5 ميل بحري.

في الساعة 1620، أبحر لنشان صواريخ (501، 504) في ممر ملاحى غير لافت لنظر العدو وبسرعة بطيئة تجنباً للرصد. وفي ساعة 1725 تم رصد هدف معادٍ داخل المياه الإقليمية وإطلاق صاروخين من اللنش 504 قيادة النقيب أحمد شاکر، تتبع ذلك ظهور وهج شديد في الأفق وظهور الهدف على رادار اللنش أصغر من الحجم السابق كدليل لإصابته. وفي الساعة 1730 أرسل النقيب أحمد شاکر إلى القيادة بتمام الاشتباك وتدميره وإغراقه، وبدء عودة اللنش إلى بورسعيد تنفيذاً لأوامر القيادة، وأذاعت الإذاعة المصرية بياناً عن إغراق هدف.

في الساعة 1800 ومع إعادة تشغيل رادار القاعدة البحرية ببورسعيد واكتشاف وجود هدف في نفس المنطقة، حين ذاك صدرت الأوامر للنش رقم 501 قيادة النقيب لطفي جاد الله، بالاشتباك مع الهدف وتدميره، وبالفعل أبحر اللنش 501 سعت 1830، وتوجه للاشتباك مع الهدف المعادي، وفي سعت 1940 أطلق صاروخين على الهدف المعادي، وظهر وهج شديد في سماء الليل وظهر الهدف كنقاط صغيرة على الرادار كدليل الإصابة، وفي سعت 1947 اختفت أجزاء كبيرة من الهدف المعادي على الرادار. في سعت 1955 وصل اللنش 501 إلى مسافة 5 أميال من مكان الهدف وشوهت المياه مشتعلة مع وجود حطام وبقايا المدمرة في المياه، وفي سعت 2000 اختفى الهدف تماماً من كل شاشات الرادار وفي سعت 2010 أعلنت إسرائيل رسمياً عن غرق قطعة بحرية هي مدمرة، ولم تذكر اسمها في البداية، وفي سعت 2015 وحتى 2200 ظهرت طائرات هليكوبتر ولنشات العدو في المنطقة متزامنة مع انسحاب اللنش 501 تجاه الإسكندرية لسحب لنشات العدو التي انطلقت تطارده بعيداً عن بورسعيد، حيث جنح اللنش قرب قرية عزبة البرج قرب دمياط.

في يوم 23 أكتوبر 1967 عقد اللواء مصطفى كامل المتحدث الرسمي لوزارة الحربية مؤتمرًا صحفيًا أعلن فيه تدمير هدفين معاديين وليس هدفًا واحدًا، قائلاً: "تم إطلاق صاروخين على هدف متحرك بنفس حجم إيلات، ولكن بسبب الظلام لم يتم التأكد من هويته"، ثم عادت القيادة المصرية بعد ذلك وتماشت مع الإعلان الإسرائيلي عن غرق المدمرة إيلات، ولم يتم التطرق إلى قصة إغراق هدفين مرة أخرى. يستند أصحاب رأي تدمير مدمرتين وليس واحدة فقط إلى شهادة النقيب أحمد شاكر في 27 أكتوبر قائد السرب وصاحب الضربة الأولى في نشرة القوات المسلحة قائلاً: "رأيت الهدف على الفور يهبط ويغوص في الماء ثم اختفى من شاشة الرادار بعد ثلاث دقائق وعندئذ أمرت اللنش الثاني بالعودة إلى القاعدة"، وبالتالي فإن الهدف الذي تم رصده بعد ذلك بنصف ساعة -أي سعت 1800- وتم توجيه اللنش 501 لتدميره، وهو ما تم بالفعل سعت 1940 بواسطة صاروخين، يكون هدفًا معاديًا آخر غير المدمرة إيلات، وهو المدمرة (يافا). يدعم هذا الرأي أن تكتيكات البحرية الإسرائيلية لا تسمح لأي مدمرة بالإبحار بمفردها بل تكون بصحبته، إما مدمرة أخرى أو لنشات طوربيد كما حدث في المعركة البحرية في 11 يوليو 1967. كما أنه تلاحظ في سجلات البحرية الإسرائيلية إغفال ذكر المدمرة (يافا) سوى سطرين فقط من تاريخ دخول الخدمة في عام 1955 فقط وتحويلها إلى سفينة هدف للتدريب على رماية الصواريخ جبرائيل، وهو ما ليس معقولاً أن تتحول سفينة شبه جديدة وفي حالة ممتازة مثل إيلات الأخت التوأم لها إلى سفينة هدف لضرب الصواريخ عليها حتى غرقت عام 1972!.

أما الرواية الإسرائيلية التي ذكرها قبطان المدمرة إيلات -إسحق شوشان- والذي أُصيب بكسر في العمود الفقري خلال الهجوم، فإنها تفيد بإرساله رسالة إلى القيادة يقول فيها إن المدمرة تغرق وإنهم يغادرونها، وهو ما يؤكد أن أجهزة المدمرة اللا سلكية كانت تعمل رغم تصريحات الضابط الأول كولمان التي قال فيها إنهم حاولوا إصلاح أجهزة الإرسال لإرسال رسالة استغاثة دون جدوى، ولكن كلمات القبطان شوشان يفترض أنها الأقرب للدقة وهو ما يفسر وصول الطائرات الهليكوبتر والنشات الإسرائيلية في توقيت متزامن مع ضرب النقيب لطفي جاد الله صاروخيه تجاه المدمرة الأخرى (يافا) التي تحركت لنجدة المدمرة الأولى (إيلات)، ويعني أيضًا أن إيلات غرقت

أو بدأت الغرق وطاقمها هجرها قبل بدء اللنش الثاني في إطلاق صواريخه ثم يذكر القبطان شوشان أن مدمرته أطلق عليها 4 صواريخ، الفصل بين الأول والثالث ساعتان ونصف الساعة، وهنا يبرز سؤال مهم: لماذا انتظر حتى الصاروخ الثالث الذي أصاب المدمرة ليرسل إشارة بأن المدمرة تغرق، وهو ما يوضح أن الرواية الإسرائيلية ملفقة.

الرواية في كتاب اللواء بحري محمود فهمي:

في كتاب اللواء بحري محمود فهمي قائد القوات البحرية السابق ورئيس عمليات القوات البحرية في وقت المعركة (صفحة من التاريخ) من ص 98 إلى 100، يكشف حقيقة وجود هدفين لا هدف واحد، حيث يقول: وانتقلت إلى مكتب العقيد عادل هاشم حيث البلاغات من قاعدة بورسعيد متلاحقة تنساب كما تنساب الأنغام العذبة في سيمفونية جميلة.. صاروخ نمرة واحد أصاب الهدف.. صاروخ نمرة اثنين طلع.. نمرة اثنين أصاب الهدف.. الهدف تحطم.. هكذا وفي دقائق معدودة تحطمت أكبر وحدة بحرية إسرائيلية، لقد غرقت مدمرتهم الكبيرة إيلات، لقد أهنا كبرياءهم وجوعنا أنفهم. وعلى الفور أمرت بعودة اللنشين إلى القاعدة. الأول بعد أن أطلق صواريخه والثاني محمل بالصواريخ، وعاد اللنشان بعد أن استقبلا استقبالا حماسيا رائعا من أهالي بورسعيد. كانوا يهللون ويمجدون أبطال البحرية المصرية الشجعان، فقد رأوا كل ما حدث رؤية العين، فلم يكن الظلام قد أقبل إلا بعد أن دخلت اللنشات رصيف القاعدة.

يستطرد اللواء فهمي قائلاً ”، وانتقلت أنباء قائد القوات البحرية -اللواء فؤاد ذكري- إلى مكتبه حيث كل منا يهنئ الآخر، كما كنا نتقبل التهاني من كل قريب وبعيد عما أحرزته البحرية المصرية من انتصار عظيم في دقائق معدودة.. غير أنه كان يدق في رأسي الهدف الثاني الذي أبلغنا به صباح اليوم، مدمرة إسرائيل الثانية والتي بسببها استبقيت صواريخ اللنش الثاني دون إطلاق، كنت أتوقع أن تهم المدمرة الثانية لمحاولة إنقاذ ما تبقى على قيد الحياة من أفراد مدمرتهم الأولى. ونحو السابعة إلا عشر دقائق هرع إلى العقيد عادل هاشم وقال ظهر هدف على شاشة الرادار في نفس مكان غرق المدمرة إيلات أو بجواره قليلاً، فأصدرت الأمر على الفور بخروج اللنش الثاني بقيادة النقيب لطفي جاد الله، وبعد أقل من عشرين دقيقة أسرع إلى القائد في مكتبه وأخطرته بأننا أغرقنا مدمرة إسرائيل الثانية. عقدت مؤتمراً صحفياً بناء على

تعليمات القائد العام للقوات المسلحة حضره جميع مراسلي الصحف المصرية، وعلى رأسهم محمد حسنين هيكل رئيس تحرير (الأهرام) في هذا الوقت، وسردت القصة كاملة، غير أن الذي ظهر في الصحف لم يكن على الصورة الكاملة التي ذكرتها الآن لكن الذي يحيرني.. أن جميع المصادر الإسرائيلية أنكرت غرق المدمرة (يافا) غير أن إسرائيل لم تقدم إلى العالم دليلاً على ذلك، وليس ذلك من طبع الإسرائيليين، فقد كان بإمكانهم عقد مؤتمر صحفي على ظهرها كما فعلوا في مناسبات أخرى.. ولكن الثابت أن تلك المدمرة لم تظهر بعد ذلك وحتى الآن في الموانئ الإسرائيلية أو غير الإسرائيلية... وانتهى كلام اللواء محمود فهمي والذي يؤكد رواية تدمير مدمرتين لا مدمرة واحدة.

الإغارة على ميناء إيلات:

في إطار حرب الاستنزاف التي بدأت في مارس 1968 وحتى مبادرة روجرز في أغسطس عام 1970، وتنفيذاً لمخطط الإغارات، قامت مجموعة خاصة تسمى (المجموعة 39) بقيادة العقيد إبراهيم الرفاعي بغارة بحرية على القاعدة البحرية الإسرائيلية الرئيسية في البحر الأحمر (إيلات) ونجحت في إغراق وإصابة ثلاث سفن إنزال بحرية إسرائيلية يوم 16 نوفمبر 1969. والعقيد الرفاعي من رجال الصاعقة الذين يتصفون بالشجاعة النادرة وإعطاء القدوة والمثل لمرؤوسيه في أثناء تنفيذ العمليات الفدائية الكثيرة التي قاموا بها، ومن أبرزها تدمير موقع الصواريخ أرض/أرض في لسان بحيرة التمساح الذي انطلقت منه الصواريخ التي أصابت الشهيد الفريق عبد المنعم رياض رئيس أركان القوات المسلحة يوم 9 مارس 1968 عند زيارته لموقع متقدم عند المعديّة مرة 6 غداة يوم قصف المدفعية لمواقع خط باريلف، فكان هجوم المجموعة 39 على موقع الصواريخ الإسرائيلي انتقاماً لمقتل الشهيد الفريق رياض.

لقد قامت هذه المجموعة بالكثير من العمليات التعرضية داخل سيناء خلال فترة حرب الاستنزاف والدفاع النشط، وكانت عمليات ذات طابع خاص تتسم بالفدائية والمفاجأة، وكانت عملية ميناء إيلات إحدى هذه العمليات التي تطلبت إعداداً طويلاً في سرية مطلقة وشجاعة كبيرة في التنفيذ. وكان رد فعل هذه العملية شديداً في إسرائيل للخسائر المادية والبشرية التي لحقت بها، والأهم من ذلك أنها كانت رمزاً لقدرة القوات المصرية للوصول إلى أحد الموانئ البحرية الإسرائيلية في العمق وتنفيذ مثل هذه العملية الجريئة.

الاستراتيجية البحرية لحرب أكتوبر:

تستهدف الاستراتيجية البحرية المصرية إلى حصار إسرائيل عن طريق تصديع خطوط مواصلاتها البحرية في البحرين الأحمر والمتوسط، ومعاونة عمليات قواتنا البرية التي تقاتل على السواحل بالنيران وحماية جانبها المعرض للبحر، مع القيام بعمليات إبرار بحري خلف خطوط القوات الإسرائيلية وعلى أجنابها، وتطوير استراتيجية حصار إسرائيل بإضافة أبعاد جديدة إليها يتعذر على الإسرائيليين التعامل معها. ولما كانت الحرب البحرية تهدف في المقام الأول إلى التأثير على اقتصاد الخصم عن طريق السيطرة على البحر وتهديد خطوط مواصلاته البحرية، من هنا أولت قيادة القوات البحرية هذه المهمة اهتمامها. فمع تزايد اعتماد إسرائيل اقتصاديًا وعسكريًا على حركة النقل عبر البحار، ازدادت تبعًا لذلك كثافة شبكة خطوط مواصلاتها البحرية، لا سيما بعد أن سيطرت على مضائق تيران في خليج العقبة في أعقاب حرب 1967، وأصبح الطريق مفتوحًا لتجارتها مع الشرق الأوسط وبلدان شرقي إفريقيا عبر البحر الأحمر. وكانت أهم وارداتها المنقولة عبر هذا البحر هو البترول الخام الذي تحمله الناقلات من إيران إلى ميناء إيلات، ثم يتم نقله خط أنابيب -بعد حصول إسرائيل على حصتها منه- إلى عسقلون على البحر المتوسط، حيث يعاد شحنه على الناقلات إلى أوروبا مرة أخرى. ومن ناحية أخرى تمر خطوط تجارة ومواصلات إسرائيل البحرية -في البحرين الأحمر والمتوسط- بمناطق حاکمة يمكن استغلالها بنجاح كبير في عمليات التعرض لخطوط المواصلات الإسرائيلية كجزء من الهدف الاستراتيجي الأكبر، وهو: تشديد قبضة الحصار على اقتصاد إسرائيل ومجهدوها الحربي، إلا أن إسرائيل اعتادت منذ بدء حوربنا معها أن يأخذ حصارنا البحري لها الشكل المباشر القريب، أي غلق مضيق تيران عند مدخل خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية أو عرقلة حركة السفن التجارية المتردة على موانئها المطللة على البحر المتوسط بواسطة الوسائل التقليدية المعروفة، والتي يصاحبها عادة إعلان مناطق عمليات حربية في مساحات محدودة من مياه البحار التي تحيط بالأراضي الإسرائيلية، إلا أن هذا الأسلوب في الحصار ثبت أنه في الظروف التي سبقت حرب أكتوبر 1973 تبين أنه لن يؤتي الثمار المرجوة منه، خصوصًا في ظل السيطرة الجوية الإسرائيلية على مسرح العمليات، لذلك تم تطوير حصارنا البحري لإسرائيل بحيث يحقق أهدافًا استراتيجية

مؤثرة بعيدة عن ردود فعل نتائج العمليات الجوية والبرية، وذلك بالسيطرة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر عند باب المندب والمياه المحدودة الاتساع في غرب البحر المتوسط، فمن هاتين المنطقتين يمكن فعلاً تهديد خطوط المواصلات البحرية لإسرائيل بعيداً عن تأثير قواتها الجوية، بالإضافة إلى العمل أيضاً عند مضيق خليج العقبة، ومداخل الموانئ الإسرائيلية على البحر المتوسط، ولأن أسلوب الحصار البحري البعيد مغاير تماماً لما ألفته إسرائيل، فقد أحطنا بإجراءات وتدابير تنفيذه بتكتم شديد ضماناً لمفاجأة إسرائيل به. لذلك قامت القيادة السياسية المصرية باتصالات مكثفة مع بلاد المنطقة، خصوصاً دولتي اليمن الشمالي والجنوبي، للحيلولة دون احتلال إسرائيل بعض جزر البحر الأحمر.

كان من المهم لنا أن يكون لدينا تصور عن طبيعة الاستراتيجية البحرية الإسرائيلية بعد أن سيطرت على سواحل طويلة على البحرين المتوسط والأحمر عقب حرب 1967، حيث يتعين عليها أن تخوض حرباً دفاعية في مياهها ونقل الحرب إلى مياهنا وسواحلنا، أخذاً باستراتيجية (ضرب المنبع) وحتى تضعنا في موقف الدفاع، وستعتمد إسرائيل في ذلك على لنشات الصواريخ المدعمة بالطيران لوضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، كما ستزداد تشبثاً بالحفاظ على وجود قواتها بشرم الشيخ، لضمان تأمين حرية الملاحة في خليج العقبة، لذلك توقعنا أن تتسم أعمال القتال البحرية بطابع السرعة بعد أن حلت الوحدات الخفيفة محل المدمرات والفرقاطات وأن الصواريخ بحر/بحر الموجهة وغير الموجهة ستحل محل قذائف المدفعية التقليدية مع استمرار اشتراك الطيران الإسرائيلي في المعارك البحرية كعنصر رئيسي للاستطلاع بعيد المدى والتعامل مع الأهداف البحرية عن بعد، مع توفير الغطاء الجوي لقطع البحرية الإسرائيلية في تحركاتها واشتباكاتهما، مع عدم استبعاد استخدام سفن الإنزال للقيام بعمليات إبرار بحري في عمق قواتنا لتنفيذ أعمال تخريبية وقطع طرق تحرك قواتنا البرية.

لذلك تمحورت المهام القتالية للبحرية المصرية وتركزت جهودها لمعاونة الأعمال القتالية لقواتنا البرية المهاجمة على الساحل الشمالي لسيناء وفي خليج السويس، مع التوسع في استخدام الألغام من جانبنا في إعاقه الملاحة المضائق البحرية وبمداخل الموانئ الإسرائيلية، حيث سيتعذر على إسرائيل إزالتها لافتقارها إلى كاسحات ألغام، مع الاستعداد للدخول في معارك تصادمية في مسرح البحر المتوسط نظراً إلى كثرة القواعد

والمراسي المصرية والساحلية على ساحله، في حين ستقل مثل هذه المعارك في الجزء الشمالي من البحر الأحمر، حيث ستغطيه إسرائيل بقواتها الجوية.

في حين أن أسلوبنا المتطور في حصار إسرائيل عند باب المندب لن يتيح لقواتهم الجوية والبحرية التدخل عنده بفاعلية، حيث يبعد المضيق نحو 1200 ميل عن أقرب قاعدة إسرائيلية، وبما يتيح لنا استخدام المدمرات كقوة حصار خارج وداخل البحر الأحمر، فضلاً عن ممارسة جميع أشكال الحصار البحري ضد السفن التجارية قبل الاعتراض ومنع المرور والتفتيش والاحتجاز والمصادرة ثم القصف بقصد الإغراق إذا كانت السفن التجارية مسلحة أو تحت حراسة حربية. وبالنظر إلى احتلال إسرائيل لسيناء اقتربت مواقع قواتهم البحرية من قواعدنا البحرية في بورسعيد والسويس، حتى أصبحت على حافة قواعدنا البحرية، الأمر الذي فرض علينا نقل منطقة العمليات في البحر الأحمر لمسافة 1200 ميل جنوباً، و600 ميل للغرب بعيداً عن قواعد إسرائيل في البحر المتوسط، ومعنى هذا أن يبدأ الحصار عند باب المندب ووسط البحر المتوسط في وقت مبكر، وأن يستمر الحصار في أداء مهمته حتى تئن إسرائيل من وطأة ضغط الحصار عليها، بغض النظر عن سير القتال البحري والجوي.

وهو ما فرض بالتالي على قواتنا البحرية أن تعطي اهتماماً خاصاً للتقيد بمبادئ الحرب الأساسية: السرية، الخداع، المباذأة، والمفاجأة، مع التركيز الشديد للأعمال القتالية، لا سيما في المرحلة الافتتاحية للعملية الهجومية. مع العمل على أوسع مواجهة ممكنة في مسرحي البحر المتوسط والبحر الأحمر، لتشتيت جهود العدو، مستفيدين في ذلك بالعمق العربي الاستراتيجي. وتركيز الجهد الرئيسي على المستوى التكتيكي في معاونة ودعم العمليات الهجومية للجيش الميدانية على الجبهة المصرية، مع شن غارات بالنيران بحرًا على قواعد وموانئ ومراسي العدو بالبحرين المتوسط والأحمر وبمعايير من الصاعقة البحرية، والاستعداد للقيام بعمليات إبرار محدودة لعناصر من الصاعقة وقوات الجيش الثاني الميداني شرق نقطة العدو القوية شرقي بورفؤاد، وعلى الساحل الشرقي لخليج السويس، وفي المقابل إحباط أي محاولة قد يقوم بها الإسرائيليون لإبرار قوات لهم على أي جزء من سواحل البحرين الأحمر والمتوسط، ومنع أي تدخل إسرائيلي في عمليات قواتنا البرية من جهة البحر.

لقد استهدفت خطة الخداع التي وضعتها قواتنا البحرية إيهام إسرائيل بأن

قواتنا لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتنا الدفاعية والتي تتطلب فترة زمنية طويلة، وبما يظهر بحريتنا أنها غير قادرة على الاضطلاع بمهام هجومية، وما يتطلبه ذلك من إبعاد انتباه إسرائيل عن التجمع الرئيسي لقواتنا البحرية واتجاهاته الرئيسية قبل العمليات وفي أثنائها، وإخفاء الهدف المباشر للعملية الهجومية وحرمانها من استنتاج التوقيت الصحيح لبدء الهجوم. لذلك نشطت الاتصالات مع شركات أجنبية بطلب أسلحة ومعدات، بل ووحدات بحرية أيضًا يستغرق توريدها شهرًا عددًا. وأيضًا قبول الدعوة التي وجهتها الأدميرالية البريطانية إلى رئيس أركان القوات البحرية لزيارة معرض (جرينتش) بالمملكة المتحدة، وبصحبته عدد من الضباط، والاستفادة من الطلب إلى تقدّمت به ليبيا باشتراك البحرية المصرية في الاحتفال العسكري الذي كان مزمعًا إقامته في ميناء طبرق لإرسال وحدات بحرية للغرب لأغراض الفتح التعبوي تحت ستار مشاركتها في الاحتفال. كما تم استغلال الترتيبات العلنية المتعلقة بإصلاح الغواصات بباكستان لكي تتخذ الغواصات مواقعها في مسرح البحر الأحمر في سرية، والإحياء بأن شدة حاجتها إلى الإصلاح تجعلها غير صالحة للعمليات والتي أبرزناها بتكثيف اتصالاتنا -عن عمد- بالسلطات الباكستانية لسرعة نقل التجهيزات الخاصة بأحواض إصلاح الغواصات إلى ميناء كراتشي. كذلك استغلال المناورة السنوية للقوات البحرية في رفع درجة استعداد القوات وتحميل الألغام واتخاذ الوحدات مواقع عملياتها تحت ستار التجهيز التمهيدي للمناورة، تم تنفيذ الانتشار الفعلي على أنه تحركات داخل إطار المناورة وفي حدودها.

تنظيم القوات وتوزيع الأدوار

تعيش القوات البحرية في وقت السلم في إطار تنظيم نوعي للوحدات البحرية في شكل ألوية ينضم تحتها نوع واحد من أسلحة الحرب البحرية مثل المدمرات، الغواصات، لنشات الصواريخ، زوارق الطوربيد، السفن المساعدة.. إلخ، ولكن في وقت الحرب وطبقًا لطبيعة مهمة القتال يتم دمج نوعيات من هذه الأسلحة في مجموعات قتال. وعلى هذا أخذت مجموعات القتال تتشكل في تنظيم الحرب في سرية تامة على النحو التالي: 4 مجموعات ضاربة للعمل في مسرح البحر المتوسط، 2 مجموعة ضاربة بمسرح البحر الأحمر، مجموعة قتال مستقلة للعمل بمنطقة باب المندب، 3 مجموعات مستقلة تضم عددًا من الغواصات للعمل بمسرحي البحر المتوسط والبحر

الأحمر، 2 مجموعة قتال مستقلة تضم عناصر من قوات الصاعقة للعمل بمسرحي البحر المتوسط والبحر الأحمر، احتياطي تعبوي خفيف الحركة في كل من المسرحين.. بدء الفتح التعبوي في التوقيت الذي يكفل وجود جميع مجموعات القتال في أماكنها صباح يوم 6 أكتوبر، لتبدأ تنفيذ مهمتها. وللمحافظة على سرية الهدف فقد تأكدت قيادة القوات البحرية أن مجموعة قتال المندب أبحرت مستعدة تمامًا للقتال، وفي الوقت المناسب في أثناء المرحلة البحرية فتح قائد المجموعة مطروفاً سرياً وجد به تعليمات القتال.

لم تواجهنا صعاب تُذكر في انتشار مجموعات قتال البحر المتوسط، نظراً إلى أن قواعد ومراسي هذا البحر كانت مجهزة مسبقاً، على عكس قواعد ومراسي البحر الأحمر التي زاد عددها كثيراً لتغطي متطلبات عمليات التعرض لخطوط مواصلات إسرائيل البحرية التي تمتد بطول هذا البحر، هذا فضلاً عن تعزيز تجهيزات القواعد البحرية والمراسي الصديقة المحيطة بباب المندب لخدمة الوحدات البحرية المصرية العاملة بالمنطقة، ورغم كل ما صادفناه من مشكلات إدارية وصعاب فنية في تجهيز مسرح البحر الأحمر، فإننا بفضل الله نجحنا وبالتعاون البناء مع بحريات السودان واليمن وسلطات هذه الدول في الانتهاء من تلك التجهيزات في الوقت المناسب لاستقبال وحداتنا البحرية في التوقيت المحدد.

تحت ستار مشروع تدريب استراتيجي تعبوي مشترك، والمناورة البحرية السنوية، رفعت درجة استعداد القوات المصرية إلى الحالة الكاملة في الساعة الثامنة من صباح يوم أول أكتوبر وتم احتلال جميع مراكز القيادة والسيطرة على مختلف المستويات، وبدأت آلة الحرب الضخمة تدور بسرعة وانتهت قيادة القوات البحرية خلال الأيام القليلة السابقة من تلقين قادة القواعد والمجموعات القتالية وكبار ضباط الأركان بالمهام التي سيضطعون بها، وأسلوب القيادة والسيطرة. وقد تحددت الساعة السادسة صباح يوم 5 أكتوبر موعداً لتمام استعداد القوات المسلحة المصرية للعمل على جميع المسارح والجبهات. وفي خلال المدة بين التوقيتين - 94 ساعة قامت القوات البحرية بأكثر من 150 تحركاً وطلعة في اتجاهات مختلفة، بعضها فعلي لأغراض العمليات، والبعض الآخر تمويه لأغراض الخداع. وإمعاناً في التضليل توجه قائد القوات البحرية كعادته إلى نادي اليخت المصري بالإسكندرية أيام الثلاثاء والأربعاء

والخميس (2، 3، 4 أكتوبر) للاشتراك في مسابقات القوارب الشراعية والتي يشترك فيها أيضاً مجموعة كبيرة من الضباط البحريين والضيوف الأجانب، فبدأت الأمور طبيعية، كما اتفق قائد البحرية مع بعض أعضاء مجلس إدارة النادي، بصفته رئيس المجلس، على الاجتماع بهم بعد ظهر يوم السبت 6 أكتوبر.

السادس من أكتوبر 1973

تسللت الغواصات بهدوء إلى مناطق عملياتها للتعرض لخطوط المواصلات بالبحر المتوسط وإلى مناطق عملياتها في وسط وجنوب البحر الأحمر. كذلك انطلقت المدمرات بسرعة إلى مواقعها داخل وخارج مضيق باب المندب في أقصى جنوب البحر الأحمر. كما قامت وحدات التلغيم ببث حمولتها في مياه المدخل الجنوبي للخليج، ونقلت قوات الصاعقة في صمت قواربها وأسلحتها عند بورسعيد، وفي مراسي الساحل الغربي لخليج السويس، وكانت المركبات والزوارق في حركة دائمة تحمل الصواريخ والألغام إلى مواقع سرية على ضفاف المسرحين، كذا ناقلات البترول تقترب من مناطق عمليات مجموعة قتال باب المندب لإمدادها بالوقود.

في نفس توقيت الضربة الجوية بواسطة 220 طائرة والتمهيد النيران للهجوم بواسطة 2000 مدفع سعت 1405، دخلت زوارق الصواريخ والمدفعية الساحلية المصرية في معركة التمهيد النيران ضد العدو شرق بورفؤاد، وتجاه رأس مسلة وعيون موسى عبر خليج السويس، وفي الساعة الثالثة والنصف أعلنت وزارة الخارجية عن مناطق العمليات الحربية في مسرحي البحر المتوسط والبحر الأحمر، وأصدرت أيضاً حكومة اليمن الجنوبية إعلاناً مشابهاً يشمل مياه منطقة باب المندب، وأصبحت العمليات البحرية المصرية ضد إسرائيل تغطي أكثر من نصف مليون كيلومتر مربع من مياه البحرين المتوسط والأحمر.

لقد تمكنت قواتنا البحرية باستخدام سلاحي المدمرات والغواصات علاوة على سلاح الألغام البحرية من تنفيذ مهمة التعرض لخطوط مواصلات إسرائيل البحرية في البحرين المتوسط والأحمر بكفاءة تامة، حيث أغرقت قواتنا البحرية ناقلتين للبترول لإسرائيل حمولة إحداهما 46 ألف طن، مما أدى إلى غلق خليج السويس أمام الملاحة الإسرائيلية تماماً، وبعدها لم تدخل أو تخرج أي سفينة من ميناء إيلات، وكانت إسرائيل تمتلك آنذاك 24 ناقلة بترول تشترك في نقل 18 مليون برميل من إيران إلى ميناء إيلات،

وغرق معها لنش إنقاذ حاول مساعدتها، كما تمكنت كمائن الألغام بالمنطقة من إصابة ناقلة أخرى حمولتها 2000 طن. وبعد إطلاق الغواصة المصرية وسط البحر الأحمر طوربيداتها على ناقلة بترول إسرائيلية تقوقت الملاحه تمامًا إلى ميناء إيلات. وفي البحر المتوسط انخفضت حركة الملاحة من وإلى إسرائيل بشكل حاد، مما أثر على احتياجاتها الملحة لاستعواض خسائرها من الطائرات والدبابات والأسلحة والذخائر عن طريق البحر، وتبين الإحصاءات أنه نتيجة استخدامات مجموعات القتال في البحر المتوسط انخفض معدل دخول السفن التجارية إلى موانئها على هذا البحر من 200 سفينة شهرياً إلى 23 سفينة فقط خلال الفترة من 6 أكتوبر إلى يوم 30 أكتوبر، أي بواقع 12% فقط من حجم النقل البحري لإسرائيل.

وقامت مجموعات القتال في البحر المتوسط بتنفيذ مهمة تدمير وحدات إسرائيل البحرية، كما استخدمت المدفعية والصواريخ الساحلية بالتعاون مع زوارق الصواريخ بمدخل خليج السويس. كذلك قصف الموانئ والمراسي الإسرائيلية بالصواريخ، وذلك بأسلوب متطور اتسم بخفة الحركة وسرعة المناورة مع توفير قوة نيران عالية، وذلك على جبهة عريضة شملت رأس بيروت وشرق بورفؤاد ورمانة ورأس سدر وشرم الشيخ ورأس محمد وعيون موسى ورأس مسلة، مما أحدث خسائر جسيمة في المعدات والأفراد، وتعرضت وحداتنا البحرية لتدخل البحرية والطيران الإسرائيلي في أثناء عودتنا بعد تنفيذها مهامها. وقد شاركت في هذه العمليات 52 قطعة بحرية متنوعة.

في مجال تأمين النطاق التعبوي لمسرحي العمليات في البحرين الأحمر والمتوسط، وتنظيم الدفاع عن قواعدنا البحرية ونقاط التمرکز، فقد كان لكثافة إجراءات التأمين أثرها الفعال في إحباط محاولات إسرائيل استخدام غواصاتها في مواجهة وحداتنا البحرية، أو تنفيذ عمليات خاصة، مما جعل العمل بميناء الإسكندرية الرئيسي في الدولة يجري بطريقة طبيعية ليل نهار طوال فترة العمليات. كما فشلت محاولات البحرية الإسرائيلية للتسلل بالضفادع البشرية والكوماندوز البحرية في بورسعيد والسويس والغردقة، حيث قوبلت بدفاعات يقظة من جانب قواتنا بالقواعد البحرية، نفس الأمر بالنسبة إلى ميناء سفاجا الرئيسي على البحر الأحمر، وبذلك تم تأمين وصول الإمدادات المختلفة إلى مصر، وعدم إتاحة الفرصة لقيام البحرية الإسرائيلية بأي عمليات ضد خطوط مواصلاتنا البحرية.

لقد قامت القوات الخاصة البحرية بتنفيذ عمليات إغارة ناجحة ضد الدفاعات الساحلية الإسرائيلية في رأس سدر، وأبو درية، ورأس بيتان بخليج السويس، فضلاً عن غارات على حقول البترول التي كانت إسرائيل تستغلها في بلاعيم، وإغراق ناقلة بترول تعمل لصالح إسرائيل لحمولتها 2000 طن بميناء الطور.

«أسد البحار»

هو الفريق أول فؤاد ذكرى، الذي تولى رئاسة شعبة العمليات البحرية عام 1963، ثم بعد حرب يونيو 1967 أصبح قائداً للقوات البحرية، هذه القوات التي سطرت ملحمة لا أروع منها، حين تصدت للمدمرة إيلات، ثم الهجوم على ميناء إيلات في عام 1969، ثم الهجوم الثاني على الميناء في فبراير عام 1970، والعملية الثالثة للهجوم على إيلات في مايو عام 1970. وفي حرب أكتوبر كان الفريق أول فؤاد ذكرى أول قائد مصري للبحرية يقود حرباً حقيقية ويتنصر فيها، فقد حاصرت قواته مضيق باب المندب مما منع الإمدادات القادمة لإسرائيل من ناحية الشرق تماماً، ووضع إسرائيل في حصار اقتصادي كبير، وهو واحد من 5 من قادة حرب أكتوبر صدر قانون بشأنهم، بأن تظل خدمتهم في الجيش المصري طوال حياتهم.

سبق أن قال (زئيف) الكاتب الإسرائيلي في كتابه -زلزال في أكتوبر-: (فور تلقي قاعدة إيلات بلاغاً من ربان نقالة تم اعتراضها عند باب المندب تم إخطار الحكومة المصغرة برئاسة جولدا مائير وصدرت الأوامر فوراً بوقف ملاحه السفن الإسرائيلية نهائياً في البحر الأحمر، وبذلك أغلق ميناء إيلات طوال فترة عمليات أكتوبر وحرمت إسرائيل من النقل البحري بنسبة 100 % في البحر الأحمر ليتم حرمانها من السلع والأسلحة والذخيرة والبترول وغير ذلك). وتم تضيق الخناق علي الملاحه الإسرائيلية في البحر المتوسط حيث تمركزت المدمرات المصرية في المنطقة ما بين مالطة والموانئ الليبية للتعرض للنقل البحري الإسرائيلي، وانتشرت الغواصات بين جزيرة قبرص علي الساحل الشمالي بسيناء لمهاجمة السفن المتجهة للموانئ الإسرائيلية، وأيضاً صدرت تعليمات إسرائيلية لسفنها بالجوء إلي موانئ أخرى في البحر المتوسط وعدم التوجه للموانئ الإسرائيلية لحين إشعار آخر، وبذلك انخفضت حركة النقل البحري للموانئ الإسرائيلية في هذا البحر إلي 20% من معدلها الطبيعي.

بعد حرب أكتوبر يعد البطل الفريق أول فؤاد ذكرى القائد الوحيد في تاريخ الجيوش في العالم الذي ترك قيادة قواته وابتعد عنها بعد أدائه لواجبه الوطني، وهو

أحد خمسة من كبار القادة المصريين في حرب أكتوبر 1973م الذين صدر في شأنهم قانون من مجلس الشعب بأن يظلوا في خدمة القوات المسلحة مدى الحياة. وبعد انتهاء معارك أكتوبر 1973م حرص البطل الفريق أول فؤاد ذكري على ترك موقعه لغيره وطلب هذا رسمياً عدة مرات إلى أن استجيب لطلبه، ولكن تم تعيينه مستشاراً للبحرية بدرجة وزير. وحصل الفريق أول فؤاد ذكري علي العديد من الأوسمة والنياشين تقديراً لكفاءته وإنجازاته العسكرية.

تم تكريم ”الفريق فؤاد أبو ذكري“ داخل مصر وخارجها، فهو حاصل على 27 ميدالية من ضمنها ميداليات من كمبوديا وفرنسا واليونان والمغرب وليبيا والمملكة العربية السعودية وسوريا ويوغوسلافيا، كما اشترك في جميع الحروب ضد إسرائيل في 1948، و1956، و1967، و1973، ورحل عام 1983 في لندن، حيث أخبره الطبيب الانجليزي بأن ”المرض الخبيث استطاع أن يتمكن منه وعندما خلت غرفته إلا من زوجته قالت له، إنك الآن وحدك في غرفتك.. تصرف براحتك ابك إذا كنت تشعر بحزن، لا تحبس دموعك.. فابتسم في شجاعة مذهلة وقال لماذا البكاء والدموع؟! إنني مؤمن وقد يستطيع الأطباء علاجي أو أموت.. لا فرق“.

عبد المنعم خليل:

"حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني"⁽¹⁾

هو من خاض جميع حروب مصر الحديثه بلا استثناء مقاتلاً حاملاً للسلاح وجندياً محارباً قبل أن يكون قائداً لأهم وأخطر المواقع في جميع المعارك والحروب التي خاضها فهو.. اللواء ا.ح/عبد المنعم خليل مواليد محافظة المنيا في صعيد مصر عام 1921. على مدار خدمته الطويلة في القوات المسلحة المصرية تولى القيادة من منصب قائد فصيلة عقب تخرجه من الكلية الحربية مروراً بقيادة وحدات أكبر وصولاً لقيادة الجيش الثاني الميداني مرتين في اخطر وأهم الفترات التي مرت على الجيش الثاني الميداني في تاريخه مرة في حرب الاستنزاف والمرة الأخرى في الجزء الثاني من حرب أكتوبر، ولمن لا يعرف قوام الجيش الميداني فهو لا يقل عن 40 ألف فرد كانوا في يوم تحت امرته وهم في نفس الوقت امانة في عنقه وتقع على عاتقه مسئوليتهم جميعاً.

الحرب العالمية الثانية

يبدأ ويحكي تفاصيل مشاركته في أولى معاركه كمقاتل في القوات المصرية المشاركة في الحرب العالمية الثانية في اعمال دفاعية من تأمين وحراسه قواعد عسكرية ومنشآت للحلفاء ثم مشاركته في حملة فلسطين 1948-1949 فيما عرف فيما بعد بحرب فلسطين من قيامه بإنشاء معسكر الاعداد بالرجال والتدريب في العريش والمشاركة في اعمال التأمين لمنشآت الحلفاء واعمال الحراسة العامة وتعزيز قناة السويس لحماية الملاحة بها كما شارك في توزيع القوات المصرية على الحدود الغربية لحراستها وللدفاع عن مرسى مطروح وكيف أن مصر تبعتها لمعاهدته 1936 ابدت استعداداً للتعاون التام مع بريطانيا عند نشوب الحرب في اوروبا 1939 وتوتر الموقف الدولي بأن اعلنت في 2 سبتمبر 1939 الاحكام العرفية في البلاد وفرضت الرقابة على المواصلات الخطية واللاسلكية وعلى الصحافة كما قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا. كما قطعت في 11 يونيو 1939 علاقاتها الدبلوماسية مع ايطاليا واتخذت اجراءات امن

(1)حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني.. عبد المنعم خليل، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.co>

واسعة النطاق لتأمين الدولة ضد أى أعمال تخريب قد تقوم بها العناصر الإيطالية المتطرفة خاصة وأن مصر كان بها جاليه إيطالية تقدر بنحو 60 ألف إيطالى حينذاك. كلها تفاصيل يحكيها اللواء خليل بدقة متناهية وبترتيب وعرض رائع يحسد عليه. ويينتقل شريط الذكريات لأول مواجهه فعليه بين العرب اليهود وبالنسبه اليه بين المسلمين واليهود . فلسطين -أرض الميعاد-، مسرى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو اسمها الذي نطلقه عليها. يروي هنا تفاصيل بداية الرحلة إليها من محطه القطار تفاصيل لحظات الفراق اما إلى لقاء مقرون بالنصر او وداع ثمناً لشهادة يرجونها جميعهم هم (الصاغ /محمد فؤاد الدجوي، اليوزباشى/محمد السيد عبد الرحمن، واليوزباشى /محمد حمدي عبيد، والملازمين الاوائل / أحمد سليمان وأحمد سالم ومحمود ممتاز محمد وابراهيم كامل وعبد الغني فرحات).. وغيرهم من الضباط وضباط الصف والجنود والمتطوعين كلهم ذهبوا لتبليبه نداء العروبه في حرب لم تكن في الحسبان وتم الزج بهم فيها لاغراض في نفوس مريضه، ولم يتم الاستعداد لها مع عدو لا يعرفون عنه سوى اسمه وصفاته التي خبرهم بها دينهم الذي يؤمنون به حق ايمانه، ذهبوا حاملين اسلحتهم في يد وارواحهم في الأخرى غير مبالين بأي شيء. يروي لحظت الوصول للعريش وكيف دخلت القوات المصريه لغزة في عربات لنقل الخضار لمتعهد محلى يدعى "بامية" هكذا هو اسمه، وكيف بدأت القوات العربيه الهجوم من جميع الاتجاهات وكيف بدأت القوات المصريه الهجوم وتستولي على مستعمره تلو الأخرى وكيف أنه كان منوطاً به نقل خرائط لمواقع القتال بلغت نحو 5000 خريطه وزن 3 طن ملئت لوري بحمولتها، نيط به تسليمها لمركز القيادة العامه للقوات المصريه بغزة برئاسة اللواء الموواوي الذي انتقل لمستعمره دير سنيد التي دخلتها قواتنا يوم 24 مايو 1948 بعد معركه عنيفه. وكيف أنه قابل الصاغ وقتها "صلاح سالم" والذي اخبره بوصول الخرائط وكيف رد عليه بحدته وعصبته المعروفه "مين قال إننا عاوزين خرائط" وكيف أنه وقتها بات مع الخرائط في اللوري المحمله بها للصباح حتى يجد من يتسلمها منه ويضعها في مخزن ربما تكون لا تزال به حتى الان. يروي معركه تلو الأخرى تخوضها مصر تاره وبالاشتراك مع المتطوعين تاره اخرى من مدينة لأخرى ومن تحرير مستعمره لأخرى.. من نصر إلى نصر حتى ايقاف القتال الأول في 11 يونيو 1948 وقرار مجلس الأمن وقتها، وزياره الملك فاروق لغزه

صباح يوم 6 يوليو 1948 وكيف أنه في اليوم التالي مباشره كعادتهم نقض اليهود اتفاق وقف اطلاق النار وفتحوا على القوات المصرية التي استأنفت القتال في يوم 8 يوليو 1948 وكيف تدهور الموقف فاسرائيل يظهر لها في بر وسماء المعركة اسلحه غريبة عن ميادين القتال في الشرق الاوسط وقتها وطبعًا حصلت عليها من الغرب وكيف أن تخطيط القيادة المصرية في قراراتها واوامرها ادى إلى بدء مسلسل هزائم، وتخلت القوات المصرية عن المدن المحرره، وكيف أن الدعم اللوجستي والاستراتيجي للقوات المحاربه انعدم تقريبًا واستبدل بما هو معروف لنا "صفقه الاسلحه الفاسده" وتفاصيل حصار الفالوجه واسباب كثيرة ادت في النهاية إلى هزيمة الجيش المصري في حرب فلسطين كما نعرفها وخساره مصر والعرب 15 الف شهيد وحوالي 30 الف جريح معظمهم من مشوهي الحرب والعاجزين عن القتال وبهذا خسرت مصر والعرب خيره شبابها وجنودها في حرب خسرتها بالتبعية.

هنا حلل خليل اسباب انتصار اسرائيل في هذه الجولة من الصراع العربي الاسرائيلي في عده نقاط وهي:

- قدرة اسرائيل الفائقة على التعبئة ولم تصل القوات العربيه إلى درجة مماثلة في التعبئة.
- تفكك العرب سياسيًا وعلى جبهة القتال ولم يحققوا مبدا تجميع القوى.
- لعب المخابرات الاسرائيلية دورًا هامًا في هذه الحرب التي كانت تعرف فيها الكثير من التفاصيل الدقيقة عن الجيوش العربيه من تسليح وقدره قتالية وقادة هذه الجيوش في الوقت الذي لم يكن يعرف فيه العرب شيئًا عن الجيش الاسرائيلي.

حرب 1956.. العدوان الثلاثي:

في هذا الجزء يتناول خليل ذكرياته مع قيام حركة يوليو وحرب 1956 وحرب اليمن والتي كان شاهداً علي الأحداث ومشاركاً فيها في مستويات قياده بارزة. تناول حركة يوليو ومشاركته في الأحداث عبر تأمين هوائيات بث الاذاعة المصرية في منطقة ابو زعبل رغم أنه لم يكن منتمياً إلى الضباط الأحرار، ولم يدعي يومًا الانتماء لهم في حين أن بعض الساسه والضباط ادعوا في مذكراتهم انتماءهم للضباط الأحرار رغبة في اطفاء هالة علي تاريخهم إلا أنه أثر ألا يدعي لنفسه دورًا ليس له وشاهد وشارك في

البناء الأول للجيش المصري على العقيدة السوفيتية، وتحول مصر إلى السلاح السوفيتي بدلاً من الأسلحة الانجليزية التي كانت في الجيش المصري.

ينتقل للجولة التالية من الصراع العربي الاسرائيلي وصراعه هو الشخصي مع اليهود وهو العدوان الثلاثي على مصر سنة 1956 حيث أنه في هذه الفترة كان رئيساً لقسم التكتيك بالكلية الحربية مصنع الرجال وهو مركز هام جداً في تشكيل ضابط المستقبل تكتيكاً وفكرياً. وكمشاهد على الاحداث ومشاركاً فيها يروي تلك الأحداث التاريخية التي مرت على مصر من بعد تأميم قناة السويس مما اعطي الدول الاستعمارية فرصة لكي تحاول ان تعود لمصر مرة اخرى.

يروى موجزاً لتلك الأحداث بعقليه مدرس التكتيك في الكليه الحربية، فيتناول توزيع القوات المصريه في ذلك الوقت: قوه الجيش المصري في الدلتا والقاهرة وهي عبارة عن فرقتين مشاة وفرقة مدرعة (الرابعة) ولهم مجهود جوي مخصص لهم، اما في سيناء فهناك قوات في مواقع دفاعية ثابتة في مثلث رفح والعريش وابو عجيلة وفي كل منها ما يقدر بلواء مشاه وتلك الألوية الثلاث تشكل الفرقة الثالثة مشاة والتي كان مقر قيادتها في العريش ضمن نطاق اللواء الرابع مشاه والذي شرف بالخدمة به حتي منصب رئيس اركان اللواء.

في غزة فهناك مجموعتين فلسطينيتين يشكلون لواء مشاه مدعم بضباط صف وقيادة مصرية، اما في شرم الشيخ فهناك حامية مخصصة لحماية المنطقة مكونة من كتيبة مشاة وكتيبة حرس وطني وبعض الأسلحة المعاونة الاخرى ومعها الفرقاطة رشيد. وفي تحليله للقتال في العدوان الثلاثي، يركز لعدد من الدروس المستفادة في تلك الحرب التي انتصرنا فيها سياسياً على مستوى العالم ولم ننهزم عسكرياً كما يتصور ويروج البعض.

حرب اليمن :

متجاوزاً سنوات له امضاها كمدرس في الكليه الحربية وقائداً لوحداث عسكريه بارزة فيبدأ حديثه بأن ثورة اليمن بدأت في 26 سبتمبر 1962، وطلب مجلس قياده الثورة هناك مساعدات عسكرية مصرية وبعد اربع ايام فقط بدأت مصر في الاستجابة لنداء العروبة في دعم ثورة تطيح بالملكية والتخلف في اليمن وتدفعه دفعاً إلى مستوى دولة كدول العالم المختلفه. فأرسل المشير عامر اللواء اركان حرب علي عبد الخبير ومعه عدد من ضباط الصاعقة والمظلات إلى اليمن لدراسة الموقف ومقابلة اعضاء مجلس قياده الثورة ومعرفه نوع وحجم الدعم المطلوب لهم.

بعد دراسة الموقف ايقن اللواء عبد الخبير أن الموقف يحتاج إلى دعم من قوات مصرية إلى اليمن وبدأ يُكون قياده صغيرة لتعاونه في تنفيذ مهمته واختار اللواء سعدي نجيب رئيسًا لأركانته واختارني (العقيد عبد المنعم خليل) رئيسًا لعمليات القوات والعقيد نوال سعيد مديرًا للامداد والتموين والعقيد محمد تمام مديرًا للتنظيم والادارة، وسافرنا إلى اليمن في 18 أكتوبر 1962 بعد اقل من شهر من قيام الثورة فعليًا. وكان مقر القيادة عبارة عن منزل ريفي متواضع في صنعاء قرب مبنى قياده الثورة برئاسة المشير السلال، والذي كان يزورنا يوميًا (وفي بعض الأوقات عدة مرات في اليوم الواحد) حاملاً رشاشه الشخصي من نوع تومي ومعه حرسه الخاص وكان طلبه اليومي لنا قصف قبائل محددة بالطيران لانها لم تتجمهر (أي لم تعلن ولائها للثورة والجمهوريه بعد) وبدأت تصل قوات الصاعقة والمظلات وهي القوه المناسبة للعمل في المناطق الجبلية في اليمن، فتم على سبيل المثال ارسال كتيبة صاعقة إلي صرواح والكتيبة 77 مظلات إلى عمران وكتيبة صاعقة إلى صنعاء وطلب السلال ارسال قوات إلى مأرب عاصمة مملكة سبأ السابقة، وتم اسقاط سريه صاعقة إلى مأرب لكنها تعرضت للشرود نظراً لعدم وجود خرائط واضحة ومحددة لنقاط الاسقاط، وبذلنا مجهوداً كبيراً لجمع تلك السريه مرة أخرى.

في 28 أكتوبر حضر المشير عامر لتفقد الأوضاع، ولمعرفة احتياجات القيادة من قوات، حيث بدأت طلبات الثورة اليمنية في الزيادة وتطلب ذلك وجود قوات اكثر، وبعد هذا المؤتمر تعين الفريق انور القاضي قائداً للقوات المصرية في اليمن، وبدأت القوة المصرية تتحول من مجرد قوات مظلات وصاعقة إلى قوات مشاة وقوات مدرعة وتواجدت بعض الأسراب القاذفة من القوات المصرية بعد ذلك.

هكذا تورطت مصر في حرب اليمن وتحولت السرايا إلى كتائب ثم إلى لواءات وتطلب ذلك جسراً جويًا وبحريًا هائلًا لنقل الجنود والمعدات والذهب. حيث كانت القبائل تعلن ولائها للثورة والجمهوريه بطريقتين اما بالقوة او بالذهب وكانت قبائل كثيرة تقبل الذهب وتعلن ولائها للثورة وبعد عدة ايام تنقلب إلي الملكيه مرة اخري وتقطع خطوط امداد قواتنا وبالطبع الذهب لم يعد مرة اخرى. وللتدليل على حجم القوة المصرية التي وصلت اليمن خلال اواخر عام 62 إلى

عام 63 فقط نعطي بعض الأرقام. وصل إلى اليمن 130 ألف بندقية (تسليح 130 ألف جندي) 5 الاف مدفع رشاش متنوع 130 مدفع مضاد للدبابات 90 مدفع هاون خفيف 16 مدفع مضاد للطائرات (رغم أن القوة المعادية لا تملك أكثر من بنادق عتيقة) 20 مليون طلقة (مختلف الأعيرة) 8600 لغم مضاد للدبابات (!!!) وتطلب ظروف القتال الصعبة في اراضي قاسية إلى وجود طائرات اليوشن وطائرات هليكوبتر مي 4 ومي 6 والتي يمكنها نقل العربات والمعدات إلى المناطق الوعرة وكما ذكرت سابقاً فقد تطلب الموقف دعم جوي من قواتنا الجوية مما تطلب انشاء قيادة جوية لتنسيق الهجمات الجوية والنقل الجوي وعمليات الابرار.

جاءت الحاجة إلى الطائرات القاذفه من طراز تي يو 16، ووافق المشير على تخصيص عدد من الطائرات التي تقوم بالاقلاع من مصر وضرب مناطق محدده لها في اليمن والعودة إلى مصر مرة أخرى في رحلة طويلة ومرهقة. وكان يقود سرب القاذفات العقيد محمد حسني مبارك، واصطلحت القيادة لفظ مبارك ككلمة سر كوديه لتلك الطائرات وكثيراً ما اوصلت برقيات إلى المشير رأساً من القيادة في صنعاء اطلب {مبارك} وكنا نسعد برؤيته في الجو ولا نراه على الأرض ولم نكن نعرفه شخصياً.

أذكر أول طلعة لمبارك كانت يوم 7 ديسمبر 1963 ثم تكررت بعد ذلك حسب الطلب وشاء الله سبحانه وتعالى أن التقى بالرجل "العقيد طيار وقتها/ محمد حسني مبارك" بعد ثماني سنوات في اثناء اجتماع الرئيس السادات بالقاده والضباط يوم 12 مايو 1972 وعلى الغداء بالكلية الجوية في بلبيس وتتابع اللقاءات بعد ذلك سواء في اجتماعات المجلس الاعلى للقوات المسلحة ولجان الضباط حيث كان ترتيب جلوسي في المجلس بجواره دائماً وكذا اللقاءات في جولاقي على القيادات والقوات ووحدات القوات المسلحة المصرية بصفتي رئيساً لهيئة تدريب القوات المسلحة.

خيانة الحلفاء

كان المشرحة ينقصها القتلى قامت بعض القبائل التي اعلنت ولائها للثورة بالتمرد والخيانة ومهاجمة القوات المصرية واليمنية ومنها تمرد قبيلة ارحب: ففي اوائل رمضان تمردت قبيلة ارحب وقامت قوة مصرية مكونة من 3 دبابت ومعها فصائل مشاة ورشاشات بالتقدم تجاه بيت مران في ارحب بقيادة الرائد إبراهيم العرابي (لاحقاً قائد الفرقة 21 المدرعة في حرب اكتوبر ورئيس اركان حرب القوات

المسلحة في عهد المشير ابو عزالة) لفك حصار القوات اليمنية والتي كان يقودها النقيب حمود بيدر من اعضاء مجلس قيادة الثورة اليمني وتم تخليص القوة اليمنية والسيطرة على المنطقة بعد قتال مرير..

تمرد قبيله جيجانه

يكمل خليل وفي الأيام الأولى من رمضان وكنت اشغل منصب رئيس عمليات القوات العربية باليمن- عندما كان موقف القبائل مظلماً ومحيراً وإذا بالمشير عامر يطلبني ويقول لي "قبائل جيجانه قلبت وقطعت طريق الامداد الرئيسي لقوات واحنا بنستبشر بيك يا منعم وعليك فتح الطريق واختار ما تشاء من قوات والعقيد طيار ايوب ومعك لمعاونتك في استطلاع المنطقه "فزلت وركبت مع العقيد طيار أيوب طائرته الصغيرة ذات المقعدين وطاف بي فوق المنطقة وتمكنت من استطلاع بعض الدروب والوديان التى تلتف حول الموقع المحتمل أن يكون العدو قد احتلها وقطع منها الطريق. وبالفعل كونت قوة من 3 دبابات ت54 من القيادة المصرية وعربة مدرعة تسمى روسية الصنع وفصيلة مشاة وبعض الرشاشات من التقدم مع الفجر على طريق صنعاء جيجانه وتم نصب الأكملة لحماية القول المصري وتم التقدم واقتحام القرية ثم بعد تأمين القرية والسيطرة عليها بدأنا عملية فتح وتأمين طريق رايده بناء على تعليمات المشير عامر ايضاً الذى قال لي أن القول الاداري المتجه إلى الشمال تعرض لكمين وبعد ارسال قوة نجدة بقيادة المقدم الهجان والتي استطاعت التقدم والعبور والوصول إلى رايده إلا أن الطريق لازال تحت سيطره المتمردين وامرني بأن اتوجه إلى هناك وأن اعزل قائد الكتيبة وأن اتولى القيادة ومعني ما اشاء من اسلحه وقوات، إلا أنني وافقت بعد أن اقنعت به بعدم عزل قائد الكتيبة لأنه قائد كفأ وأنا اعرفه جيداً وأنه سيكون تحت اشرافي في تنفيذ المهمة. غير أنه اجدر مني على قيادة وحدته قمت بعدها بالاستطلاع الجوي للمنطقة المطلوب التحرك إليها مع العقيد طيار ايوب وكذا المناطق المجاورة وتمكنت من رؤيه العربات المعطلة والمدمرة وكذا قول اخر كبيراً معطلاً ايضاً في منطقة مجاورة.

من المواقف التي لا تنسى ففي يوم 22 فبراير 1963 وفي رمضان ايضاً جائني شخص يحمل بنديه اليه على كتفه وحياني تحيه الاسلام وعرفني بنفسه إنه الرائد حمود من الجيش اليمني عندما كنت متوجها لتولي قياده القوه التي جمعتها

للتحرك إلى منطقته المعمر لاتخاذها كقاعدة، قائلاً لي أنه على علم تام بهذه المنطقة وعرض علي المساعدة في الاستطلاع والقتال والحقيقه أننى شككت فيه هل هو عدو أم صديق؟ الله وحده يعلم وهو بالطبع لم يكن معه ما يثبت او يدل على شخصيته ولكنني قابلته بمودة وثقة وقلت في نفسي ربما تكون العناية الالهية قد ارسلته لي في الشهر المبارك.

الجولة المصرية الاسرائيلية الثالثة يونيو 1967

هنا ينتقل خليل من حرب اليمن إلى سنوات النكسة فيتكلم واصفاً الأجواء قبل واثناء هذه النكسة. بعد عدوان سنه 1956 وضعت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية الخطة الدفاعية "قاهر" للدفاع عن سيناء والحدود الشرقيه لمصر وبدأت القوات المسلحة التدريب على مهامها في هذه الخطة مع التجهيز والاعداد لتنفيذها وبنيت الخطة على اساس منع العدو من الاختراق والوصول إلى قناه السويس وتدمير قوة العدو التي تنجح في الاختراق توطئة للقيام بالهجوم المضاد وبدأ عام 1967 بخطة جديده للتفتيش على وحدات القوات المسلحة المقاتلة والادارية.

لقد قامت هيئة تفتيش القوات المسلحة بتنفيذ الخطة وكان يراس كل مجموعه تفتيش احد الفرقاء اول وكان يقدم تقريره رأساً إلى المشير عامر، وكانت توزع الملاحظات على الافرع الرئيسية للقوات المسلحة والهيئات والادارات للاصلاح والامداد وحل المشاكل والحقيقه كانت هناك بادره اصلاح وكنت في هذا الوقت قائداً لقوات المظلات المصرية وقد عادت معي معظم وحداتي من اليمن وشعرت فعلاً باهتمام القيادة العامة باستكمال النقص واعداد قوات المظلات ورفع كفاءتها القتالية. ونشطت ادارة الشؤون المعنوية للقوات المسلحة في الاعداد المعنوي للقوات وكانت كثرة النشرات والمجلات التى تصدرها مثار تكهنات الضباط وللأسف ركزت هيئة تفتيش القوات المسلحة في مرور مندوبيها على الوحدات على اهمية هذه الكتب والنشرات واللوحات والشعارات وعلى جميع حجرات التوجيه المعنوي وخصصت لها اكبر الدرجات في بند الاعداد المعنوي للقوات مما دعا القادة على جميع المستويات إلى تركيز اهتمامهم على عمل ديكورات وزينات في صالات التوجيه المعنوي وكانت كمعارض او حفل عرس ولا تفتح إلا في اثناء التفتيش والزيارات الرسمية للقادة الكبار وكانت الوحدات تتسابق فيما بينها كمباريات مسابقات كاس العالم في كرة القدم وكانت مضرب

الامثال وتعليقات الضباط والجنود وكان القادة يمولون هذه المعارض من اموال كنايتين الوحدات كبند رئيسي للمصروفات حتى تظهر بالمظهر اللائق للوحدة وينال القائد بها ثقة رؤسائه والحقيقة أن المعنويات كانت مرتفعة في الوحدات العائدة حديثاً من اليمن لسبب اخر ألا وهو الاجازات والريالات اليمنية والتي كانت تطبع على اوراقاً مالية في اخر ايامها.

في يوم 14 مايو 1967 اعلنت حالة الطوارئ في القوات المسلحة ورفعت درجه الاستعداد إلى الحالة القصوى وبدأت هيئة التنظيم والادارة في استدعاء الاحتياط وعقدت مؤتمرات لاستكمال النقص في الافراد والمعدات والتسليح والذخائر في كل وحدات القوات المسلحة وصدرت الأوامر بتنفيذ تعليمات الدفاع الجوي السليبي والايجابي بالانتشار والوقاية للوحدات والمعدات والعربات وبدأت عملية اعداد القوات المسلحة لشئ ما وفي مساء يوم 19 مايو 1967 استدعيت بصفتي قائداً لقوات المظلات إلى القيادة العامة للقوات المسلحة وقابلت الفريق انور القاضي رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة واللواء بهى الدين نوفل نائبه حيث كلفت بناء على تعليمات المشير عامر بمهمه لم تكن في الحسبان ولم تكن في الخطة العامة للقوات المسلحة سواء الخطة الدفاعية او الهجومية بالنسبة لقوات المظلات وكانت المهمة تامين منطقه شرم الشيخ بغرض حرمان العدو من الاستيلاء عليها على أن تكون القوات في مواقعها قبل أول ضوء من يوم 20 مايو 1967 وقابلت الفريق أول محمد فوزى رئيس هيئة اركان حرب القوات المسلحة لتأكيد المهمه وطلب منى المرور على الفريق أول صدقى محمود قائد لقوات الجويه والدفاع الجوي لتنسيق خطه التحرك الجوي إلى منطقه شرم الشيخ هذه الليله. قبل غروب شمس يوم 28 مايو 1967 هبطت طائرة في مطار شرم الشيخ وعليها كتيبة صاعقة بحرية بقيادة المقدم هلودة الذي اخبرني أنه كان في مهمة إلى مطار الغردقه إلا أن الاوامر تغيرت في الجو بأن يهبط في مطار شرم الشيخ وكانت مشكله ايواء هذه الوحدات واعاشتها من المشاكل الكثيرة التي واجهتني كقائد منطقة منفصلة وظهرت اثارها الخطيره لاحقاً. وكانت منطقه شرم الشيخ ميداناً لزيارة كبار رجال القوات المسلحة لفترات قصيرة للتعرف على مطالبى وتحقيقها بناء على اوامر المشير عامر شخصياً ولقد تغيرت خططي يوماً بعد يوم بل أكثر من مرة في اليوم الواحد. في يوم 22 مايو 1967 وصلتني برقية من المشير عامر تفيد بأن انتظر منه رسالة

هامة سيرسلها مع العميد بحرى اح محمود عبد الرحمن فهمي مدير مكتب المشير للشئون البحرية الذي وصل إلى مطار شرم الشيخ بطائرة خاصة وسلمني تعليمات المشير عامر تفيد بمسئوليتي الشخصية في قفل خليج العقبة ضد مرور السفن حتى ولو كانت في حراسة سفن مقاتلة وشرح في رسالته اسلوب الإنذار أولاً ثم اسلوب المنع الفعلي في ما بعد التحذير والإنذار ولقد استدعى هذا الامر اجراء تعديلات حتمية في بعض الخطط لأن هذا معناه الحرب واحتمال الاشتباك الفعلي مع القوات المعادية برًا وبحرًا وجوًا وقد قمت باجراء التعديلات الضرورية لل خطة وتم تنظيم التعاون بين قواتي والقوات البحرية ومجموعة التعاون الجوي وفي اليوم التالي مباشرة فوجئت بعودة العميد محمود مرة أخرى حاملاً تعديلاً اخر معناه باختصار "لا تقفل" ففى اقل من 24 ساعة تصدر الأوامر اقفل.. لا تقفل نصت التعليمات الجديدة على أنه لا اعتراض على مرور السفن الإسرائيلية إذا كانت في حراسة سفن مقاتلة اسرائيلية مقاتلة أو اجنبية ولا اشتباك مع السفينة المحروسة او السفينة الحربية الحارسة لها حتى ولو كانت السفن المحروسة ترفع العلم الاسرائيلي.

الاثنين 5 يونيو 1967

مرت الساعات الأولى من صباح 5 يونيو 1967 دون أن ندري ونحن في مواقعنا في شرم الشيخ عن احداث هذا الصباح الخطير شيئاً وجاءت اشاعات ربما تكون قد سمعت من الاذاعات بأن اسرائيل قامت بضربة جوية مركزة بقواتها الجوية على جميع مطاراتنا في الدلتا وما حولها ودمرت كل طائراتنا ومطاراتنا بها، وكان موقفنا في منطقة مسؤوليتي في قطاع شرم الشيخ عادياً ولم تظهر أي طائرات معادية او صديقة في الجو وعلمنا أن مطار الغردقة دمر أيضاً ولهذا لم تصل الطائرة الهليكوبتر المخصصة لأعمال قائد المنطقه للاستطلاع والتحركات الداخلية وكان موقف معنويات رجالي عادياً وكانت الأمور تسير بطريقة هادئة ولكن الاذاعات المختلفة بدأت تحمل الينا اسوأ الأخبار وحاولت أن اخفى ما بداخلي من حزن والى ومرارة عن رجالي حتى لا يشعر رجالي بشيء غير عادي، واقول لنفسي هل تستطيع اسرائيل هدم هذا البناء الضخم من مطارات وطائرات واسلحة ومعدات ثم معنويات بهذه القدرة والسرعة؟!.

بعد ظهر يوم 5 يونيو 1967 وصلتني برقية من المشير عامر يقول فيها "إن موقف الطيران سيء" واشاع هذا النبا الرسمي الأول كل الياس في نفوسنا جميعاً

وبالطبع لا يمكن اخفاء هذه الانباء عن الرجال، وكان كل تفكيري بعد هذا ينحصر في اهمية الدفاع الجوي السلبي أى الانتشار والوقاية في مناطق تحقق ذلك لحماية رجالي ومعداتي واسلحتي وبدأت امر على وحداتي طوال يوم 5 يونيو اوصيهم جميعاً بالاستعداد للقتال في اى لحظة مع الاخفاء والوقاية واصدرت اوامري إلى كل الأفراد والوحدات الواقعة تحت قيادتي بأن يكون لديها اكتفاء ذاتي لثلاثة أيام على الأقل من كل المهمات الضرورية من أكل ومياه واسلحة وذخيرة للأفراد وزيوت ووقود وشحوم للمعدات.

كانت ليلة 6/5 يونيو 1967 ليلة رهيبة في تاريخ حياتي قضيتها في مركز قيادتي المتقدم في جبل عايده لأكون على راس قواتي الضاربة والاحتياطية وكان القلق والخوف هو المسيطر علي. ويتطور الموقف بسرعة عجيبة ولا ندري حقيقة ما يحدث او ما سيحدث لمصر الغالية عامة وللقوات المسلحة خاصة ومع الساعات الاولى من صباح 6 يونيو 1967 جاءت اخبار من الاذاعات تفيد أن الدول العربية بدأت تعلن الحرب على اسرائيل وكان كل همي حمايه قواتي وتأمين رجالي والاطمئنان على درجة استعدادهم وعلى الاكتفاء الاداري للفرد والمعدة والعربة والسلاح.

قبل غروب يوم 6 يونيو 1967م وصلتني برقية من القاهرة تحمل توقيع مسعد الجندي ضابط الشفرة بالقيادة العامة تفيد بالاستعداد لتلقي برقية هامة من المشير عامر وبعد حوالى 20 دقيقة طويلة مملة وصلت برقيه المشير عامر تقول "الرجوع الليلة بقواتك إلى غرب القناة على مرحلتين وليلتين المرحلة الأولى إلى الطور والمرحلة الثانية إلى غرب قناه السويس" ومطلوب برقية مني توضح قراري للعودة إلى غرب القناة وكانت الساعه قد تعدت السادسة بقليل واقترب موعد الغروب فأصدرت أوامري الشفهية للقادة بالاستعداد للتحرك إلى غرب القناة الليلة بأقل حمولة ممكنة مع التأكد من الاكتفاء الذاتي للقتال وللمعيشة لثلاثة أيام على الأقل وتدمير كل المعدات التي لا نستطيع سحبها معنا او دفنها في الجبال وعدت إلى مركز القيادة الرئيسي في شرم الشيخ ومعني رئيس عملياتي المقدم محمود عبد الله.

وصلنا إلى الطور فجر يوم 7 يونيو 1967 وهناك على الطريق قابلنا الرائد الشهاوي من قوات المظلات والذي رسمت له خطة التحرك والايواء في الطور يوم 7 يونيو على نصف فرخ فلوسكاب او اقل ليهدي الوحدات إلى اماكنها في الانتشار

بالطور ونجح في ذلك. ولما وجدت أن وحدات كثيرة قد وصلت الطور والنهار لم يبدأ بعد، أصدرت أوامري لبعض الوحدات بالاستمرار في التحرك إلى غرب القناة رأسًا واتباع الانتشار قبل الظهر حتى المساء في منطقته أبو زينة أو أى مناطق يجدها القائد مناسبة لتحقيق الوقاية نهارًا وسعدت بصلاته الفجر في مسجد الطور مع زملائي وكانت المياه متوفرة ولكن المنازل كلها مهجورة ومع أول ضوء يوم 7 يونيو 1967 مررت على الوحدات المنتشرة في الطور لتأكيد تفهم المهام وتنظيم الدفاع عن منطقته التجمع الجديدة واتباع الانتشار وإعادة الملئ وسحب ما نحتاج إليه من مواد اعاشة من تكديسات الشئون الادارية بالطور ويؤسفني أن أقول أنه لم يكن هناك أحد من المسؤولين في الطور لا رئيس المدينة ولا أحدًا من الأهالي وحاولت الاتصال بالقاهرة من تليفون رئاسة المدينة ولم يكن يعمل وحتى قائد القاعدة الادارية لم أجده ولم أجد بالطبع لا ضابطًا ولا جنودًا ووجدت التكدسات الهائلة في القاعدة الادارية كما هي ولم يتخذ أى اجراء بالتخلص منها بالحرق او النسف.

وصلت إلى السويس حوالي السادسة صباح يوم 8 يونيو 1967 واتصلت بالمشير من الترنك المدني وكانت اوامره لي عجيبة جدًا ومحيرة فقد طلب مني تولي قيادة اللواء المدرع المفروض وجوده في منطقته الشط شرق المعبر بدلاً من قائده وأكد علي أن اعزله من القيادة واقود هذا اللواء في اتجاه ممر متلا فورًا للقضاء على قوات المظلات الاسرائيلية التي يقال أنها اسقطت او هبطت هناك لقفل الممر وايقاف انسحاب قواتنا!!!.

سنوات الاحماء للمعركة الفاصلة "حرب الاستنزاف 1967-1970م"

يتحدث خليل عن حرب الاستنزاف ويقول: بعد 10 يونيو 1967 وبعد قبول الرئيس عبد الناصر تولي المسؤولية مرة أخرى كانت أولى قراراته هي تعيين الفريق أول محمد فوزى قائدًا عامًا للقوات المسلحة المصرية وبدا القائد الجديد في تنفيذ تعليمات وتوجيهات القائد الاعلى والتي تشمل الأتي:

- سرعة بناء خطوات الصمود العسكري امام العدو ومنعه من استغلال نجاحه عسكريًا.
- العمل على سرعة تماسك القوات المسلحة مع الشعب والحكومة.
- عدم قبول الهزيمة العسكرية والعمل في الاتجاه السلمي والدبلوماسي الذي

يسعى إلى انسحاب اسرائيلي من الاراضي العربية التي احتلتها في يونيو 1967.

- التعاون والارتباط الوثيق بالدول العربية جميعاً.
 - توطيد الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي ومحاولة اشراكه في اعادة بناء القوات المسلحة.
 - الواجب العسكري للقوات المسلحة هو استرداد الأرض بالقوة وتحرير الأرض وهذا يتطلب اعادة مقدراتها الدفاعية بالتدريب لتنفيذ هذا الواجب.
- بالفعل ابتداءً من يوم 9 يونيو 1967 بدا الاتحاد السوفيتي بامداد مصر بالاسلحة والمعدات وفي يوم 16 يونيو 1967 وصل وفد عسكري سوفيتي بقيادة الجنرال لاشينكوف للمساعدة في استقبال المعدات والاسلحة من الموانئ البحرية والجوية وتوزيعها على وحداتنا التي بدأت عملية اعادة التجمع والتنظيم وانشاء خط الدفاع الأول غرب قناة السويس وكان هذا الوفد بداية لوصول عدد أكبر من الخبراء السوفييت الذي تحول اسمهم بعد ذلك ليكونوا مستشارين عسكريين.

معركة رأس العش

بعد ثلاثة اسابيع فقط من قرار وقف اطلاق النار الذي فرضته الأمم المتحدة بعد حرب الأيام الستة اندلع القتال بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية للسيطرة على مدينة بورفؤاد والمنطقة المحيطة بها على الضفة الشرقية لقناة السويس. في أول يوليو 1967 ارسل اللواء ا.ح/أحمد اسماعيل قائد الجيش عناصر من الصاعقة والمهندسين إلى الضفة الشرقية عند منطقة رأس العش حوالى 12 كم جنوب بورفؤاد لزراعة الألغام والحيلولة دون تقدم أى قوات اسرائيلية شمالاً وقد وقعت القوة الاسرائيلية في حقل الألغام وانفجرت معظم دبابتها فحدثت خسائر كبيرة في الأرواح الاسرائيلية نتيجة انفجارات الألغام وشدة نيران قوة الصاعقة وقصفات مدفعية قطاع بورسعيد ومدفعية بعض القطع البحرية المصرية المتمركزة بالميناء وتعتبر هذه أول معركة حربية بعد يونيو 1967 بين القوات المصرية والقوات الاسرائيلية.

قبل نهايه عام 1968م بدأت القوات المصرية تنتقل إلى مرحلة الدفاع الإيجابي النشط واستنزاف قوة العدو ومعداته لاعادة الثقة بالنفس ورفع الكفاءة القتالية لقواتنا وبسبب هذا واشتداد حرب الاستنزاف اضطرت اسرائيل لتطوير عقيدة عسكرية

اسرائيلية جديدة مناسبة للتعامل مع هذا الموقف قادها الجنرال حاييم بارليف رئيس الاركان الاسرائيلي بزيادة حجم قواته في سيناء وزيادة التحصينات الدفاعية.

بدا عام 1969 بتطوير التجهيزات الهندسية باستخدام المعدات الميكانيكية وتمكنا من انشاء مواقع تبادلية وهيكلية للأسلحة والمعدات ولبعض المواقع الهامة والقيادات واعطى وزير الحربية لقادة الجيوش سلطات تكسر الروتين في سبيل امن القوات والمعدات والأسلحة وقال: لن اعترض على اى اجراء يتم من قائد الجيش شخصياً يعود على الوزير بتكاليف ولكن هدفها وقاية. وقتها كنت قد توليت قيادة الجيش الثاني الميداني على طول خط المواجهة الشمالي من بورسعيد شمالاً حتى حدود فايد جنوباً وهي النقطة التي يتسلم فيها منا الرايي الجيش الثالث الميداني.

استمراراً لمسلسل استنزاف قدرات العدو وقواته وفي نفس الوقت تحطيماً لروح المعنوية قمت بالتحضير والتنسيق والتنفيذ لعمليات استنزافية ضمن الخطة العامة للقوات المسلحة لهذا الغرض ومن هذه العمليات: عمليه دان افيدان: فقد نجحت قوات الجيش الثاني الميداني في اواخر عام 1969 في الحصول على اول اسير ضابط اسرائيلي في قطاع جنوب الاسماعيليه واسمه "دان افيدان" حيث تمكن خمسه افراد من اللواء 117 التابع للفرقه الثانية مشاة من اسره وحمله سباحة إلى الضفة الشرقية للقناة رغم ثقل وزنه وطول شعر ذقنه ويومها قال انا ضابط كنتين ولست مقاتلاً وماليش دعوه وتم حمله بمعرفة افراد الدورية على نقالة مبتكرة من البطاطين وعبروا به القناة سباحة إلى الضفة الغربية وتم عمل الاسعافات اللازمة له في السرية الطبية للواء 117 حيث كان قد اصاب في فخذه من انفجار اللغم بسيارته الجيب وكان لهذا الحادث اثر كبير في قوات الجيش الثاني خاصة والقوات المسلحة عامة

عملية أول مايو 1970

قام الجيش الثاني الميداني تحت قيادتي بدفع كتيبة صاعقة إلى الضفة الشرقية للقناة في منطقة كم 18 جنوب بورسعيد وهاجمت موقعاً حصيناً للعدو واتخذته قاعدة للكمان والاغارات لمدة 24 ساعة ونجحت في اسر 2 من افراد العدو الجرحى مات احدهما قبل العبور والاخر مات بعد العبور غرباً، وتم تسليم جثته للصليب الأحمر الدولي حسب التقاليد العسكرية وكم كنا نتمنى أن يبقيا احياء لتكون هدية عيد العمال هذا العام ذات معنى.

ال الجولة الأخيرة والحاسمة 1973

مرت فترة الثلاث سنوات منذ وقف اطلاق النار 8 اغسطس 1970 ثم وفاة الرئيس عبد الناصر ثم تولى الرئيس السادات سدة الحكم بفكر واستراتيجية وتوجه مختلف وإن كان الهدف واحداً حتى معركة العبور اكتوبر 1973 بمراحل شتى فتارة تصعيد للموقف السياسي واخرى تهدئة للهجة السياسية وتارات حالات جمود في الموقف فيما وصفه الرئيس السادات بحالة اللاسلم واللاحرب إلا أن القاسم المشترك بين كل هذا أن كل ما تم كان جزءاً من خطه خداع استراتيجية شديدة الدهاء وضعها ونفذها بحرفية شديدة الرئيس الشهيد محمد انور السادات.

كان اللواء خليل وقتها قد ترك قيادة الجيش الثاني إلى رئاسة هيئة تدريب القوات المسلحة ومنها إلى قيادة المنطقة المركزية العسكرية ضمن حركة تنقلات في ارجاء قيادات القوات المسلحة كاه تمت بتوجيهات الرئيس السادات عام 1972، وبرز هذه التنقلات الكثيرة، اقالة الفريق أول فوزى القائد العام للقوات المسلحة وتعيين الفريق صادق ثم تلاه المشير أحمد إسماعيل قائداً عاماً لها وتعيين الفريق طيار محمد حسنى مبارك قائداً للقوات الجوية.

بعدها يدعو الرئيس السادات لاجتماع شامل للقيادات حضره شخصياً اضافة إلى كل قادة القوات المسلحة واستمع فيه إلى تقارير الجهات المختلفه فيؤكد وقتها الفريق أول أحمد إسماعيل القائد العام للقوات المسلحة أن الموقف اصبح عند نقطة الصفر فالفرق متقارب بين القوتين الأعظم في المعركة وأنه لا أمل في حل الموقف سلمياً ويأتي تقرير المخابرات ويؤكد على نجاح خطة الخداع الاستراتيجي على المستوى العسكري ويبقى المستوى الشعبي والسياسي ويأتي دورها بالتنسيق مع وزارتي الاعلام والخارجية ويتحدث اللواء ا.ح/محمد عبد الغنى الجمسى رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة معلناً أنه تمت المرحلتان الأولى والثانية من مراحل تجميع وتعبئة القوات بنجاح وتتبقى المرحلة الثالثة والتي سوف تتم على خطوات لرفع درجة الاستعداد للقوات المسلحة على خطوات والذي يندرج ضمن خطة الخداع العسكري وانه سوف يتم من أول أكتوبر 1973 مشروع تعبوي استراتيجي لاستدعاء الاحتياط والغاء الفرق التعليمية، وأنه لم يعلن توقيت الهجوم حتى الان والخطط سوف تنزل تدريجياً إلى الافراد ويأتي الدور على قائد القوات الجوية الفريق طيار محمد حسنى مبارك ويؤكد بأنه لا تعديل في الخطة الموضوعية واطمام تنسيق الضربة الجوية المركزة مع سوريا وهي الضربة الأولى ثم تأتي بعدها الضربة الثانية بعد ساعتين.

ينتقل الحديث إلى الفريق محمد علي فهمي قائد قوات الدفاع الجوي أن انتقالات كتائب الصواريخ تسير حسب المخطط لتوفير حماية التجمع الرئيسي للقوات البرية في العمليات الهجومية ويتدخل في الحديث الفريق فؤاد ابو ذكري قائد القوات البحرية أنه لا تغيير في الخطة والقوات اخذت مواقعها وبدأت فعلاً الغواصات في التحرك لتنفيذ مهامها، ومن قائد إلى اخر من الأعلى رتبة إلى الأقل كل حسب قطاعه ومهامه ودوره المحدد له في الخطة إلى أن عاد الحديث مرة أخرى إلى الرئيس السادات الذي أكد على ثقته الكاملة في ابنائه ورجاله في القوات المسلحة وثقته في الله سبحانه وتعالى بأن النصر آت كما وعدنا عز وجل.

انتهى الاجتماع باتخاذ القرار بالبدء في الاستعداد النهائي للمعركة بعد أن تمت مراجعة الخطة ودور كلا فيها وتحددت ساعة الصفر سعت 1400 يوم 6 أكتوبر 1973 ويأتي اليوم الموعد بعد مرور 10 اشهر من العمل في صمت وسرية تامة وبدهاء الذهاب ومكر الثعابين ويثبت ذلك أن كل هذا تم تحت سمع وبصر العدو دون أن يفتنوا لما يدبر.

شاء الله أن احضر فيها مرحلة التنفيذ الفعلي وهي بداية من قبل غروب شمس يوم 16 أكتوبر 1973 كقائد للجيش الثاني الميداني بعد غياب عن رجالي به لأكثر من 654 يوماً هي فترة غيابي عنهم وفي نفس الوقت اشتياقي إليهم. فمنذ صباح هذا اليوم وصلتنا انباء تفيد بتسلل 7 دبابات للعدو غرباً من عند منطقته الدفرسوار ولم اصدق نفسي ساعتها فبعد النصر الكبير الذي حققناه ابتداء من يوم 6 أكتوبر 1973 وايام 7 و8 إلى فترة الوقفة التعبوية والتي طالت بلا داعي مروراً بقرار تطوير الهجوم شرقاً والذي جاء باوامر من الرئيس السادات شخصياً والذي كان قراراً سياسياً محضاً ولم يكن عسكرياً في شيء والذي تسبب في تدهور الموقف ابتداءً من ليله 13 أكتوبر 1973 ويوم 14 و15 حتى صباح 16 أكتوبر.

لقد كان الموقف حرجاً وما زاد من حيرتي وسخطي هو أن هذا الاختراق لم يحدث إلا في قطاه الجيش الثاني الميداني والذي تشرفت بقيادته سنوات طوال بداية من عام 1969 حتى 5 يناير 1972 وأعلم يقيناً قدرات قادته وشجاعة رجاله.

هنا نقف عند هذه النقطة من كلام خليل ونقتبس جزءاً من مقال لجمال حماد المؤرخ العسكري في مجلة أكتوبر الاسبوعية والذي كان عنوانه "مازق قيادة الجيش الثاني بعد مرض سعد مأمون وتحولات المعركة" وفي المقال سرد احداث هذا

المازق كما سماه هو ووضح حقائق الموقف بأمانة وقال: "رغم اعترافنا بكفاءة اللواء عبد المنعم خليل وقدراته العسكرية والذهنية ورغم اقتناعنا بصفاته الشخصية ومؤهلاته التي جعلت منه قائداً ناجحاً ومحبوباً في مختلف المناصب التي تولاها، فإن تعيينه قائداً للجيش الثاني بهذه الطريقة المفاجئة وارساله رأساً من القاهرة إلى ميدان القتال ليتولى قيادة الجيش في اخطر مرحلة من مراحل الحرب دون أن يكون له أى اتصال سابق بمجرى العمليات في ساحة القتال أو يكون على دراية بالموقف المتدهور الذي بات عليه أن يواجهه هو خطأ كبير بلا شك وفيه اجحاف باللواء عبد المنعم خليل وتاريخه لأنه لا يعني سوى أنه قد ارسل ليوافقه الفشل الذي لم يرض أحد من القادة الكبار أن يواجهه".

هنا يقول خليل عدت لمتابعة الموقف ومحاولة السيطرة واحتواء الموقف وتنفيذ اوامر القائد العام للقوات المسلحة بارسال اللواء تيسير العقاد لقيادة قوات راس الشاطئ بعد أن لامني على أنني لم افعل ذلك منذ وصولي وساعتها ذكرته بشخصي بأنني عبد المنعم خليل ولم يمض على وصولي للقيادة إلا ساعة واحدة فقط على الرغم من أني اوضحت إليه بأنني في حاجة إلى اللواء تيسير العقاد معي إلا أنه قال لي عندك اللواء تيسير اللواء فاروق سالم رئيس العمليات وهو في الصورة وبالطبع كان لا مفر من تنفيذ الأوامر في حين أن الواضح والجلي من الموقف أن موقف القيادة في قوات رأس الشاطئ غير واضح فالمفروض أن يتولى القيادة أقدم القادة وبالفعل كان العميد عبد رب النبي الأقدم وتولى القيادة إلا أنه اصيب واخلى الخلف وتولى قيادة الفرقة العميد انور حب الرمان فظهرت مشكلة قيادة قوات الفرقتين لتنظيم التعاون بين قيادتين غير متعاونتين.

ينتهى عام 1973 بمفاجئة عجيبة وهي تعيين اللواء الجمسي رئيساً للاركان بدلاً من الفريق الشاذلي اعتباراً من 20 اكتوبر 1973 وكانت المفاجئة الثانية والأهم بالنسبة لي وهي تعييني مساعداً لوزير الحربية وقائداً للدفاع الشعبي والعسكري. يبقى في النهاية أن اللواء خليل حصل على وسام بطل الجيش الثاني ووسام نجمة الشرف العسكرية في حرب أكتوبر 1973 والذي يعد أعلى وأرفع وسام عسكري من فئته.

محمد علي فهمي:

أول قائد لقوات الدفاع الجوي المصري و"حارس السماء المحرقة" (1)

هو المشير محمد علي فهمي قائد عسكري مصري نال شهرة واسعة كقائد لقوات الدفاع الجوي خلال حرب أكتوبر عام 1973، وقد شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية خلال المدة من أوائل شهر يناير عام 1975 وحتى أوائل شهر أكتوبر عام 1978، ثم عين بعدها مساعدًا ومستشارًا عسكريًا لرئيس الجمهورية. وفي يوم 26 مايو عام 1979 رقيه الرئيس الراحل أنور السادات إلى رتبة فريق أول وفي عام 1981 شغل بعد تقاعده منصب رئيس مجلس إدارة شركة الملاحة الوطنية للنقل الإستراتيجي، ثم في يوم 14 أكتوبر عام 1993 قام الرئيس الأسبق حسني مبارك بترقيته إلى رتبة مشير تقديرًا لدوره البطولي الذي قام به في حرب أكتوبر عام 1973.

كان المشير محمد علي فهمي هو أول قائد لقوات الدفاع الجوي المصري منذ أن أصدر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قرارًا جمهوريًا في يوم 23 يونيو عام 1969 بفصل سلاح الدفاع الجوي عن القوات الجوية وأن تكون فرعًا مستقلًا من الفروع الرئيسية للقوات المسلحة المصرية، وشمل القرار الجمهوري تعيين اللواء آنذاك محمد علي فهمي قائدًا لهذا الفرع الجديد، وكان ذلك إيذانًا بمولد القوة الرابعة في القوات المسلحة المصرية بقائد وقيادة منفصلة بجانب القوات البرية والبحرية والجوية.

وقد ظل المشير محمد علي فهمي قائدًا لها أثناء حرب الإستنزاف وحرب أكتوبر عام 1973 وحتى تعيينه رئيسًا لأركان حرب القوات المسلحة المصرية في أوائل شهر يناير عام 1975 بعد وفاة المشير أحمد إسماعيل علي وزير الدفاع وتعيين المشير محمد عبد الغني الجمسي وزيرًا للدفاع خلفًا له وهو الذي كان يشغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

ولد المشير محمد علي فهمي يوم 11 أكتوبر عام 1920 بمحافظة الجيزة وحصل على شهادة إتمام الدراسة الثانوية من مدرسة فؤاد الأول الثانوية بالقاهرة عام 1937

(1) المشير محمد علي فهمي.. أول قائد لقوات الدفاع الجوي المصري و"حارس السماء المحرقة"، رأي اليوم اللندنية.

<https://www.raiaiyoun.com> كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. - <https://www.poli-tics-dz.com>

ثم التحق بالكلية الحربية وتخرج منها يوم 1 نوفمبر عام 1939 وتم إلحاقه بسلاح المدفعية متخصصاً في المدفعية المضادة للطائرات وشارك في الحرب العالمية الثانية وحرب فلسطين عام 1948.

بعد انتهاء حرب فلسطين التحق محمد علي فهمي بكلية القادة والأركان وتخرج منها عام 1951 كما شارك في حرب السويس أيام العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 وعمل بعد ذلك بهيئة عمليات القوات المسلحة حتى شغل منصب سكرتير عام الهيئة برتبة عقيد ثم تولى قيادة المجموعة السادسة مدفعية مضادة للطائرات بألمظلة ثم رئيس أركان حرب الفرقة الخامسة مدفعية مضادة للطائرات ثم سافر إلى الإتحاد السوفيتي وحصل هناك على دورة الأكاديمية العليا للدفاع الجوي عام 1965 وبعد عودته شغل منصب قائد الفرقة الخامسة مدفعية مضادة للطائرات، وفي أعقاب حرب الخامس من يونيو عام 1967 استدعاه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وكلفه بوضع تصور دقيق ومدرّس لمنظومة دفاع جوي متقدمة لحماية سماء مصر، وما بين عام 1968 وعام 1969 عين رئيساً لأركان حرب الدفاع الجوي وبعدها عين كما ذكرنا في السطور السابقة وكان قد وصل إلى رتبة اللواء كأول قائد لقوات الدفاع الجوي بعد فصلها عن القوات الجوية وتعيينه في هذا المنصب قام البطل محمد علي فهمي بدراسة أسباب نكسة عام 1967 والدروس والعبر المستفادة منها، ثم أعاد تأهيل ضباط وجنود قوات الدفاع الجوي المصري معنوياً وجسمانياً وذهنياً وقام بإنشاء نظام دفاع جوي جديد في منطقة الجيشين الثاني والثالث الميدانيين بجهة القناة وأعقب ذلك بالبدا في بناء حائط الصواريخ الذي أدى إلى إبتعاد طائرات الإستطلاع والمقاتلات الإسرائيلية شرق القناة إلى مسافات كبيرة.

قد قال السياسي حاييم هيرتزوج الرئيس السادس لإسرائيل ما بين عام 1983 وعام 1993 في كتابه (الجولات العربية الإسرائيلية): "لم يكن إنشاء حائط الصواريخ المصري في عام 1970 الهدف منه حل مشكلة المصريين في حماية قواتهم غرب القناة فحسب وإنما كان تحولاً إستراتيجياً لم نفهم معناه إلا بعد 3 سنوات خلال حرب أكتوبر عام 1973".

أما عن ملحمة بناء حائط الصواريخ المصري المضاد للطائرات، يقول المشير محمد علي فهمي: "إنه في عام 1969 بدأ الطيران الإسرائيلي يصعد عملياته ضدنا

وإستهدفت الهجمات العاصمة القاهرة والأهداف الحيوية في العمق وكان الغرض من ذلك تأليب الجبهة الداخلية وإضعاف الروح المعنوية للشعب المصري وهز ثقته في قياداته وكسب الحرب دون معركة وعندما وصل الوضع إلى هذا الشكل تحركت القيادة السياسية وطلبت من الإتحاد السوفيتي إمدادنا بالأسلحة اللازمة لمواجهة إسرائيل وعلى وجه الخصوص الأسلحة اللازمة لقوات الدفاع الجوى والقوات الجوية حيث كانت معظم الأسلحة التي لدينا من مخلفات الحرب العالمية الثانية وحرب يونيو عام 1967 لذلك أرسل الرئيس جمال عبد الناصر نائبه آنذاك أنور السادات إلى موسكو لطلب السلاح ولم يوافق الجانب السوفيتي سوى على جزء بسيط من الأسلحة التي طلبناها وكان في المقابل قد وصلت إلى إسرائيل أعداد كبيرة من طائرات الفانتوم والسكاى هوك الأمريكية الحديثة وهو ما شجع الإسرائيليين على المزيد من الهجمات بهدف خلق حالة تمرد في الجبهة الداخلية لإسقاط الرئيس جمال عبد الناصر وهو ما دفع القيادة السياسية إلى التحرك بسرعة فسافر الرئيس جمال عبد الناصر إلى موسكو في زيارة سرية يوم 22 يناير عام 1970 ونتج عنها الإتفاق على السلاح المطلوب وتحددت الفترة بين شهري مارس وأبريل من العام نفسه لوصول الأسلحة المطلوبة وببدء وصول هذه الأسلحة أصبح في إمكاننا التحرك لبناء حائط الصواريخ غرب القناة لحماية التجمع الرئيسي لقواتنا التي ستنفذ الهجوم وتعبر القناة فيما بعد وهو ما أثار القادة العسكريين الإسرائيليين حيث أعلن وزير الدفاع الإسرائيلي آنذاك الجنرال موشيه ديان أن إسرائيل لن تسمح للقوات المسلحة المصرية بتحريك صواريخ سام 3 المضادة للطائرات إلى غرب القناة، وإعتبر هذا التحرك عملاً هجوميًا ضد إسرائيل لكن هذا لم يثننا عن عزمنا وبدأنا خطة تحريك الصواريخ بالفعل".

فهمي و منظومة الدفاع الجوي:

في وقت قياسي إستطاع محمد علي فهمي إستكمال منظومة الدفاع الجوى سواء على مستوى الجمهورية أو في نطاق جبهة القناة والذى لعب دورًا حاسمًا في معارك حرب أكتوبر عام 1973 وقد شملت خطة تحريك حائط الصواريخ على جبهة القناة عدد ثلاث وثبات كل منها تحمي التي قبلها وقد تمت الأولى في يوم 30 يونيو عام 1970، وإقتربت الصواريخ لتصبح على بعد 50 كيلو مترًا من قناة السويس، وخلال أسبوع واحد أسقطنا 26 طائرة إسرائيلية ثم بدأنا الوثبة الثانية في شهر يوليو عام

1970 وتحرك حائط الصواريخ حتى 30 كيلوًا مترًا من القناة وحتى ليلة 7 أغسطس عام 1970 كنا قد أسقطنا 51 طائرة إسرائيلية وكانت قد طرحت مبادرة ويليام روجرز وزير الخارجية الأمريكي حينذاك التي وافق عليها الرئيس جمال عبد الناصر والتي بموجبها سيتم وقف إطلاق النار لمدة 3 شهور حتى يستوعب رجال الدفاع الجوي السلاح الذي جاء من الإتحاد السوفيتي مؤخرًا.

في ليلة سريان قرار وقف إطلاق النار في السابع من شهر أغسطس عام 1970مكننا قد وصلنا إلي 10 كيلو مترات من قناة السويس وإكتملت بذلك الصورة التي خططناها لحائط الصواريخ وبدأ بناء المواقع المحصنة للمرة الثانية وبنينا النسق الأول ثم الثاني لتصبح على بعد كيلو متر واحد من القناة لكن هذه المواقع ظلت هيكليّة أي خالية حتى تحركنا إليها في أثناء حرب أكتوبر عام 1973.

يقول المشير محمد علي فهمي: "إنه على الرغم من تخلف الأسلحة السوفيتية التي كانت في حوزة الجيش المصري بالمقارنة مع مثلتها مع الجيش الإسرائيلي فقد إنتصر الجندي المصري بها وأن هناك مقولة عن السلاح تقول إنه لا بد من تفصيله للمهمة التي سيستخدم فيها وهو ما إستطعنا إنجازه بالفعل فالصواريخ الروسية كانت كبيرة في حجمها وظاهرة وواضحة وضوح الشمس لطائرات الإستطلاع الجوي الإسرائيلية ويسهل إصابتها وفي حرب فيتنام مثلاً كانت الطائرات الأميركية تبحث عنها وتضربها ولذا فقد سماها الأميركيون البط الجالس وقد جعلنا نحن من البط الجالس بطاً متحركاً أي حولنا الصواريخ الساكنة الهامدة الي أسلحة متحركة تتحرك مع القوات وتساعدهم في تقدمهم وهو ما لم يعرفه الروس أنفسهم حيث كان في كل فرقة من فرق الجيشين الثاني والثالث الميدانيين وحدات من قوات الدفاع الجوي لحمايتها أثناء تحركاتها من أي هجمات جوية معادية".

جدير بالذكر أيضاً أن هناك نقطة مهمة يجب توضيحها وهي كيفية التنسيق والتعاون بين قوات الدفاع الجوي والقوات الجوية التي كان يقودها اللواء حينذاك حسني مبارك خاصة أنه في معارك عديدة تفتقد الجيوش هذا التنسيق والذي حين تولى قيادة القوات الجوية كان تنظيم التعاون بين الدفاع الجوي والقوات الجوية نظاماً قديماً جداً من أيام الحرب العالمية الثانية ولا يصلح لحرب حديثة وكان مبنياً على نظام تقييد النيران بمعنى أنه لو كانت لدينا طائرات في الجو فلا نطلق نيرانا

وهذا الكلام كان صالحًا مع الطائرات القديمة البطيئة وأعدادها القليلة أما في الحروب الحديثة والطائرات السريعة التي تهاجم بأعداد كبيرة فلا يصلح هذا الأسلوب، ولذلك يضيف المشير محمد علي فهمي: "جلست مع اللواء مبارك ووضعتنا تنظيمًا جديدًا للتعاون وكانت الوثيقة التعاونية التي وصلنا إليها من الوثائق المهمة في خطة الحرب وتغلبنّا فيها على مصاعب كثيرة كانت مثار خلاف بين الطيران والدفاع الجوي، وأذكر أنه حينما ذهبنا بها إلى وزير الدفاع الفريق أول آنذاك أحمد إسماعيل علي قال إنها وثيقة مهمة جدًا وأبلغنا أنها فآل حسن قبل دخول المعركة".

كان لعلي فهمي بعض العمليات الهامة قبل قيام حرب أكتوبر عام 1973 والتي كانت خير تمهيد لها حينما صدرت تعليمات القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية في أوائل شهر سبتمبر عام 1971 بتكليف قوات الدفاع الجوي بمنع العدو من إستطلاع القوات البرية شرق القناة، ومن ثم تم تنفيذ العملية التي أطلق عليها إسم رجب في مساء يوم 17 من شهر سبتمبر عام 1971 حيث كانت هناك طائرة إستطلاع إلكتروني ضخمة من طراز سترايكروزر محملة بأجهزة إلكترونية بالغة الدقة والحساسية شرق القناة تقوم بصفة دورية برصد وتحدد بدقة جميع مواقع صواريخنا وراداراتنا وأجهزتنا الإلكترونية وهي تطير على إرتفاع متوسط في خط مواز لشاطئ القناة ويبعد عنه حوالي 3 كيلو مترات وكانت مواقع صواريخنا أرض جو تبعد عن القناة من 15 إلى 20 كيلو متر وبذلك فإنها تكون خارج نطاق صواريخ دفاعنا الجوي فتم الإتفاق ما بين الفريق سعد الدين الشاذلي رئيس الأركان ومحمد علي فهمي على نصب كمين لهذه الطائرة وذلك بتحريك إحدى كتائب الصواريخ المضادة للطائرات ليلاً إلى موقع يبعد حوالي 5 كيلو مترات من شاطئ القناة وتكون مهمتها إقتناص هذا الصيد الثمين عند القيام بعملية الرصد المعتادة وبالفعل تم تنفيذ هذه الخطة وفي مساء اليوم المذكور تناثرت أشلاء هذه الطائرة وأصبحت أثراً بعد عين وتم إنسحاب الكمين سريعاً إلى موقعه الأصلي واحتجت إسرائيل إحتجاجاً شديداً على إسقاط هذه الطائرة الذي أدى إلى فقدانها مجموعة من خيرة ضباطها ومهندسيها وفي اليوم التالي قامت إسرائيل بهجمة جوية إنتقامية بقوة 34 طائرة تحمل كل منها صاروخين من طراز شرايك المضادة للرادارات وتم إطلاق الصواريخ الثمانية والستين على مواقع الدفاع الجوي المصري غرب القناة من مسافة تبعد حوالي 10 كيلو مترات شرق القناة خوفاً

من وجود أكمنة أخرى من الممكن أن تتسبب في سقوط بعض الطائرات وأعلنت إسرائيل أنها قد دمرت قوات الدفاع الجوي في الجبهة غرب القناة ولكن كانت الخسائر المصرية لا شيء تقريباً فلم تحدث أي خسائر تذكر في الأفراد أو المعدات حيث كان التصويب غير دقيق نظراً للقيام به من مسافة بعيدة، وجدير بالذكر أن قوات الدفاع الجوي المصري كانت على علم بامتلاك العدو الإسرائيلي لقذائف شرايك الأميركية، وكان يتم إعداد بعض الخطط والأساليب لمقاومتها وباستخدامه لهذا النوع من القذائف في هذه الغارة الإنتقامية فقد أعطى قوات دفاعنا الجوي الفرصة لتجربة هذه الخطط والأساليب والوقوف على مدى فاعليتها، ومن ثم إختيار أنسبها للتعامل مع هذا النوع من القذائف مستقبلاً.

في يوم 24 يوليو عام 1972 حاول العدو الإسرائيلي إستغلال فرصة إنهاء مهمة الخبراء السوفيت في الجيش المصري بناءً على قرار الرئيس الراحل أنور السادات الذي صدر في يوم 8 يوليو عام 1972 ظناً منه حدوث فراغ وإرتباك في وحداته وخاصة في مجال القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي فأقترب بطائراته من القناة إلى مسافة أكثر مما كان يسمح به قبل ذلك وفي تمام الساعة الخامسة إلا الربع مساءً تم إسقاط إحدى هذه الطائرات والتي كانت تطير على بعد حوالي 10 كيلو مترات شرق القناة ومن يومها صدرت التعليمات لسلاح الطيران الإسرائيلي ألا تقترب الطائرات من شاطئ القناة إلى مسافة تقل عن 14 كيلو متر.

في يوم 10 أكتوبر عام 1972 كسرت بعض الطائرات هذه القاعدة فتم إطلاق صاروخين عليها فطاش أحدهما وأسقط الآخر إحدى الطائرات وكان من الواضح أن العدو الإسرائيلي يجرب وسائل وطرق جديدة للهجوم على قواتنا خاصة وأنه حاول التشويش على راداراتنا المخصصة للإنذار والمخصصة لإدارة النيران وكانت تلك فرصة تدريبية جيدة لكلا الطرفين.

في يوم 28 يونيو عام 1973 حاول العدو الإسرائيلي مرة أخرى أن يقترب من شاطئ القناة لمسافة 10 كيلو مترات أو أقل وتم التصدي لها وإسقاط أحدها، وبعد هذا التاريخ وحتى إندلاع حرب أكتوبر عام 1973 لم تحاول الطائرات الإسرائيلية الإقتراب مرة أخرى من شاطئ القناة حتى مسافة 14 كيلو مترات وبذلك فقد سيطرت وسائل الدفاع الجوي من الصواريخ أرض جو على سماء جبهة القناة وحتى مسافة 14

كيلو متر شرق القناة وهكذا تمت تهيئة الظروف المناسبة لتنفيذ عملية العبور في أمان تام دون التعرض لغارات سلاح الطيران الإسرائيلي.

لقد إستمر فهمي في أعمال تطوير وسائل الدفاع الجوي حتى قيام حرب أكتوبر عام 1973 وكان لهذا الحائط الصاروخي المضاد للطائرات أثره الأكبر في سير العمليات أثناء تلك الحرب وبدا ذلك واضحاً من أول يوم وعقب 40 دقيقة فقط من إندلاع الحرب حيث شنت إسرائيل أول هجمة جوية على قواتنا غرب القناة وعلى المعابر خسروا خلالها عدد 18 طائرة وكانت هذه لحظة فاصلة في تاريخ العسكرية المصرية عندما إنطلقت الصواريخ المضادة للطائرات التي زرعت الرعب والخوف في قلوب الطيارين الإسرائيليين وإستطاع البطل فهمي القضاء على أسطورة التفوق الجوي الإسرائيلي وأطلق عليه لقب "حارس السماء المحرقة".

يذكر أن أحد مراقبي الهدنة قال: "إنه من كل خمس طائرات إسرائيلية كان يتم إسقاط ثلاث طائرات"، ولا ينسى التاريخ أنه في نحو الساعة الخامسة مساء يوم السادس من أكتوبر عام 1973 أي بعد ساعات قليلة من بداية عبور قناة السويس إلتقطت الأجهزة الخاصة المصرية إشارة لا سلكية مفتوحة تحمل أوامر صادرة من الجنرال بنيامين بليد قائد القوات الجوية الإسرائيلية بعدم توغل الطائرات الإسرائيلية لمسافة لا تقل عن 15 كيلو متراً شرق قناة السويس حتى يتجنب الخسائر الكبيرة في طائراته ومعنى هذه الإشارة أن قوات الدفاع الجوي المصرية بقيادة فهمي قد نجحت بنسبة مئة في المئة في تأمين عملية إقتحام وعبور القناة والهجوم بكفاءة عالية ليلاً ونهاراً وقدمت الحماية للمعابر والكباري وقوات المشاة والمدرعات مما أتاح للقوات المصرية أن تعبر القناة في أمان تام وفعلاً بعد ساعتين من القتال توقف الطيران الإسرائيلي عن مهاجمة القوات المصرية مما شجعنا على العبور بسرعة وقد حاول الطيران الإسرائيلي مرة أخرى في مساء يوم العبور السادس من أكتوبر عام 1973 شن هجمات لمنع قواتنا من التدفق والعبور إلى شرق القناة لكنها كانت هجمات ضعيفة غير مؤثرة وبأعداد صغيرة ومنى بخسائر أكبر في طائراته.

لقد ذكر دافيد اليعازر رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلي إبان حرب أكتوبر عام 1973 والذي عصفت به رياح تلك الحرب بعد إنتهائها وتم عزله من منصبه بعد أن أثبتت عليه لجنة القاضي أجرانات التي تشكلت بعد حرب أكتوبر عام 1973

لبحث إخفاق جيش الدفاع الإسرائيلي خلالها تقصيره في أداء واجبه ومهامه في مذكراته التي نشرها بعد ذلك: "إن الحقائق بدأت تتضح أمامنا شيئاً فشيئاً فالإشارات تذكر أن أكثر من ثلاثين ألفاً من الجنود المصريين أصبحوا يقاتلون في الضفة الشرقية للقناة ومازالت الدبابات والمدرعات والمعدات الثقيلة تعبر الكباري وتتدفق بغزارة إلى الضفة الشرقية وذلك نتيجة شل فاعلية سلاحنا الجوي بواسطة وسائل الدفاع الجوي المصري وإن بدء التلاحم بين جنودنا والمصريين معناه أن يفقد سلاحنا الجوي فاعليته وقد أصبح مجموع ما سقط لنا من طائرات حتى الساعة العاشرة وعشر دقائق مساء يوم 6 أكتوبر عام 1973 طائرة ولقد أصبح القتال يسير ضارياً شرساً والدلائل تشير إلى أننا نواجه خطة دقيقة ومحكمة لا نعرف مداها أو أبعادها".

لقد وصفت مجلة أرمية العسكرية الفرنسية البطل فهمي بأنه من أبرز الشخصيات العسكرية في العالم وأحد كبار المتخصصين في النواحي الفنية العسكرية في مجال الدفاع الجوي وقال عنه هودز رئيس تحرير مجلة أسبوع الطيران وتكنولوجيا الفضاء الأميركية "إنه مهندس معركة الدفاع الجوي في حرب أكتوبر عام 1973".

لقد حصل المشير محمد علي فهمي على العديد من الأوسمة والنياشين منها وسام التحرير ووسام النجمة العسكري ووسام نجمة الشرف العسكرية ووسام الشرف العسكري من دولة سوريا ووسام الملك عبد العزيز من المملكة العربية السعودية ووشاح النيل، والعديد من الأنواط والميداليات في المناسبات القومية وعلاوة على ذلك فقد ترك لنا فهمي عدد من المؤلفات المهمة منها عن الحملة الفلسطينية، وألمانيا تهديد السلام، وألمانيا بين الشرق والغرب ويتكون من جزئين. فضلاً عن كتب عن الوحدة الأفريقية والقومية الأفريقية، وتاريخ قوات الدفاع الجوي المصري.

كانت وفاة المشير محمد علي فهمي في العاصمة البريطانية لندن يوم السبت 11 سبتمبر عام 1999 أثناء رحلة علاجية وشيع الجثمان في اليوم التالي الأحد 12 سبتمبر عام 1999 من مسجد رابعة العدوية في جنازة رسمية عسكرية وتقدم الرئيس الأسبق حسني مبارك جنازته مع الوزراء وكبار رجال الدولة وقادة القوات المسلحة وعدد كبير من ضباط القوات المسلحة يمثلون مختلف الإدارات والهيئات بالقوات المسلحة ورؤساء الأحزاب وقد حمل الفقيد ملفوفاً بعلم مصر على عربة مدفع وسار خلفها حملة الأوسمة والنياشين التي حصل عليها.

محمد حسنى مبارك:

قراءة «كلمة السر.. مذكراته بين (يونيو 67 - أكتوبر 73)»⁽¹⁾

هو كتاب «كلمة السر.. مذكرات محمد حسنى مبارك. يونيو 67 - أكتوبر 73»، والذي صدر عن دار «نهضة مصر». إن للسؤال إجابات عدة، أولاها: الأقدار التي شاءت أن تخرج تلك المذكرات التي سجلها مبارك في نهاية السبعينات مع الإعلامي الراحل محمد الشناوي، ولكنها لم تصدر في حينها حيث احتفظ بها محررها، ونسيها صاحبها.. إلى أن وصلت إلى الكاتب السياسي عبدالله كمال، فتأكد أنها تخص الرئيس الأسبق، وتولى إعادة تحريرها والتقديم لها.

لقد حاول محرر المذكرات في ٢٠١٣ إبلاغ حسنى مبارك بعثوره على هذا الكنز الخاص الذي كان قد تم الانتهاء من إعداده في ما بين عامى ١٩٧٨ و ١٩٧٩.. أرسل لوسطاء مختلفين، ثم كان أن تعرف مبارك على مذكراته المنسية عبر محاميه فريد الديب، إلا أن الإجابة لم تأت إلا بعد إخلاء سبيل مبارك مؤخراً. ومن ثم عرض كمال على دار «نهضة مصر» طباعتها ونشرها في كتاب، فرحبت بذلك وبشدة.

وفقاً لرواية حازم الشناوي عن والده الراحل فإن محمد الشناوي اجتمع مع نائب الرئيس محمد حسنى مبارك عشرات المرات، روى له فيها كل تفاصيل ودقائق الست سنوات التي قضاها في عملية إعادة بناء القوات الجوية، منذ كان ضابطاً قيادياً.. تلقى ضربة يونيو وهو لم يزل قائداً لقاعدة بنى سويف الجوية.. وحتى أصبح مديراً للكلية الجوية وإلى أن أصبح قائداً للقوات الجوية، محققاً النصر الجوي الأهم في تاريخ مصر. وقد كتب محمد الشناوي النص في حدود ٥٠٠ ورقة فلويسكاب بخط اليد، بعض صفحات منها كان قد دوّن عليها مبارك ملاحظات بخط يده بقلم أحمر.. خصوصاً فيما يتعلق بالمعلومات الفنية والعسكرية الدقيقة.. وتمثل هذه الأوراق الوثيقة الأهم حول تلك السنوات وهذا السلاح وهذا البطل.. إذ لا توجد تقريباً غيرها بهذه الدقة وتلك الشمولية وهذا التنظيم.. والأهم على لسان محمد حسنى مبارك.

(1) قراءة «كلمة السر.. مذكرات محمد حسنى مبارك. يونيو 67 - أكتوبر 73»، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

ليس معروفاً على وجه الدقة ما هو السبب الذي منع نشر تلك المذكرات، وما الذي عطل عملية النشر بعد أن اكتملت الوثيقة.. إذ لم أجد لدى الأستاذ حازم ما يمكن نقله عن والده في هذا السياق. غير أن المؤكد أنه كان هناك حرص عائلي على الاحتفاظ بالوثيقة إلى أن يحين وقت تنفيذ وصية الوالد الراحل بالنشر، عندما يجد ابنه ذلك مناسباً. في بداية ٢٠١٣ وضع حازم الشناوي ثقته في كاتب هذه السطور، وسلمني صورة من تلك «المذكرات - الوثيقة» لكي تجد طريقها إلى النور، وترك لي أسلوب ترتيب ذلك.. توثيقاً وتدقيقاً.

للهولة الأولى، أثبتت قراءة تلك المذكرات، وبما لا يدع مجالاً للشك، أنها لمبارك، سواء من حيث الوقائع الشخصية القليلة التي يرويها، أو من حيث المعلومات الفنية والعسكرية التي تضمنتها، أو من حيث تنظيم المادة المروية عن طريقة إعادة بناء القوات الجوية واستعدادها لحرب أكتوبر ومن ثم تفاصيل ودقائق الضربة الجوية الساحقة لإسرائيل في أكتوبر ١٩٧٣.. فضلاً عن الملاحظات الخطية التي وجدتتها على جانبي بعض الصفحات وهي بخط أقرب إلى أن يكون ما أعرفه عن خط الرئيس الأسبق لمصر.

الأهم قبل كل ذلك هو الوثيقة التي دونها مبارك بخط يده وتشر هنا، وقدم بها مبارك لمذكراته التي أملاها على محمد الشناوي. في غضون الأشهر القليلة التي تلت وصول هذا النص إلى يدي، لم تتح فرصة مناسبة لإطلاع الرئيس أو أي من أفراد عائلته على المذكرات: علاء وجمال أو السيدة قرينته. كنت أرغب في أن تكون هذه الخطوة عملاً مزدوجاً: يحقق أولاً توثيق النص، وثانياً السماح بنشره. كان يمكن أن أمضى في إجراءات النشر، وسط مناخ شغوف بأي شيء عن مبارك.. لكنني لم أجد أنه مطابق للمعايير الأخلاقية أن يتم النشر بدون إطلاع أي من أفراد عائلة مبارك على المكتوب منسوباً إليه.. مع كامل التقدير والثقة في أسرة الشناوي الحائزة للوثيقة نقلاً عن محمد الشناوي.

في أغسطس ٢٠١٣.. بُعيد صدور الحكم بأحقية الرئيس مبارك في أن يتم الإفراج عنه إجرائياً من الحبس الاحتياطي الذي قيد حريته لستين.. كان أن أبلغت فريد الديب المحامي والمدافع القانوني عن الرئيس مبارك بالأمر.. وتكرم سيادته وعرض الأمر على مبارك حيث كان في مقر إقامته الجبرية في مستشفى المعادي.. وكان أن تذكر

الرئيس الموقف الممتد بينه وبين المرحوم محمد الشناوي، وطلب أن يقرأ مذكراته. وتكرم الأستاذ فريد مجدداً ونقل الخبر إليّ فبدأت على الفور المرحلة الثانية من التعامل مع هذه المذكرات المهمة، تمهيداً لعرضها على صاحبها الرئيس الأسبق.. وقد عُرضت عليه في الأسبوع الأخير.. ووافق على النشر.. الذي تنفرد به جريدة «الوطن» بالتزامن مع جريدة «الرأي» الكويتية. لم تقف المهمة التي كلفت بها نفسي عند مسألة توثيق النص، والتأكد من انتسابه التاريخي للرئيس مبارك، ولا عند تولي إدارة عملية نشره عبر الدار المحترمة «نهضة مصر».. ولا عند كتابة هذا التقديم النقدي الشارح للكتاب والراوي لملاساته. بل آليت على نفسي أن أجعله أكثر حداثة عما كان عليه وأن أحرره بما يلائم سنة صدوره في ٢٠١٣.. مع كل التقدير والاحترام للجهد الذي بذله محمد الشناوي في نهاية السبعينات من القرن الماضي أي قبل نحو ٤٠ عاماً. لقد حافظت على روح الأسلوب، ولغة الكتابة، والاقتباسات التي أوردها محمد الشناوي من تلقاء نفسه كما يمكن أن أخمن مهنياً، أو تلك التي أوصي بها مبارك كما أتوقع من خلال تحليل المضمون.

يمكن توقع أن محرر المذكرات الأول قد اهتم ببعض المأثورات والأحاديث النبوية وبعض المذكرات العسكرية.. وضمّنها الصفحات أثناء صياغته للنص المنقول عما سمعه من نائب الرئيس.. كما يمكن أن يقودنا الحدس إلى أن مبارك قد اهتم بما ذكرته إسرائيل عن العمليات العسكرية وما ورد في كتبها وتصريحات مسئوليتها.. وتوثيق ذلك عبر أدوات المؤسسة العسكرية التي كانت تهتم بذلك منذ زمن بعيد وتتابعه وتعرضه في تقارير دورية على قيادتها المختلفة. بخلاف ذلك، فإن تراتبية المذكرات، وتوالي تفاصيلها، ودور القوات والأفرع، ومهام الأفراد والقادة، وسجلات البطولات الشخصية، وغير ذلك هو من صميم شخصية القائد الجوي.. الذي لم يكن يروي مذكراته الشخصية، بقدر ما كان يملئ مذكرات القوات الجوية في الست سنوات التي سبقت أكتوبر ٧٣ وقادت إليه.

في هذا السياق قمت ببعض الجهد في عملية تحرير إضافي لهذه المذكرات، يمكن أن أوجزه وفق مقتضيات الأمانة المهنية والتاريخية فيما يلي: تغيير عنوان النص من «كلمة السر.. صدام - من يونيو ١٩٦٧ إلى أكتوبر ١٩٧٣» إلى «كلمة السر - مذكرات حسني مبارك - يونيو ١٩٦٧ / أكتوبر ١٩٧٣».

يمكن فهم لماذا اختار الأستاذ الشناوي عنوانه الأول تخليداً لاسم العملية الهجومية القتالية التي قامت بها القوات الجوية المصرية في أكتوبر ١٩٧٣.. على أنه قد لا يبدو العنوان واضحاً الآن، لا سيما أن الكثيرين سيحتاجون إلى تشكيل النطق لكي يكون حرف «الصاد» مكسوراً وينطق صحيحاً بدلاً من أن يشير إلى اسم رئيس العراق الراحل صدام حسين!! قمت بعدد من عمليات التكتيف والاختصار، التي لا تخل بقيمة النص، ولا روح السياق الذي قام به الأستاذ الشناوي. وكان سبب ذلك هو اعتقادي بأن النص الذي وصل إلى يدي كان قيد المراجعة ولم يكن نصاً أخيراً.. فضلاً عن أن الطبيعة الإذاعية للغة الأستاذ المرحوم محمد الشناوي كانت تميل به إلى أن يضع تكرارات من فصل لآخر مذكراً بها، حسب أسلوب العمل الإذاعي، مقارنة بما هو غير معتاد في أساليب التحرير المقروءة.

قمت بإعادة التبويب عن طريق الدمج، وليس بإعادة الترتيب.. بمعنى أنني حافظت على درامية وتاريخية العمل كما دونه الأستاذ الشناوي، غير أنني ألغيت التوزيع بطريقة الأبواب الرئيسية المتضمنة لفصول داخلية فرعية، وجعلتها كلها فصولاً متتابعة، ما اقتضى دمج بعض الفصول.

توزيع المذكرات :

كانت المذكرات موزعة كما يلي: مقدمة، وسبعة أبواب، تتوزع كلها على فصول، بعضها أربعة وبعضها خمسة، باستثناء الباب الرابع فهو كتلة واحدة، وخاتمة. في تبويبها الجديد، وبعد دمج عديد من الفصول، صارت هذه المذكرات مكونة من مقدمة و١٣ فصلاً وخاتمة، بخلاف هذا التقديم. قمت ببعض عمليات إعادة تنظيم الفقرات، وإعادة كتابة بدايتها، محاولاً أن يكون هذا أكثر تناسباً مع لغة تحرير مغايرة.. وبدون إخلال بالجهد المبذول قبل أربعين سنة. حررت هذا التقديم التاريخي - التوثيقي، والنقدي، الإضافي والواجب.

على الرغم من أنه توجد بعض الكتابات هنا أو هناك حول السنوات الثلاثين لحكم مبارك، فإن كثيراً منها لم يهتم بالغوص في تفاصيل، واكتفى البعض بما يمكنه اعتباره مجاملة لرئيس، ورأى فيه الجيل الجديد أنه نفاقات.. واهتم البعض الآخر بما يمكن اعتباره هجوماً سياسياً على رئيس، رأى فيه مؤيدوه ظلماً له. وحتى لحظة صدور هذا الكتاب فإنه لم توجد بعد مصادر واضحة ودقيقة وشاملة وموضوعية لا

عن سنوات حكم مبارك، ولا عنه شخصياً.. لا عن سيرة السياسي الحاكم ولا عن تاريخ العسكري المقاتل. هذا تناقض مريع تاريخياً، بين حقيقة أن الرئيس مبارك قد حكم ثلاثين عاماً، وامتد مساره العملي لأكثر من خمسين سنة، وبين كونه الرئيس الذي لم تدون عنه تاريخياً كثير من تفاصيل سيرته.. لا قبل أن يكون رئيساً ولا بعد أن أصبح رئيساً ولا عقب تركه لمنصبه كرئيس.

لقد اكتفى مبارك وحكمه بالمادة الإعلامية السيارة التي كانت تغطي أنشطة يومية ووقائع إخبارية، للدقة هو لم يكتب.. وإغما لم يسع. ولا يوجد بشأن سيرته كتاب تحليلي شامل، أو سيرة موثقة، أو أي منتج ثقافي متعمق آخر.

إن الكتاب الذي يمكن أن تعثر عليه بشأن مبارك قد يكون دعائياً أو ألبوماً مصوراً.. أو كتاباً انتقادياً هجوماً رافضاً. وبالموازاة لمبارك، فإن حرب أكتوبر، وهي تتخطى دور شخص بعينه، وتشمل بطولات ومواقف وأدواراً لمئات الألوف من المصريين، كان بدورها أن لقيت ظلماً تاريخياً ولم تحظ بالقدر الكافي من الاهتمام التفصيلي والدقيق.. حتى مع صدور عدد من مذكرات بعض من كبار قادتها.

ربما لأسباب ودواعي السرية التي فُرضت عليها وعلى تفاصيل حقوق المعرفة العسكرية التي أحاط بها الكتمان عقوداً.. وربما لأن النصوص التي صدرت لم تتضمن تفاصيل محددة بالطريقة الاستثنائية الواردة في هذه المذكرات على لسان نائب الرئيس محمد حسنى مبارك. باستثناء مذكرات الفريق محمد عبدالغنى الجمسى فإن الصورة التي تصل عن حرب أكتوبر إلى الأجيال الجديدة تبدو غير مكتملة وتحتاج إلى مزيد من التفصيل.. بل إن قائدها الميداني الأهم، القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع المشير أحمد إسماعيل لم يمنحه الزمن فرصه لكي يروي تجربته ومسيرته وقصة الانتصار الذي سجل فيه اسمه.. وهنا تأتى الصدفة التاريخية المهمة متزامنة مع صدور مذكرات مبارك، عندما نشر مجدى الجلاد في الوقت ذاته أوراق المشير أحمد إسماعيل في كتاب «مشير النصر» الذي صدر عن دار «نهضة مصر».

لقد مضت سنوات طويلة على حرب أكتوبر، وبمضي السنوات طوى النسيان مذكرات قادة حرب أكتوبر، الذين لم تشغل بهم تفصيلاً الحركة النقدية والأعمال البحثية والعملية التي بُقى قيم تلك الحرب وأهميتها التاريخية يقظة في ذهن وعقل الأجيال التالية.. لا تحليل ولا دراسات ولا مراجعات.. لم تعد حرب أكتوبر مدرجة أصلاً في الخطط البحثية للجامعات والمعاهد المصرية.

بنفاد سنوات هذا الجيل صانع النصر، فإن الأعمال التي تتناول حرب أكتوبر ودقائقها انقطعت، ولا تضم المكتبات العربية والمصرية إلا مؤلفات نادرة عن الوقائع وتحليلها ودراساتها وبحث تأثيراتها. من هنا فإن صدور تلك المذكرات التي أملاها نائب الرئيس محمد حسنى مبارك يسقي تربة ذاكرة قد جفت، ويرطب اهتماماً قد ذبل. وليس بعيداً عن هذا الظلم المتراكم أن حرباً معنوية وتاريخية وعلمية قد تم شنها على قيمة حرب أكتوبر ومجدها، تشويهاً وتقليلاً وإضعافاً، بل وتحويلها -استسلاماً للرواية الإسرائيلية- إلى حرب متعادلة في أفضل الأحوال.. وفي أحوال أخرى وفقاً لروايات غير عربية بدت كما لو أنها هزيمة ناقصة أو نصر غير مكتمل. هذا أمر جلل وخطير وجدير بالانتباه بالنسبة لاهتمامنا بأجيال صار عليها أن تستسلم لحملات دعائية جعلت من الصمود الخاسر من قبل بعض التنظيمات في معارك عابرة نوعاً من الانتصار، وأصبح عليها أن تقتنع بأن الجيش المصري بلا مجد طالما أنه لم يخض حرباً منذ انتهت حرب أكتوبر ١٩٧٣.

إن أهمية «المذكرات الأولى لحسنى مبارك» لا تكمن فحسب في صاحبها، بقدر ما تكمن كذلك فيما ترويه عن المؤسسة العظيمة التي كان هو أحد أبطالها، وأبطال انتصارها في أكتوبر ١٩٧٣.. ويعزى ذلك إلى الطريقة التي روى بها مبارك تفاصيل عملية إعادة بناء القوات الجوية.. باعتبارها الخاسر الأهم والأكبر في هزيمة يونيو ١٩٦٧.. ومن ثم باعتبارها صاحبة ضربة النصر الأولى في حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة. لا يمكن اعتبار هذا الكتاب «مذكرات شخصية»، وإن كان «مذكرات» بالتأكيد، ذلك أن نائب الرئيس محمد حسنى مبارك لم يجعل من نفسه محوراً لها، ولم يتطرق إلى ذاته إلا في مرات نادرة.

لقد جعل من الكتاب سجلاً لسنوات تطوير القوات الجوية، وانتقالها من الهزيمة إلى النصر.. وبدا خلال تلك الصفحات شاهداً غير معلن أكثر من تقديمه لنفسه على أنه فاعل رئيسي. من المدهش أنه لا يتوقف عند محطات تاريخية مهمة ليروي تفاصيل كيف أصبح مديراً للكلية الجوية ومن ثم كيف عُين رئيساً للأركان وكيف تم اختياره قائداً للقوات الجوية. إن الرواية المؤكدة هي أن مبارك كان في الأساس معلماً مرموقاً في الكلية الجوية قبل أن يصلح قائداً لقاعدة بني سويف، ومن ثم يعود بعد حرب ١٩٦٧ إلى قيادة الكلية الجوية، وصولاً إلى اللحظة التي اقترب فيها

من الفريق محمد فوزي وزير الحربية الراحل.. والذي كان أن رشحه للرئيس الراحل جمال عبدالناصر قائداً لأركان القوات الجوية.. فترقى مبارك من رتبة عميد إلى رتبة لواء في وقت قياسي، وكان قرار عبدالناصر بتعيينه في منصب رئيس الأركان مدوياً في القوات المسلحة وله تأثيرات مختلفة.

مشهدان يركز عليهما حسنى مبارك بشأن نفسه فى تلك المذكرات:

الأول: وهو مهزوم.. يشعر بالظلم الفادح لأنه لم يقاتل.. عاكساً تلك الصورة على كافة الأفراد والقادة في القوات الجوية خصوصاً والقوات المسلحة عموماً.
الثاني: وهو منتصر يثبت بروايته لا بالحديث عن عمله الشخصى كيف أثبت المقاتل المصري جدارته وكيف تمكن من أخذ أسباب العلم والقوة لكي يثأر لنفسه ولأمته.

بدا مبارك حريصاً على عدم التفاخر في هذه الوثيقة، ليس لأنه أصر على أن يكون ملتزماً إلى حد بعيد بالغرض الذي وجد أن الرئيس السادات قد استهدفه.. أي أن يروي قصة الضربة الجوية، ومن ثم تباعد عن أن يكتب سيرة صاحب الضربة الجوية.. ولكن أيضاً لأن تحليل المضمون يثبت أنه ابتعد عن منطق «التفاخر القومي».. وانتهج منذ الصفحات الأولى، وبإصرار، أسلوب التحليل العلمي والواقعي.. وصولاً إلى نتيجة محددة وهي أن ما تحقق من القوات الجوية لم يكن «معجزة» أو «أسطورة».

كان منطق مبارك المعلن لتبرير ذلك، هو أنها إذا كانت «معجزة» أو «أسطورة» فإنها تكون بذلك حدثاً استثنائياً، منحة عابرة، بينما أراد أن يثبت طوال صفحات ذلك الكتاب.. كما فعل توثيقاً.. أن العملية الجوية «صدام» كانت نتاج تقييم وتخطيط ودراسات وتدريب وإصرار وإرادة.. يمكن أن يتكرر إذا تكرر ذات الجهد الذي تم بذله من أجل الوصول إلى هذا النصر.. وإذا تكررت المبررات الداعية لحدوثه.

لقد أخفى مبارك نفسه من مذكراته الأولى، من حيث أنه لم يكتبها بطريقة أنه في يوم ما استدعى أو قابل أو وجه بأمر معين، وفي يوم آخر اجتمع بهذا أو ذاك.. ومن حيث أنه لم يقل قابلت وسمعت وفكرت وقررت وقرأت.. وإنما دونها بطريقة «مسيرة فريق» من الأفراد والقادة، في مختلف قواعد وألوية وأفرع القوات الجوية، وفي سياق منظومة القوات المسلحة برمتها. في هذه المذكرات لم يكتب مبارك عن مبارك، مباشرة،

إلا ثلاث مرات تقريباً، الأولى حين تحدث عن مشهد معاناته من الهزيمة، والثانية حين روى واقعة لجنة التحقيق التي فوجئ بأن شاهدة أمامها قد ذكرت عنه رواية غير صحيحة دون أن تعرف أنه يرأس لجنة التحقيق التي تستمع إليها، تلك الشاهدة كانت فنانة جامعية حضرت حفلاً ساهراً في القوات المسلحة قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧.. وروت لمبارك ما عرفته عن قائد قاعدة بني سويف الجوية.. وكيف أنه لم يكن موجوداً وقت الحرب دون أن تدري أن الذي يحقق معها هو نفسه الشخص الذي تروي عنه تلك الأكذوبة. وكانت الواقعة الثالثة عندما روى مبارك كيف شارك في خطة الخداع الاستراتيجي لمفاجأة الحرب.

عوضاً عن هذا، جعل مبارك من تلك المذكرات مبارزة منهجية متصاعدة بينه وبين القائد الإسرائيلي الجنرال موردخاي هود مخطط وقائد الضربة الجوية الإسرائيلية التي أوقعت الهزيمة بمصر في صباح يوم ٥ يونيو ١٩٦٧. وقد كان هذا الأسلوب اللافت مهماً للغاية في التعبير عن فكرة الكتاب من حيث أنه جعل هذه المواجهة بعض منها، أن تحقق إكساب المذكرات بعداً درامياً صراعياً، يمزج ما بين الشخصي والعام، من حيث أن المواجهة كانت بين قائدين.. أحدهما كسب جولة والثاني يخطط للثأر، ومن حيث أنها كانت بين اثنتين من القوات الجوية المتحاربة، ومن حيث أنها كانت كذلك صراعاً بين بلدين وشعبين.. بين مصر وإسرائيل.

لقد منحت هذه المواجهة التي صنعها مبارك لمؤلفه فرصة أن يحلل ما قام به خصمه، وأن يعطيه بداية الاعتراف بأنه قد حقق مكسباً، ثم يسحب هذا الاعتراف ويهدم هذا المنهج بتأكيد كونه لا يعبر عن ابتكار خاص، ولا يمثل إنجازاً، ويفتقد إلى الشرف، ويستند إلى عوامل مساعدة لو لم تكن متوافرة ما أمكن لموردخاي هود أن يحقق نصره. حيث أعطت المواجهة بهذا الشكل للقائد المصري حسني مبارك فرصة أن يأخذ قارئه خطوة تلو أخرى نحو إعلان انتصاره على القائد الإسرائيلي.. بقصد إبلاغ رسالته الأساسية وهي أن «الإسرائيلي» وما يمثله ليست لديه أية ميزات استثنائية.. وأن «المصري» هُزم لأنه واجه عيوباً نتجت عن «تقصير» وليس لأنه مهزوم بالفطرة، أو لأنه يعاني من «قصور» مولود به كما أرادت هزيمة يونيو -من جانب إسرائيل- أن تقول وتروج.

هنا استخدم مبارك هذه المواجهة، بدهاء مبهر، لكي يؤكد على جِدّة وحداثة الضربة الجوية التي خطط لها ونفذها، وكيف أنها كانت مبتكرة ومبدعة، ونتاج

العقل المصري، وتمثل إضافة حقيقية في تاريخ القتال الجوي.. مقارناً بين أداء القوات المصرية في ١٩٧٣ والقوات الإسرائيلية في يونيو ١٩٧٦. بمقاييس المقروئية العادية تبدو صفحات هذه المذكرات أقرب إلى أن تكون جافة، لأنها لا تتضمن مشهيات القراءة المتوقعة.. فهي لا تتضمن قصصاً وحكايات ومشاهد طريفة.. إلا حين تصل إلى فصلها الأخير.. عندما يحرص مبارك على ذكر عديد من أمثلة البطولات التي قدمها الطيارون والمقاتلون في القوات الجوية.. وكلها احتوت على قيم ملهمة ومآثر خالدة.

في النص الأصلي الذي حرره الأستاذ الشناوي كان أن ضم كل تلك القصص في فصول تحت الباب السابع، ووزع قصص الأفراد بحسب كل فرع في القوات الجوية. تحريرياً كان يمكن أن للمحرر أن يوزع القصص الإنسانية والبطولات المميّزة لأفراد وقادة القوات الجوية التي أوردتها مبارك على مختلف فصول الكتاب.. كان هذا سيوفر فرصاً لمزيد من أساليب الإمتاع أثناء القراءة.. غير أن هذا كان سيخل بالترتيب الأصلي للنص المكتوب، والذي بُنى ترابطياً انتقالاتاً من محور إلى آخر، ومن مرحلة إلى غيرها، ثم توج في النهاية بالفصل الأخير الذي يحكي قصص الأمجاد الشخصية.. وبمنتهى الحرص على أن يبدو ذلك في سياق روح فريق واحد. لقد نقل مبارك الحرب إلى صفحات مذكراته، كما لو أنه كان في غرفة عمليات القوات الجوية، يخطط، وينفذ، ويأمر بالتدريب، ويرقى مستوى التسليح، إلى أن حانت لحظة القتال.. في كل صفحة أو للدقة كل فصل كان يسير بالتفاصيل عبر هذا المسار ونحو هذا الاتجاه.

رسالة و منطق الكتاب:

هي أن الهزيمة ليست قدراً، والنصر ليس صدفة.. وفي سبيل ذلك، ووفق التزامه بمعايير السرية التي كانت مفروضة وقتها حتى على نائب رئيس الجمهورية، فإن محمد حسنى مبارك يشرح في فصول متتابعة كيف تحقق النصر.. وكيف تم التغلب على الهزيمة. وقبل ذلك فإنه بمنهج القوات المسلحة المصرية يقيم ما وقع وأسبابه والدروس المستفادة منه، وطرق علاج الأخطاء، وكيف أمكن امتلاك أدوات الانتصار. لم يكن الطريق إلى النصر سهلاً ويسيراً، كما لم تمر السنوات من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ بسلاسة.. وبقدر ما تبدو مروية الأعوام المريرة عادية وبسيطة ونحن نقرأها الآن بعد أربعين عاماً من النصر، بقدر ما كمنت فيها عوامل قسوة المهمة وعبء الثأر وضخامة العمل وحجم التضحيات. وفي هذه الصفحات كان أن قدم حسنى مبارك ذلك

العمل التاريخي، وهو جانب من بين جوانب العملية العسكرية كلها في أكتوبر ١٩٧٣ كما لو أنه يمكن لأي أحد أن يقوم به.. في حين أنه لم يكن كذلك على الإطلاق.

لعلنا نلاحظ بالاطلاع على هذه المذكرات ما يلي: قبل بناء المقاتل بدنًا وتسليحًا وتدريبًا كانت المهمة الأصعب والأهم هي إعادة بنائه نفسيًا ومعنويًا. في مذكراته أعطى مبارك جهداً عميقاً ومثابراً لكي يشرح ذلك وأهميته ودوره في تأصيل وترسيخ عقيدة القتال، واستنهاض المصري من هزيمته، في ضوء أن الهدف الذي رأى مبارك أنه كان مخططاً من قبل إسرائيل في يونيو ١٩٦٧ هو قهر المواطن المصري خصوصاً والعربي عموماً نفسياً وتنكيس ذاته بحيث لا تقوم لها قائمة من جديد. بخلاف البناء المعنوي، فإن المقاتل بُنى معرفياً، ومن اللافت أن مبارك ركز على أن ردود أفعال المقاتلين وقراراتهم القتالية لا تكون متحصلة فقط من عمليات تدريبهم وتسليحهم وتجهيزهم معنوياً.. بل رأى أنها تعود في الأصل إلى تراكم حضاري يتجمع في لحظة المواجهة ويكون أن ينتج قرارات المقاتل التي تؤدي لانتصار. لم يذهب المصريون إلى حرب أكتوبر فجأة، كما أنهم لم يكونوا قادرين عليها في وقت قصير.. ولم تكن التدريبات وحدها كافية لاكتساب المهارات ونمو القدرات.. وكان المقاتلون بحاجة إلى أن يواجهوا الطيارين الإسرائيليين ليعرفوهم قبل أن يقاتلوهم في معركة الثأر.

من هنا تبدو في المذكرات أهمية وفلسفة حرب الاستنزاف التي يشرح مبارك مبررها التكتيكي بطريقة لم تكتب من قبل، ويصفها بأنها «جامعة» كان لا بد من الالتحاق بها قبل التقدم إلى نصر أكتوبر.

إن مشاركة أكثر من مائتي طائرة في أولى طلعات الضربة الجوية في الساعة الثانية وخمس دقائق يوم ٦ أكتوبر لم يكن سوى قمة جبل الجليد.. وحتى يسيطر المقاتل على عنان السماء وهو في مواجهة خصمه فإن عشرات من التفاصيل المعقدة على الأرض، وبين السماء والأرض، لابد أن تكون قد تمت.. بدءاً من إعادة بناء المطارات وتوزيعها وحمايتها وطريقة التجهيز الفني للطائرات وإعادة تطويرها وتحديثها وتدريب الأطقم المعاونة.. ومن أهمية هذه المذكرات أنها تشرح ذلك تفصيلاً.

قد يكون لأول مرة يذكر مبارك تفاصيل الدور الذي قام به علمياً في مرحلة توليه إدارة الكلية الجوية.. ويوثق ما أنتجه الفكر العسكري العلمي المصري خلال الست سنوات ظهيراً للضربة الجوية وفي الطريق إليها. وعلى الرغم من أنه اهتم في

مواضع مختلفة من تلك المذكرات بانتقاد الفكر العسكري القديم والبالى الذي أدى إلى هزيمة ١٩٦٧ فإنه يدهش قارئه بذكر فائدة إعادة إحياء أفكار عسكرية قديمة وتوظيفها في ضوء الإمكانيات المحدودة لتحقيق أهداف جديدة. مثال ذلك استحياء الدفاع الجوي بأسلوب البالون ودراسة ذلك في الكلية الجوية.

لأن عصر المعجزات انتهى، ولأن الطريق الوحيد لتحقيق النجاح والأهداف المخطط لها في أي مجال هو الإيمان بالعلم واستيعاب تكنولوجيا العصر وإتقان العمل الجاد. وهو ما يوضحه بالقول: «إذا كان عدونا الجوي قد وقع في خبيثة الوهم بأن عملية (طوق الحمامة) -التي نفذها ضدنا صباح 5 يونيو- 1967 كانت معجزة عبقرية نادرة التكرار.. فإننا -نحن الطيارين المقاتلين المصريين- قد رفضنا ذلك الزعم المغرور حين صدره العدو للعالم عقب معارك 1967، ورفضنا الاستسلام لدواعي اليأس الذي كنا معرضين له -لو أننا سلمنا بأن ما فعله العدو يومها معجزة- وانطلاقاً من هذا الرفض، وإيماناً منا بأن باب العلم مفتوح للجميع، سرنا على الدرب الموصل للهدف، بعد أن وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيح الذي انتهى بنا إلى تحقيق الضربة (صدام)».

يستشهد «مبارك» بما دار في ندوة عقدتها أكاديمية ناصر العسكرية العليا لدراسة حرب أكتوبر، وتحدث فيها الجنرال «أندريه بوفر»، خبير الاستراتيجية القتالية، عن رأيه العلمي في قواتنا الجوية في هذه الحرب بقوله: «لقد كان الدرس المهم في حرب رمضان هو أن القوات الجوية المصرية أحسنت انتشارها وحمايتها، فتمكنت من الاستمرار في العمليات وحرمت الخصم بذلك من التمتع بميزة كبرى هي التفوق الجوي، أو السيطرة الجوية».

ثم ينتقل مبارك للحديث عن رجال القوات الجوية الذين أفرد لهم فصلاً كاملاً في كتابه شارحاً ما قاموا به وكيف أنهم أصحاب الفضل في ذلك النصر الجوي، فيقول: «عندما نتحدث عن دور التشكيلات الجوية في حرب أكتوبر، فإننا نعني أسلحة الطيران بأنواعها المختلفة. ونتحدث عن البطولة والإقدام والتضحية والفداء.. نتحدث عن الرجال الذين صنعوا التاريخ بجسارتهم وأرواحهم.. عن الطيارين والفنيين وأطقم وأفراد التشكيلات الجوية الذين ضحوا بأرواحهم لنصرة الوطن، ولرفعة شأن قواتهم الجوية. إنهم المنفذون لأعمال القتال والبطولة.. العاملون في صمت.. المنفذون لما

أمرتهم به قيادتهم.. الواثقون من أن قيادتهم تعمل وتخطط وتقودهم للنصر.. للعزة.. للكرامة. إنهم المنتظرون لساعة الصفر بشوق زائد، وعلى أحر من الجمر.. ليثأروا وليثبتوا المعدن الأصيل للطيار المصري. أعنى هنا تشكيلات القوات الجوية بأنواعها، وحدات المقاتلات، وحدات المقاتلات القاذفة، وحدات القاذفات، وحدات الاستطلاع، وحدات النقل والهليكوبتر.

من شاهد ما فعله هؤلاء الأبطال:

خلال جميع المراحل التي سبقت استعدادهم للحرب، يفخر بأبناء مصر، الذين عملوا بتفانٍ وإتقان في نظام دقيق وتعاون وثيق.. لقد كان لهم هدف واحد، محدد وواضح.. هو النصر. كان على القوات الجوية في حرب أكتوبر العمل على تحقيق عدة أهداف، أهمها توفير الحماية الجوية للقوات البرية والأهداف الحيوية بالدولة، ضد ضربات العدو الجوي وطائرات استطلاع، بالتعاون مع قوات الدفاع الجوي المصري. كذلك القتال من أجل الحصول على التفوق الجوي المحلي. مع تأمين أعمال قتال الأنواع الأخرى من طائراتنا ضد تدخل مقاتلات العدو طوال فترة العمليات. وتدمير قوات العدو المنقولة جواً. ولذا ومع فجر يوم الأحد 7 أكتوبر، كانت قواتنا الجوية على يقين من أن العدو سيوجه هجماته الجوية ضد قواعدها الجوية، وكانت مقاتلاتنا جاهزة ومستعدة تماماً، بالتعاون مع وسائل الدفاع الجوي.

هو ما يحكي عنه «مبارك» قائلاً: «بالفعل حدثت الهجمة الجوية المعادية الأولى في الساعة السابعة صباح يوم 7 أكتوبر، بقوة تزيد على ثمانين طائرة، جاءت على ارتفاعات منخفضة جداً؛ إذ كان العدو يظن أنه قادر في عام 1973 على تحقيق النجاح الذي حققه عام 1967.. لكنه فوجئ بأعداد ضخمة من مقاتلاتنا يقودها الطيارون المصريون الأبطال، تهاجمه بعنف من كل اتجاه، وتمكنت مقاتلاتنا بالتعاون الرائع مع وسائل دفاعنا الجوي من شل العدو ومنعه من تحقيق أي هدف من أهدافه، وأجبرته على التخلص من قنابله وصواريخه مع ذري الرياح في الحقول والصحاري، وعاد الجزء الذي نجا من طائرات العدو بالخبيبة، مكتفياً بالفرار ذعراً.

في هذه الضربة الانتقامية، كان العدو يوجه هجومه ضد سبعة مطارات وضد وسائل دفاعنا الجوي في العمق، لكنه فشل في الوصول إلى أهدافه.. عدا عدد محدود من طائراته، أمكنها الوصول إلى مطارين فقط من مطاراتنا وتلقفتها وسائل دفاعنا

الجوي، من صواريخ ومدفعية مضادة للطائرات، ولقنتها درسًا قاسيًا، لاذت على أثره الطائرات المعادية بالفرار. ثم نفذ العدو هجمة جوية أخرى في الواحدة والنصف من اليوم نفسه، ولقنته مقاتلاتنا درسًا آخر، فلم تصل هذه المرة طائرة واحدة معادية إلى هدفها، وعادت كالقطيع المذعور دون تنظيم، مخلفة وراءها خسائرها الكبيرة من طائرات الفانتوم.

مر يوم 8 أكتوبر دون أن يجرؤ العدو الإسرائيلي على تكرار الهجوم الجوي على مطاراتنا، لكنه عاد لضربها يوم الثلاثاء 9 أكتوبر، غير أنه لم يقوَ إلا على ضرب مطارين فقط. بعدئذ تركز مجهود مقاتلاتنا المصرية في صد الهجمات الجوية المركزة للعدو. التي تكثفت من اتجاه الشمال والشمال الشرقي والجنوب الشرقي، التي كان العدو يحاول القيام بها بغرض شل قواعدنا الجوية ومطاراتنا، لإخراج قواتنا الجوية من المعركة، حتى يتسنى للعدو التعامل بحرية، باستخدام قواته الجوية ضد قواتنا البرية، وضد شبكة دفاعنا الجوي للقضاء عليها تدريجيا من الأجناب اتجاهي الشمال والجنوب. لكن لعبت المقاتلات أروع أدوارها في سد الثغرات التي أحدثها العدو في شبكة الدفاع الجوي، خصوصًا في قطاع بورسعيد، حتى استعادت كفاءتها القتالية، ثم في منطقة الثغرة في الدفرسوار وعلى الجانب الأيمن للجيش الثالث في فترات محددة، كما نجحت مقاتلاتنا في تنفيذ هذه المهمة بصورة منقطعة النظير، بفضل وسائل الإنذار المتوافرة، ولم تستطع طائرات العدو إصابة طائرة واحدة من طائراتنا على الأرض، ولم يتعطل أي من مطاراتنا إلا لفترات محدودة للغاية على الرغم من سبع محاولات حاولها العدو حتى يوم الاثنين 15 أكتوبر لقصف مطاراتنا، لكنها فشلت جميعًا.

يقول «مبارك» «لم تحدث إلا بعض الخسائر الطفيفة، حدثت في ممرات قواعدنا الجوية، وسرعان ما حاصرها مهندسو المطارات وأفراد مجموعات إصلاح الممرات وإزالة القنابل، وأعادوا مطاراتنا لحالتها الطبيعية، وليس من المبالغة في شيء إذا قلنا إن مطاراتنا جميعها، وبلا استثناء، ظلت صالحة للطيران طوال فترة العمليات. وخلال الفترة من 16 أكتوبر حتى 22 أكتوبر قام العدو الجوي بتنفيذ ثلاث محاولات فقط وضد مطار واحد فقط في كل مرة. وكان من الواضح أن العدو قد أيقن وتأكد من فشله في إخراج قواتنا الجوية من المعركة الكبرى كما حدث في حرب 1967. واستمرت وحدتنا المقاتلة في تنفيذ مهامها بكفاءة عالية وبجرأة تفوق الوصف، طوال 22 يومًا في قتال شرس.

وبعد فشل العدو المتتالي، ومع تطور الجيب المعادي (الثغرة) في الدفرسوار، وبعد أن تم للعدو استعواض خسائر طائراته من أمريكا، حاول الحصول على التفوق الجوي المحلي بالمنطقة، لمعاونة قواته بالجيب وحمايتها، وضرب قواتنا البرية. إلا أنه وجد في مقاتلاتنا خصماً عنيداً منعه من تحقيق أهدافه، وقايلته بإصرار وعزم، وكثرت في تلك الفترة المعارك الجوية، وزادت وطأتها، حتى إن بعضها استمر لأزمة قياسية».

حدث هذا رغم فارق القدرات في الطائرات وعددها، لكن كان مقاتلون يتعاملون بمبدأ الند بالند. على سبيل المثال رغم الفارق الكبير بين قدرات «الميراج» و«الميج 17» فإن الأخيرة تمكنت من إسقاط عدد من طائرات «الميراج»، ونشرت الصحف العالمية وقتها صور هذه الطائرات «الميراج» وهي تتهاوى مشتعلة بنيران «الميج 17». ليس هذا فقط، لكن إسرائيل عوّضت خسائرها الضخمة في الطائرات والمعدات من خزانة السلاح الأمريكية التي أمدتها بطائرات «فانتوم» معدلة وصواريخ وقنابل موجهة ذات كفاءة عالية، في الوقت الذي لم تعوض قواتنا الجوية بشيء من خسائرها، وهو ما ساعد القوات الإسرائيلية على التسلل إلى منطقة الثغرة بالدفرسوار، كما يقول «مبارك»، وهو ما زاد الطيارين المصريين تمسكاً بإيمانهم وصمموا على الصمود والتغلب على هذا التفوق الآلى بروحهم العالية، وكان القتال مستميتاً.. وكان التنسيق بين مقاتلاتنا القاذفة، ومقاتلاتنا فعالاً ودقيقاً.. وكانت ضرباتنا مركزة اعترف العدو بعنفها ونتيجة هذا القصف، تم تدمير أعداد ضخمة من الدبابات المعادية، وفقد العدو أعداداً كبيرة من القتلى ومعبرين من معابره في منطقة الدفرسوار.

يشير «مبارك» إلى مقال كتبه أحد مراسلي الصحف الإسرائيلية، أثناء وجوده بمنطقة الثغرة، ذاكرًا فيه العبارة التالية: «أما قصف المدفعية فشيء تعودنا عليه، وأما هذا القصف الجوي فشيء مفزع». وينتقل «مبارك» للحديث عن الدور الذي لعبته الطائرات الهليكوبتر في حرب أكتوبر، مؤكداً أنها لعبت دوراً فعالاً بعد ساعات قليلة من بدء المعركة عبر نقل كئائب بأكملها لإسقاطها خلف الخطوط الإسرائيلية، وكانت هذه الوحدات من الكوماندوز المصريين، شأنها في ذلك شأن قوات المشاة على طول القناة، مجهزة بالصواريخ المضادة للدبابات. وإمداد القوات الخاصة في منطقة البحر الأحمر أيام 8 و 11 و 12 و 14 أكتوبر بشكل سمح لهذه الوحدات بالاستمرار في قتال العدو وإرباك خطوطه الخلفية. بالإضافة لاستطلاع العدو والتعامل مع دباباته

في أيام 16 و17 و18 و27 أكتوبر. وإمداد قوات الجيش الثالث الميداني، شرق قناة السويس، بجميع ما يلزمه من احتياجات، خلال الأيام الأخيرة من عملية «الثغرة» في الدفرسوار.. وذلك خلال يومي 25 و27 أكتوبر وقصف مستودعات بترول بلاعيم.

ثم ينتقل «مبارك» في حديثه لتخليد أعمال ومواقف بطولية شهدتها حرب أكتوبر؛ فيقول: «إذا أردنا أن نسجل تلك الأعمال البطولية جميعها فإن الأمر سيحتاج إلى مجلدات ومجلدات حتى يمكن إعطاء كل ذي حق حقه. إن استعراض عدد من صور البطولة، لا على سبيل الحصر، بل كمجرد نماذج لما حققه مقاتلونا الطيارون خلال عمليات السادس من أكتوبر، والوفاء بالعهد الذي قطعه الرجال على أنفسهم، أن يكون مصرهم الغالية -ولأمتهم العربية جمعاء- درع جوية تحميها. لا بد من وقفة أمام التاريخ.. ليس فيها افتعال.. أو تصنع.. فأمام الموت.. وأمام التضحية بالنفس يصعب ذلك كله. لا بد من وقفة إجلال أمام موقف لا ينسى، لبعده الإنساني أولاً، ولمدلوله الحضاري والقومي ثانياً».

يتوقف «مبارك» هنا ليحكي لنا كيفية تلقيه نتائج الضربة الجوية الأولى في يوم السادس من أكتوبر، فيقول: «كنت أتلقى التمام من القواعد الجوية والمطارات، التي اشتركت في تنفيذ الضربة الأولى (صدام)، وعلمت أن شهيدي هذه الضربة الناجحة هما: المقدم طيار كمال والرائد طيار عاطف. ورغم سعادتي البالغة بالنتائج الرائعة التي حققتها (صدام) ضد العدو، فقد كان ألمي بالغاً لفقد الطيارين اللذين كانا -رحمهما الله- من أكفأ طياري القتال المصريين. أسرع بابلغ نتائج (صدام) للقيادة العامة للقوات المسلحة، وكنت أعلم أن الرئيس السادات -بوصفه القائد الأعلى- قد اتخذ مكانه على رأس هيئة القيادة في مركز العمليات الرئيسي لقواتنا المسلحة قبل أن تبدأ عمليات السادس من أكتوبر، وكان علمي بهذه الحقيقة سبباً في إحساسي بالحرج وأنا أبلغ المغفور له المشير أحمد إسماعيل بنتائج الضربة الجوية وباسمي الشهيدين».

عاطف السادات يقول «مبارك» «إن عاطف السادات، في البدء والنهاية، طيار قاتل كغيره من رجال سلاح الجو المصري له ما لهم من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات، وألمنا لفقده هو نفس الألم الذي يعتصنا لفقد غيره من شهداء قواتنا الجوية، لكن أنور السادات بشر في النهاية، ومن حقه أن يشعر بأحاسيس غيره من البشر، عندما يفاجأ الأخ الأكبر بنبأ استشهاد أخيه الأصغر، الذي كان بالنسبة له

في مكانة الابن العزيز.. لا شك أن هذا الإحساس بالحرّج، والفهم الإنساني للطبيعة البشرية، والتقدير المرهف لحساسية الموقف، هو الذي دفع المشير إلى احتباس خبر استشهاد عاطف السادات عن شقيقه أنور السادات بضعة أيام.

موقف إنساني من المشير أحمد إسماعيل، لعله أراد به أن يجنب القائد الأعلى امتحانًا صعبًا في اللحظة التي كان على الرئيس السادات أن يتحمل فيها مسؤوليته التاريخية وهو في القيادة، في اللحظة التي يواجهون فيها قدرهم وقدر أمتهم العربية وشعبهم المصري، ليجيبوا عن السؤال الرهيب، الذي ظل يتردد -منذ عام 1967- في أعماق الشخصية العربية، سؤال رهيب يقول: هل نحن موجودون، أم غير موجودين؟ وفي مواجهة هذا السؤال المصري، فليس من الحكمة أن يتعرض القائد الأعلى لأي اهتزاز -حتى لو كان عاطفيًا تمليه الطبيعة البشرية، ورابطة التراحم الأسري بين الأخ الأكبر وأخيه الأصغر- هكذا قرر المشير أن يحبس الخبر عن قائده الأعلى حتى تتضح معالم الموقف العسكري على الجبهة تمامًا، وعندما سنحت الفرصة، أعلن المشير الخبر لقائده الأعلى، ليجد نفسه أمام تصرف لا يصدر إلا عن إنسان له عمق أنور السادات، وشخصيته متكاملة العناصر، عميقة الأبعاد. حزن الرئيس حين أبلغ بخبر استشهاد عاطف السادات في الضربة الأولى. لقد كان حزن الأخ الأكبر (أنور) على أخيه الأصغر (عاطف) عميقًا.. لكن لمحة الحزن التي أطلت من عينيه يومها -وشهدها كل الحاضرين في غرفة العمليات الرئيسية- خالطها، ثم طغى عليها في النهاية، إشعاع من العاطفة الأبوية الشاملة، التي ظلت كل المقاتلين واحتضنت كل الشهداء، وأطلقها الرئيس في عبارته المؤثرة: «كلهم أولادى».

بطولات الرجال :

ينتقل «مبارك» بعد الحديث عن عاطف السادات وخبر استشهاد، في اليوم الأول للحرب، للحديث عن بطولات رجال القوات الجوية التي هدمت الغرور الإسرائيلي. فيقول: في السادس من أكتوبر، وأثناء الضربة الأولى المركزة التي حطمت روح الطيران الإسرائيلي وأعادته إلى حجمه الطبيعي، أصيبت طائرة المقاتل الطيار (نجيب...) بدانة مدفع مضاد أطارت غطاء كابينته الطائرة وأصابته هو بجروح سطحية في وجهه، لكنه لم يبلغ عن الحادث ولم يطلب العلاج، بل بدأ بمجرد هبوطه في قاعدته إجراءات التزود بالوقود والذخيرة ليشتبك في باقى طلعات ذلك اليوم، ولم يكتشف أمره إلا بعد

أن حققت الضربة أهدافها وسمح للطيارين بالقليل من الوقت والراحة قبل بدء المهمة التالية. وفي نفس اليوم أيضًا وفي نفس العملية، حدث نفس الشيء للمقاتل الطيار (فوزى...) أثناء عودته بعد ضرب مطار بير تمادا، لكن أمره اكتُشف لحسن الحظ فصدرت له الأوامر الصارمة بالراحة جبريًا، لكنه بعد 24 ساعة تقدم بتظلم أقرب إلى الرفض منه إلى الرجاء، نوه فيه بأنه سيقضي ما بقى من حياته فاقدًا احترامه لنفسه لمرور يوم وليلة من عمر المعركة دون أن يفعل شيئًا، حتى إذا ما أُجيب إلى طلبه، حرص بعد عودته من كل عملية على المشاركة في العملية التي تليها، وكأنما يعوض ما فاتته من عمليات. ويحدث نفس الشيء، وما أكثر ما حدث للمقاتل الطيار (حسن...) في الثامن من أكتوبر؛ فبعد أن تمكن من إسقاط طائرة للعدو، أصيبت طائرته بصاروخ معادٍ أثناء عودته، فوثب بالمظلة وعاد سيرًا على قدميه إلى حيث التقطته قواتنا الأرضية وأعادته سالمًا إلى قاعدته قبل الغروب. وكان حتمًا أن يحال إلى القومسيون الطبي ليحدد المدة الكافية لعلاج الكدمات والجروح التي أصيب بها.. وأحيل فعليًا رغم إلحاحه في طلب إعفائه من ذلك، لكنه لم يكف عن التوسل للأطباء حتى يطلقوا سراحه كما كان يقول فأجيب إلى طلبه بعد 24 ساعة ليشارك في عدة عمليات ناجحة قبل أن يحظى -بعد ذلك- ببقاء ربه شهيد إيمانه وحبه لوطنه. يحكى «مبارك» عن لون آخر من ألوان الإصرار وروح القتال التي جعلت من مقاتلي القوات الجوية مضرِبًا للأمثال قائلًا: «عندما رزق المقاتل الطيار (فهى...) بمولودته الأولى، وبادرت قيادته بمنحه إذنًا ليراهها ويطمئن على سلامة الأم، رفض ابن السادسة والعشرين أن يبعد عن قاعدته ولو لساعات، خشية أن تفوته المساهمة في إحياء مهرجان الانتصارات الذي أقامه مع زملائه ابتداء من السادس من أكتوبر. وتمخض هذا التكالب على الاشتراك في العمليات، من جانب الطيارين، عن ابتكار الكثير من الحلول لبعض المشكلات؛ فالمخالفات الصغيرة مثلًا، التي لا تخلو منها قاعدة جوية أو غير جوية، أمكن القضاء عليها تمامًا، وبين الطيارين بالذات، بجزء طريف ابتكره أحد قادة القواعد لينتشر بين القواعد جميعًا، هو الحرمان من طلعة أو أكثر من طلعات القتال.

كانت المشكلة الدقيقة التي عاناها القادة أثناء الحروب الجوية ممثلة في حتمية اختيار الطيار المناسب للعملية المناسبة من حيث هي تدمير أهداف جوية أو اكتساح مدرعات أو ما إلى ذلك، حتى ابتكر قادة القواعد حلًا طريفًا للمشكلة يتلخص

في استدعاء الطيارين جميعًا إلى غرفة عمليات القاعدة لتلقيهم تفاصيل العملية، في نفس الوقت الذي يجري فيه تجهيز العدد المطلوب فقط من الطائرات للطلعة وهي داخل دشمة، حتى إذا ما انتهى التلقين وهرع الطيارون كلٌّ إلى دشمة، حظى البعض بالمهمة وعاد الباقون ضاحكين حيث يجدون الدشم التي حددت لهم خالية بلا طائرات». إلى هذا الحد هانت الأرواح في سبيل الحصول على المجد للبلاد.

إلى هذا الحد كان الرجال يسارعون للشهادة أو النصر يعرفون مسئولياتهم الواجب أداؤها؛ لذا لم يكن ابتكار حل المشكلات وقفًا على القادة؛ فقد ابتكر المقاتلون الطيارون لأنفسهم حلًّا لمشكلة المشكلات في القتال الجوي، هي مواجهة العدو والدخول في المعركة الجوية بلا ذخيرة. وهو ما يقول عنه «مبارك»: «الحل المبتكر جاء عفواً، وأما السبيل إليه فكان روح القتال الكامنة في طيارينا؛ إذ اهتدى طيارونا المصريون إليها في أول مناسبة برزت فيها المشكلة بالمناورة في الجو وركوب الطائرات المعادية بتشكيل الطائرات المصرية فكانت طائرات العدو تسارع بالهرب من صواريخ لا وجود لها. وهو الحل الذي قام به الطيار نجيب وسبق الحديث عنه في ابتكار تمتاز فيه الشجاعة بالسخرية المصرية اللاذعة من العدو».

يواصل «مبارك» حكيه عن بطولات الرجال فيقول: «في الثامن عشر من أكتوبر خرج تشكيل من 4 طائرات بقيادة المقاتل الطيار (حيدر) ومعه كل من (محب ورضا وفتحى)، في مهمة لتدمير عدد من الأهداف الحيوية في عمق سيناء، لتعترضه أثناء العودة بعد أدائه لمهمته مقاتلات العدو، وهو على بُعد 40 كيلومترا شمال العريش، وإذا كان التشكيل المصري قد بوغت وهو بلا ذخيرة للدفاع؛ فقد كان في هذه المرة بلا وقود يكفى للمناورة الخداعية ثم العودة إلى قاعدته؛ لذا أصدر قائد التشكيل، المقاتل الطيار (حيدر...) أمره إلى زملائه بمواصلة العودة إلى القاعدة دون اشتباك، وانفصل هو عن التشكيل واتجه رأساً صوب العدو، وراح يشغله بالكر والفر وهو أعزل تماماً، حتى تمكنت مقاتلات العدو منه بعد عناء، فأسقطته شهيداً مضحياً بحياته ثمناً لحياة زملائه».

العمليات الخاصة :

يقول «مبارك» في «كلمة السر»: كثير من الناس لا يعرف عن العمليات الخاصة إلا اسمها. قد لا يعرف الكثيرون أنها واجبات ينفرد كل منها بوضع خاص، سواء من

حيث التعرض للمخاطر أو من حيث الآثار المترتبة على النجاح أو الفشل في أداء العمليات الخاصة بالبر أو البحر. مسئوليات جسام تتطلب من المقاتل الطيار أسمى مستويات الإخلاص للعمل والصدق في الأداء والشجاعة في مواجهة الخطر. تلك عناصر توافرت بغزارة في مقاتلينا الطيارين طوال معارك أكتوبر التي قامت أكثر ما قامت على العمليات الخاصة التي عُهد بها لسلاحنا الجوي فأثبت كفاءة عالية في هذا النوع من عمليات القتال التي خضناها للمرة الأولى في تاريخنا؛ ففي السادس من أكتوبر، وبينما الضربة المركزة الأولى تفتح أبواب الجحيم وتصلى العدو ناراً من الجو، كانت عدة تشكيلات من تسع عشرة طائرة هليكوبتر ضخمة، بقيادة المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«زكى...» و«محمود...» و«سعيد...» و«عمر...» و«حسن...» و«سمير...»، تسقط جنود الصاعقة البواسل شمال قلعة الجندي وشرق رأس سدر ووراء الممرات، للعمل خلف خطوط العدو بما يربكه ويوقعه في الحيرة التي حطت من روحه.

تلك القوات التي تم إنزالها لا يزال العالم يتغنى بإنجازاتها؛ لأن معظمها لم يعد إلا بعد شهور ثلاثة من بدء العمليات، وقد كانت نقطة الانطلاق الأولى في هذه العملية البطولية هي نجاح طائرتنا في توصيل هذه القوات إلى أهدافها. كان بديهاً أن تجد هذه القوات الخاصة حاجتها من الذخيرة والغذاء والماء، وكان الحل عند سلاحنا الجوي الجديد، الهليكوبتر؛ فعن طريق العمليات الخاصة أقام هذا السلاح جسراً لإمداد قواتنا البرية الخاصة حيثما وُجدت عبر طرق جوية عجز العدو عن اكتشافها، ابتداء من الثامن من أكتوبر، وفي تشكيلات سريعة الحركة بقيادة مقاتلين طيارين كانت خبرتهم بهذه العمليات جليلة الأثر تتصاعد باستمرار، من أمثال المقاتلين الطيارين «عمر...» و«حسن...» و«بهي...» و«أبوشهبة...» و«سمير...» وغيرهم. نوع آخر من العمليات الخاصة اضطلعت به طائرتنا الهليكوبتر، تجاوز مجرد إبرار القوات الخاصة وإمدادها، إلى تدمير الأهداف أيضاً؛ ففي الحادى عشر من أكتوبر عندما تقرر الحد إلى أقصى درجة ممكنة من نشاط مدرعات العدو بحرمانها من البترول، عصب الحرب الميكانيكية.. انطلقت أربعة تشكيلات من طائرات الهليكوبتر بقيادة كل من المقاتلين الطيارين «شمس...» و«رفيق...» و«أحمد...» و«علي...» في الصباح، ثم تلتها أربعة تشكيلات أخرى بقيادة كل من «جلال...» و«محمد...» و«سيد...» و«محسن...» إلى حيث دمرت مستودعات البترول بسيناء، فحرمت العدو بهذه العملية التدميرية الناجحة من مصدر حيوى للوقود.

يمثل تلك الروح في القتال بين طيارينا وذلك المستوى من التدريب والكفاءة، تمكن هؤلاء الطيارون من تحقيق أعمال تعتبر قياسية في مجال الحروب الجوية. منها على سبيل المثال عدد الطلعات الجوية في اليوم الواحد. كان الرقم القياسي 4 طلعات حققها طيارو سلاح الطيران البريطاني، أثناء مطاردة قوات المحور، وهي في انسحابها التاريخي من شمال أفريقيا. وقد تخطت قواتنا الجوية المصرية هذا الرقم ولأكثر من مرة بعدد من الطلعات وصل إلى 6 طلعات كان يحققها الطيار الواحد في اليوم الواحد، دون أي بادرة من بؤادر الإجهاد أو الإرهاق. كذلك في مجال إسقاط الطائرات الأكثر تفوقًا أثناء القتال الجوي، بلغ طيارونا الذروة، لا في عدد ما أسقطوا من طائرات معادية أكثر تفوقًا من طائراتهم فحسب، بل على مدار حرب بدأت دون أن يدري أحد متى سيقدر لها أن تنتهي. كما حقق العشرات من طيارينا أرقامًا قياسية في عدد إسقاط الطائرات المعادية الأكثر تفوقًا. ويتحدث «مبارك» عمّا يعتبره قياسًا في أكثر من مجال من مجالات الحروب الجوية، فيقول: كان ينتاب بعض الطيارين حالة من فقدان الصبر، والاستجابة للحماس وروح القتال، عندما ينجح العدو في الوصول إلى إحدى قواعدنا الجوية، فما من مرة هوجمت القاعدة التي يعمل منها كل من المقاتلين الطيارين «ضيف الله...» و«المنصوري...»، إلا وهربا إلى طائرتيهما وانطلقا تحت القصف، إلى حيث يشتبكان مع العدو الجوي في معركة إن لم تنته بإسقاطه، فبإرغامه على التخلص من حمولته المدمرة بإلقائها فوق الحقول، والعودة هاربًا دون أن يحقق أهدافه ضدنا. ولا أنسى ما دأب عليه كل من المقاتل الطيار: «فهمي...» و«نصر...» و«عادل...» و«تحسين...» و«شكري...» من عدم فتح نيرانه على عدوه، بعد التمكن منه، إلا وهو على أقرب مسافة ممكنة منه، لدرجة أن شظايا العدو في كثير من المرات، إثر انفجارها في الجو، أصابت طائراتهم إصابات لم تعقها عن مواصلة الطيران. لا ينسى «مبارك» الإشارة لقوات كانت مهمتها تسهيل مهام هؤلاء الطيارين فيشير إلى معلومة حربية مفادها أن كل طيار يطير في الجو، يقابله بين 18 و20 مهنة تخدمه على الأرض.

بين متخصصين في الإعداد الهندسي للطائرة، وآخرين لتأكيد سلامتها وتحميل لأسلحتها وتزويدها بالوقود والذخيرة وصيانة أجهزتها المختلفة. كما يسهر على تأمين سلامة الطائرة ملاح لتوجيهها على شاشات الرادار، ومراقب جوي لتنظيم إقلاعها

وهبوطها من برج المراقبة، وخلف هؤلاء مهندسون وميكانيكيون وعمال في مهن فنية عديدة يصلحون ما يصيب كل طائفة من أعطال. وآخرون قابعون في مخازنهم، لإمداد الأسراب والورش بما يلزمهم من عتاد أو مهمات أو قطع غيار، وآخرون في مكاتبهم، يديرون دولا العمل في أجهزة التخطيط ووحدات التنفيذ. وهو ما يقول عنه: كل هؤلاء كانوا بمثابة خلية النحل، لا يكل فرد فيها عن العمل، وشأن كل خلية لها طلائع.. يصنعون النصر بالتضحية بأرواحهم، ويعطون الحياة صفة الاستمرار بهذه التضحيات. كان كل من هؤلاء يفكر في سلامة الطائرة وسلامة الطيار وسلامة الممر قبل أن يفكر في نفسه، ومن ثم شحذت همهم، فجاءت نتيجة الأعمال التي قاموا بها خلال المعارك وفق ما نعرف الآن. وكما ذكرت المقاتلين الطيارين فإنني أذكر بعضاً من بطولات غيرهم، لا من باب الفخر والإعجاب، ولكن من باب التذكرة والاستفادة.. كان الأعداء يستهدفون دشم الطائرات، وكانوا يستهدفون الممرات لتعطيلها توهماً منهم أنهم قادرون على تكرار ما حدث في 5 يونيو 1967، وتساقطت بعض القنابل على الممرات، وتساقط الكثير من صواريخ العدو وقنابله بعيداً عن الممرات والدشم. لكن لم يتعطل مطار واحد أكثر من ساعات معدودة، استكمل بعدها قدرته على الدفع بطائراته إلى سماء المعركة التي فوجئت بها إسرائيل. ولقد تمخضت خسة إسرائيل في لحظات اليأس عن استخدام القنابل الاهتزازية، التي تنفجر بمجرد حدوث أي حركة بجوارها؛ لذا لعبت البسالة المصرية دورها، حتى لا تهتز القنابل أو تنفجر أمام طائرة أو أمام دشمة بجوارها.

كمثال على بطولات أبنائنا أذكر رئيس الوحدة المسئول عن إزالة القنابل وتطهير الممرات منها، وهو يغادر مكتبه في القاهرة، وينطلق إلى إحدى القواعد الجوية التي تساقطت فيها القنابل حول الممر، ليباشر التطهير بنفسه، ويظل يواصل الليل بالنهار لأن القنابل كانت تعد بالعشرات، وكان بعضها غائماً في الطين على بُعد أمتار، فظل يواصل الحفر وراءها حتى تم نزع كل ما أسقطه العدو من قنابل، وتم تأمين المطار. قائد وحدة تطهير آخر تقدم نحو موقع سقطت فيه قنبلة، فتنفجر فيه لأنها كانت من النوع الاهتزازي، ويتقدم من يليه في الرتبة، فيلقى نفس المصير، ثم يتقدم من يليه، وهكذا.. حتى أصبحت الوحدة تحت قيادة ملازم.. وأخيراً تم التطهير، دون أن تتوقف العمليات؛ لأن الجميع كانوا مؤمنين بحتمية مبدأ جديد اسمه «الاستمرار».

أذكر سائق وحدة ميكانيكية تقدم من الممر، وعرف أن عددًا من زملائه لقوا حتفهم وهم يطهرون الممر من قنابل اهتزازية، فيسرع بعربته نحو قنبلة باقية كانوا يشيرون إليها، ويلقي نفس مصيرهم، حتى لا يستمر تعطيل الممر عن الطيران. ويتمزق جسده، مع أجزاء العربة، وتتوقف حياة البطل الشهيد، لكي تستمر قواته الجوية في الحياة.

يوصل «مبارك» الحديث عن همم الرجال الأبطال الحقيقيين الذين لا يذكر أسماءهم كاملة، أو لا يذكرها على الإطلاق، لكنه يعلم بما قاموا به فيخلد مواقفهم. فيحكي عن دور أبطال آخرين كانوا خلف عدم تعطل أي مطار أكثر من بضع ساعات، فيقول: كانت هناك عملية إعداد فوري واستعدادات وتحضيرات خاصة يطلق عليها مهندسو الممرات «الخلطة الساخنة»، والأسمنت سريع الشك. لم يكن العدو يدري أن مصر كلها تحارب، وأن مصر كلها تساند جيشها.

كانت الخلطة الساخنة تُصنع في كل موقع وبجوار كل مطار، وتقوم بتجهيزها شركات ومواقع عمل مدنية كانت على أهبة الاستعداد، وسواعد مدنية كان أصحابها لا يقلون فدائية واستعدادًا للبذل عن المقاتلين الرسميين. وكانت أجهزة نقل متخصصة تعمل لإحضار هذه «الخلطة الساخنة» على وجه السرعة، لردم ما في الممرات من حفر، وفي كل قاعدة جوية أو مطار توجد وحدة لديها آلاتها ومعدات لها وضباطها وجنودها، المسئولون عن إعادة تجهيز الممرات.

هؤلاء ضربوا أروع أمثلة النشاط، ومواصلة الليل بالنهار، لجعل الممرات جاهزة لإقلاع الطائرات وهبوطها باستمرار، وخلال ثغرة «الدفرسوار» تركزت غارات الأعداء على أحد مطارات شرق الدلتا، وتساقطت عليه مئات القنابل، وتعطلت ممراته أحيانًا، لكن كان العدو يعطله ليلاً، ليصبح فيجده وقد عاد صالحًا، وأقلعت منه الطائرات لتهاجمه.

لقد كان مهندسو المطارات يعملون ليلاً على أضواء العربات. كم كانت تعوق أعمالهم القنابل المهتزة، لكنهم كانوا دائماً ذوي عزيمة، وكان نتاج ذلك كله ممرات صالحة على الدوام، تضمن لسلحهم الجوي تحقيق شبح يرفع إسرائيل اسمه «الاستمرار» في المعركة من بدايتها إلى نهايتها.

يأتي الكتاب على ذكر سلاح آخر للعدو تمثل في إلقاء قنابل تحوي مئات من

الكرات المعدنية، التي تتناثر في شتى الاتجاهات عند حدوث الانفجار، فتصيب عددًا كبيرًا من الأفراد. وهي القنابل التي أطلق عليها جنودنا اسم «قنابل الجوافة»، تشبها لكراتها ببذور هذه الثمار. ورغم إصابتها لعدد كبير من رجالنا فإن حركة العمل في أي قاعدة أو مطار لم تتوقف ولو للحظات. كانت تلك القنابل تسقط بالقرب من حظائر الطائرات ودشمها، لكن كان الرجال أقوى منها. وعندما وُجد كثير منهم أن بعض البلي المتناثر يمكن أن يصيب الطائرات داخل الدشم، تمخضت أذهانهم عن أفكار مبتكرة غاية في البساطة، تمثلت في بعض شكاير الرمل وصناديق الخشب المملوءة بالرمال، وحملوها بها الطائرات. ولقد ضرب كثيرون منهم أروع المثل في التضحيات.

يقول «مبارك»: كان من هؤلاء: المقاتل «شاكر...»، الذي لمح قبلة تتدحرج في منزلق نحو إحدى الدشم، دون أن تنفجر، فهَمَّ في سرعة خاطفة إلى التقاطها بيديه، وجرى بعيدًا عن الدشمة إلى أرض فضاء مجاورة ليلقي بها، وهو يعلم أن انفجارها موقوت، وما كاد يعطيها ظهره، بعد أن أبعد الخطر، حتى دوي صوت الانفجار عاليًا، وهو لم يكذب ينطح على وجهه ليتفادي الشظايا إلا في اللحظة الأخيرة، والمقاتل «شبل...» الذي كان يتعاون مع ليف من زملائه على إدخال إحدى الطائرات إلى دشمتها، ليحكموا إغلاق الباب عليها حماية لها من قنابل الجوافة، لكن القنابل لاحقتهم، وسقطت إحداها قرب الدشمة، فأصر المقاتل «شبل» على أن يتقدم زملاؤه حتى يغلقوا الباب على الطائرة وبقي هو ليسحب القبلة بحبل بعيدًا عن الطائرة. أما المقاتل «شافعي...» فقد كانت له هواية غريبة، وهي جمع قنابل الجوافة، ولقد أفلح في جمع ما يزيد على ستمائة قبلة منها بعد نزع مفجراتها، وبذلك أصبح سرها معروفًا، ولم تخف القنابل المهتزة ونجح في نزع طبات سبع منها. وذاع صيته في المنطقة، إلى حد أن استدعته إحدى وحدات الدفاع الجوي القريبة لتأمين قبلة كبيرة زنة الألف رطل، سقطت بجوارها على عمق أكثر من مترين في الأرض. وأسرع العملاق المصري «شبل» ليؤمن وحدة الدفاع الجوي، التي تسهم بجهدا الحيوي في خلق الشبح الذي أطار النوم من عيون جنرالات الجو الإسرائيليين.

ينتقل «مبارك» للحكي عن مهام الصيانة للطائرات خلال حرب أكتوبر فيقول: لم يكن غريبًا عليّ، وأنا أباشر مهمتي -كفائد للقوات الجوية خلال حرب أكتوبر- أن ألاحظ أن عمليات «التمام» التي كانت تتلقاها قيادة القوات الجوية لم يكن بينها

في أي يوم «بند» عدم صلاحية للطائرات بسبب تأخر الإصلاح لمدد طويلة. ومن ثم كانت نسبة صلاحية الطائرات على الدوام أعلى من المتوقع باستمرار. كان وراء هذا عيون ساهرة من مهندسي الصيانة وميكانيكيي وعمال ورش الإصلاح، سواء في القواعد الجوية والمطارات أو في الورش الخلفية. هؤلاء واصلوا الليل بالنهار في إنجاز الإصلاحات، وليس في ذلك في حد ذاته بطولة؛ لأن ذلك عملهم وواجبهم، لكن عنصر البطولة يكمن في إنجاز هذه الإصلاحات في أوقات أقل ما توصف به أنها غاية في القصر إلى حد يصعب تصديقه.

استخدم مهندسو الصيانة وسائل مبتكرة في إصلاح الطائرات، منها على سبيل المثال ما حدث في إصلاح الثقوب الصغيرة التي أحدثتها الشظايا في الطائرة، فلم تكن تعالج بالسلكة بل باستخدام لدائن لاصقة. ومعدات الرفع والتحميل التي لا تتوافر إلا في الورش الرئيسية المجهزة، أمكن ابتكار ما يقوم بعملها داخل دشم الإصلاح وورش المطارات بوسائل لا تتسم إلا بالبساطة، لكنها تؤدي إلى تحقيق نفس الفعالية المطلوبة والمؤدية إلى سرعة الإنجاز في أقصر حيز زمني ممكن.

يحي «مبارك» عن مواقف يتضح فيها حجم الإحساس بالمسئولية وأهمية عنصر التوقيت والفداء فيقول: وصل بلاغ من إحدى القواعد ليلاً بأن طائرة غير صالحة في حاجة إلى قطعة غيار صغيرة الحجم، وأن صلاحية الطائرة متوقفة عليها، وبعد أن تم صرف القطعة المطلوبة، تحرك أحد المقاتلين بها لتوصيلها، وكان لزاماً عليه أن ينتقل بعربة وعلى بعد 4 كيلومترات من القاعدة، وتعطلت العربة فواصل الجري حتى بلغ القاعدة لتكون الطائرة صالحة قبل مطلع الشمس. كذلك سقطت قبلة أمام باب دشمة كان المقاتل «حمدي...» يجري فيها إصلاح طائرة، فافتق ذهنه عن سحب الطائرة من الباب الخلفي للدشمة بواسطة عربة التزويد بالوقود. وعندما يحدث الانفجار، تكون نتيجته إتلاف بعض الجدران فقط. والمقاتل «زناقي...» تسقط قرب ورشته قنابل صغيرة كثيرة العدد، ويعرف أنها ستنفجر بعد قليل، لكنه يمضي في جمعها في خوذته بسرعة ويسرع إلى إلقائها في حفرة حتى لا يتعطل إصلاح الطائرات. أما المقاتل «أبوناسو...» فقد كان متخصصاً في إصلاح كوابل التليفونات، وتحت قصف من وابل القنابل لم يتأخر عن إصلاح كل الكوابل الموصلة إلى الدشم، لتكون الطائرات دائماً جاهزة لتلقى

أوامر الإقلاع فور صدورها. بهذا استحققت قواتنا الجوية التقييم المنصف الذي أعلنه الفريق أول محمد عبدالغنى الجمسى، نائب رئيس الوزراء وزير الحربية القائد العام لقواتنا المسلحة، عندما أعلن أن «القوات الجوية هي التي بدأت الحرب وهي التي أنهتها».

سعد مأمون:

بين قيادة القوات العربية في اليمن (1966) و (الجيش الثاني الميداني 1973)⁽¹⁾

هو سعد مأمون (14 مايو 1922 - 28 أكتوبر 2000) قائد عسكري مصري، شارك في حرب أكتوبر 1973 وتسلم قيادة القوات العربية في حرب اليمن في عام 1966 وقائد الجيش الثاني الميداني في حرب أكتوبر 1973 وهو قائد قوات الخطة "شامل" التي حاصرت الإسرائيليين في الدفرسوار وعمل محافظاً لمطروح والمنوفية والقاهرة من عام 1975 حتى عام 1983 وعين وزيراً للحكم المحلي في مارس 1983 وتوفي في 28 أكتوبر 2000.

التحق للدراسة بالكلية الحربية، وتخرج فيها برتبة ملازم ثان. وحصل على ماجستير العلوم العسكرية، وتخرج في الدورة الرابعة لكلية الحرب العليا. عمل عقب تخرجه من الكلية الحربية في القوات المسلحة، وتدرج في رتبها. ثم شغل وظيفة رئيس أركان، ثم قائد لواء مدرع، ورئيس أركان هيئة التدريب، ورئيس فرع التدريب بهيئة عمليات القوات المسلحة، ثم قائد فرقة مدرعة. عُين في وظيفة رئيس هيئة عمليات القوات المسلحة، ثم شغل منصب مساعد رئيس أركان حرب القوات المسلحة، ثم صدر قرار بتعيينه قائداً للجيش الثاني، ثم شغل منصب مساعد وزير الدفاع. واشترك سعد مأمون في عدة حروب، منها حرب اليمن، وحرب أكتوبر 1973، التي كان له فيها دور بارز.

حين حدث انهيار عصبي في غرفة عمليات حرب أكتوبر:

البدايات مع قادة حرب أكتوبر من داخل غرفة عمليات القوات المسلحة المصرية يتوسط الصورة الرئيس «محمد أنور السادات»، يمينه المشير «محمد الجمسي» ويساره المشير «أحمد إسماعيل».

كان الرجل الثاني في الجيش، رئيس الأركان الفريق الشاذلي في زيارة عاجلة - الثالثة منذ بدء الحرب - للجهة، لتفقد أحوال القوات، والاطمئنان على المعنويات،

(1) اللواء سعد مأمون: بين قيادة القوات العربية في اليمن (1966) و (الجيش الثاني الميداني 1973)، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoum.com>

كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

خاصة بعد أحداث صباح هذا اليوم، والذي تجاوزت خسائر جيشه فيه، خاصة الدبابات، مجموع خسائر الأسبوع الأول مجتمعة. فوجيء الشاذلي بأن قائد الجيش الثاني اللواء سعد مأمون ليس في غرفة عملياته، وأنه في الراحة برفقة طبيبه. وأن رئيس أركان جيشه يتولى القيادة بالإنابة في هذه الساعات الحرجة. توجه الشاذلي إليه فوراً ليطمئن على أهم قادته الميدانيين. فالجيش الثاني يضم حوالي ٦٠٪ من مجموع القوات المحاربة. ويسيطر على الجزء الشمالي الأطول من الجبهة، من جنوب بورسعيد شمالاً إلى البحيرات المرة جنوباً.

أخيراً رئيس الأركان أن اللواء سعد لم يتحمل أخبار الخسائر الجسيمة التي حدثت لقواته صباحاً، فأصيب بانهيار عصبي شديد. ولذا استجاب لضغط معاونيه وأُخلد للراحة، واستدعوا له الطبيب، والذي أخبر الشاذلي أنه يفضل إخلاءه من الخطوط الأمامية. رفض اللواء سعد بشدة، وحاول إقناع الشاذلي أنه يتحسن، فطلب من الطبيب أن يطمئنه باكراً على حالة اللواء سعد، واحتياجه أو عدمه لرعاية طبية خاصة.

نعم تتفرد حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، بكونها الحرب الوحيدة التي كانت الجيوش العربية النظامية فيها ندّاً لعدو حديث التسليح كإسرائيل، تضم ترسانته نخبة الصناعات العسكرية الأمريكية والبريطانية والألمانية والفرنسية. كان العدو لحظة اندلاع المعركة، في أوضاعٍ سياسية وعسكرية مثالية. تدعمه الولايات المتحدة أحد قطبي العالم دعماً مفتوحاً، وتنافحُ عنه في المحافل الدولية. وجيشه لا يزال منتشياً بانتصار يونيو/حزيران 1967 الساحق، عندما ضاعف الأراضي المحتلة 4 أمثالها في 6 أيام، وسحق أكبر جيشين -المصري والسوري- من دول المواجهة. فأصبح مرتكزاً على حدودٍ آمنة، تحصنها مرتفعات الجولان الوعرة، في الجبهة الشمالية.

أما في الجنوبية، فهناك قناة السويس، المانع المائي العسير. وعلى ضفتها خط بارليف الشهير، المكون من ٣٥ قلعة محصنة، يوازيه سائر ترابي شاهق، وتليه خطوط دفاعية، ووحدات مدفعية محصنة، وقواتٍ مدرعة في أنساقٍ متتالية للتدخل السريع تتجاوز ٣٠٠ دبابة .. الخ.

يظل كل هذا، تفوق جويٍّ كبير كمّاً وكيفاً عن طيران دول المواجهة مجتمعة وبعد ٤٤ عاماً من حرب ١٩٧٣، لا يزال في جعبتها الكثير من العبر والأسرار، ومازالت بعض

قطع (البازل) الفارقة في إبراز وجهها الحقيقي ناقصة. ويرجع هذا إلى الداء العُضال المتمثل في غياب الشفافية، والمحاسبة النزيهة، والنقد البناء، دون مزايدات أو تخوين. هنا دخلت السياسة على الخط كثيراً للمتاجرة بالمعركة العظيمة لاكتساب الشرعية، وللتعمية على كوارث سابقة ولاحقة، ارتكبتها -ولا تزال- . كما دخلت السياسة على الخط كثيراً للمتاجرة بالمعركة العظيمة لاكتساب الشرعية، وللتعمية على كوارث سابقة ولاحقة، ارتكبتها -ولا تزال- دولة يوليو/ تموز الشائخة، وما يصاحب هذا من مبالغات تسيء كثيراً لأصحاب التضحيات الحقيقية العظيمة في هذه الحرب. أو إبراز بعض أجزاء المشهد، حتى تحجب ما سواها، كما شاهدنا في زمن صاحب الضربة الجوية.

إضافة إلى محاولة إغفال بعض الأسئلة الملحة في فهم تغيرات مسار المعركة. كأسباب الخلاف الشديد أثنائها بين الرئيس السادات، والفريق الشاذلي في إدارة معركة الثغرة التي كادت تقلب النصر هزيمة نكراء. حتى وصل الأمر إلى اتهام السادات له في مذكراته -البحث عن الذات- بأنه كان منهاراً بعد العودة من الجبهة. وهذا ما نفاه الشاذلي وغيره مراراً بعد الحرب. وكذلك أسباب حدوث هذه الثغرة التي تسببت في حصار خانق للجيش الثالث المصري، ووضعت قوات العدو ١٠٠ كم شرق القاهرة. لكي يعيد التاريخ نفسه بأحسنه، ويجنبنا عاداته السيئة في تكرار الأخطاء بحذافيرها، سنزيل التراب عما يتم إخفاؤه، ونطرح أرضاً سرديات التاريخ المدرسي المُسيّس دائماً. وسنعمد على يوميات الحرب في مذكرات الفريق الجمسي رئيس هيئة عمليات الحرب.. طبعة الهيئة العامة للكتاب. ومذكرات الفريق الشاذلي، طبعة مركز بحوث الشرق الأوسط - سان فرانسيسكو.

نعم صمدت المشاة المصرية، بصواريخها المحمولة على الكتف، أمام الدبابات، والمواقع الحصينة لساعات حتى فتح المهندسون ثغرات الساتر الترابي، وأقاموا الكباري. إذ عبرت أول دبابة بعد ٥ ساعات و ٥٠ دقيقة. وتأخر العبور في بعض القطاعات إلى ١٨ ساعة. وخلال يومين .. سقط خط بارليف كاملاً سوى موقعين. ودمرت أغلب دبابات الدفاع الأول. أما ذراع إسرائيل الطولى فيكفي أن ننقل ما ذكره الجمسي من مذكرات أليعازر -رئيس أركان جيش العدو- أنه في الدقائق الأربعة الأولى من محاولة استهداف قوات العبور، أسقط الدفاع الجوي من حائط الصواريخ الشهير (كان يغطي

غرب القناة، وحتى ١٥ كم شرقها) ٥ طائرات. وعصرًا تم التقاط أمر من رئاسة الأركان الإسرائيلية للطيارين بعدم الاقتراب لمسافة ١٥ كم من القناة.

كان يوم ٨ أكتوبر/ تشرين الأول من أيام الله على جبهة سيناء. فقد اكتمل تعبئة احتياطي العدو، وهاجم الجبهة كاملة بحوالي ألف دبابة. فشل الهجوم في كل الاتجاهات بعد خسائر مرعبة للمهاجمين. وفي أحد القطاعات دُمّرت ٣٠ دبابة صهيونية في أقل من نصف ساعة، وأسر العقيد الإسرائيلي عساف ياجوري وظهر على شاشة التلفزيون المصري مساءً.

بحلول ٩ أكتوبر/ تشرين الأول، كانت القوات المصرية قد حققت الهدف الأولي للحرب، فحررت القناة بالكامل، ومدينة القنطرة شرق، وسيطرت على ١٢-١٥ كم شرق القناة. وهو أقصى ما يغطيه حائط الدفاع الجوي.

على الجبهة السورية، كان الوضع أسوأ. فبعد يومين، كان العدو قد استعاد ما فقده، وبدأ هجومًا مضادًا واسعًا، وقصف دمشق يوم ٩ أكتوبر/ تشرين الأول. ولم يعتدل الميزان نسبيًا إلا بعد تدخل فرقتين عراقيتين بدءًا من يوم ١٠ أكتوبر/ تشرين الأول.

10-14 أكتوبر/ تشرين الأول:

“... سيادة الفريق أنا مستقيل.. لا أستطيع تنفيذ التعليمات التي أرسلتموها ..” هكذا رد اللواء سعد قائد الجيش الثاني على الشاذلي بغضب عصر يوم ١٢ أكتوبر/ تشرين الأول بعد وصول أوامر الاستعداد لتطويع الهجوم شرقًا خارج حماية الدفاع الجوي، إلى منطقة الممرات الجبلية (٤٠ كم شرقًا).

حدث بعدها اجتماع عاصف في القيادة الرئيسية من ٦-١١ مساءً بين القادة ورئيس الأركان ووزير الدفاع المشير إسماعيل. كان رأي قائدي الجيشين الثاني والثالث ورئيس الأركان أن تطويع الهجوم الآن خطأ عسكري فادح. فالجسر الجوي الأمريكي قد عوّض معظم خسائر المعدات الإسرائيلية، وما زال طيرانهم متفوقًا. وكان الأجدر تطويع الهجوم ٩ أكتوبر/ تشرين الأول أثناء تخطيط العدو بعد فشل هجومه المضاد، بدلًا من الوقفة التعبوية الدفاعية التي أخذتها القوات. أو الاكتفاء بما تحقق على الأرض، وهو كبير. وتعلل وزير الدفاع بمحاولة تخفيف الضغط عن السوريين. أخبره الشاذلي أن العدو الآن يمتلك ٩٠٠ دبابة في سيناء، وهي كافية للغاية مع تفوقه الجوي، في صد الهجوم المصري دون الحاجة لسحب أي قوات من جبهته الشمالية.

رد وزير الدفاع في النهاية.. أنه أمر من القيادة السياسية ولا بد من تنفيذه! فأذعن القادة. وتم تأجيل الهجوم من فجر ١٣ إلى فجر ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول ليكملوا استعداداتهم. وكانت الطامة يوم ١٣ أكتوبر/ تشرين الأول، أن رصدت الرادارات المصرية تحليل طائرة استطلاع أمريكية خارج مدى دفاعنا الجوي، وصوّرت الجبهة كاملة. أي أن العدو أصبح على اطلاع تام بما يحدث. وهكذا فقدت القوات المصرية ٢٥٠ دبابة في 3 ساعات من صباح اليوم التالي عندما تم تطوير الهجوم شرقًا صباح 14 أكتوبر/ تشرين الأول 1973.

هنا ورد السؤال العنيف في عنوان الفقرة بنصّه في مذكرات الشاذلي ص ٢٧٣، في فصل: «ثغرة الدفرسوار.. القرار السياسي الخاطيء» تعليقًا على ما حدث يوم تطوير الهجوم، والذي يحمل مسؤوليته كاملة لتدخل السادات في العمليات العسكرية، ولانقياد -كما يقول الشاذلي- وزير الدفاع له، ضاربين بعرض الحائط آراء قادة الجبهة، ورئيس الأركان. ويذكر الشاذلي أنه كان لمصر ١٧٠٠ دبابة. منها ألف دبابة عبرت القناة، وموزعة على فرق المشاة الخمس المتحصنة في الـ ١٢ كم شرق القناة، لتؤازرها دفاعيًا. فلا تصلح للاشتراك في التطوير الهجومى. وكان هناك حوالي ٣٥٠ دبابة (الفرقة ٢١ و٤) كاحتياطي غرب القناة، لمواجهة أي محاولة إسرائيلية للاختراق، والعبور المضاد لتطويق الجيشين الثاني والثالث، وقطع إمداداتهما، وتدمير حائط الصواريخ. وتم سحب معظم هذا الاحتياطي، ودعمه بقواتٍ من شرق القناة لتطوير الهجوم صبيحة ١٤ أكتوبر/ تشرين الأول. وهكذا تواجّهت ٤٠٠ دبابة مصرية، مع ٩٠٠ إسرائيلية أحدث منها تكنولوجياً ونيراناً، في صحراء مكشوفة، حاولت فيها طائراتنا الدعمَ الجوي، لكنه كان محدوداً أمام الهيمنة الجوية الإسرائيلية خارج حائط الصواريخ المرعب. وهكذا كانت أول هزيمة مصرية في حرب أكتوبر/ تشرين الأول. وكان الأخطر من فشل التطوير، أنه لم يُعدّ لمصر سوى ١٠٠ دبابة في احتياطي غرب القناة. ولذا -كما يذكر الجمسى- سُجِبَ لواء مدرع من القاهرة خلال الأيام التالية لدعم الجبهة.

وصل العدو بعد خسائر كبيرة إلى القناة، وبدأت قواته تعبر تدريجياً إلى غربها، ودمرت العديد من مواقع الدفاع الجوي، والمواقع الخلفية للجيشين المصريين. وهكذا حدثت ثغرة الدفرسوار الشهيرة، والتي كادت تقلب حرب أكتوبر/ تشرين الأول نكسةً أخرى، لولا بسالة القوات المصرية والفدائيين في الإسماعيلية والسويس.

قائد الجيش الثاني الميداني:

أما اللواء سعد مأمون -قائد الجيش الثاني الميداني- فقد أبلغ الطبيب رئيس الأركان يوم ١٥ أكتوبر/ تشرين الأول بأنه لا يزال بحاجة لرعاية صحية، فُقِلَ إلى مستشفى المعادي العسكري بالقاهرة، واستُبدِلَ بعدها بيومين.

الخطة "شامل":

في السطور القادمة سنعرض لتفاصيل الخطة (شامل) التي أعدتها القوات المسلحة لتدمير القوات الإسرائيلية الموجودة غرب القناة والتي بلغ مجموعها ثلاث فرق مدرعة (فرقة أرئيل شارون، وفرقة أبراهام أدان، وفرقة كلمان ماجن)، بالإضافة إلى لواء مشاة مظلات بفرقة شارون، ولواء مشاة ميكانيكي بفرقة ماجن.

قبيّل عرض تفاصيل هذه الخطة سنعرض لشهادات القادة المصريين حول قدرة القوات المسلحة على تنفيذ هذه الخطة، وكيفية استعادة قواتنا لتوازنها بين الشرق والغرب، وإعادة تسليح وحشد القوات لحر العدو غرب وشرق القناة.

محاصرة الثغرة:

يقول الفريق كما حسن علي في كتابه «مشاوير العمر.. أسرار وخفايا 70 عامًا من عمر مصر.. الحرب والمخابرات والسياسة» إنه «في يوم 26 أكتوبر قمت بزيارة الوحدات التي كانت تحاصر القوات الإسرائيلية في منطقة الثغرة، وعلى رأسها الفرقة الرابعة المدرعة التي كانت تعمل غرب القناة (في قطاع الجيش الثالث)، والتي تم إمدادها بعدد كبير من الدبابات بعد إصلاحها، كما قمت بزيارة اللواء المدرع الجزائري الذي بعثت به الجزائر دعمًا للجبهة المصرية، وتمرّكز فوق جبل غره جنوب الثغرة، وكان المنظر من هذا الموقع لأرض المعركة يؤكد إمكانية تدمير القوات الإسرائيلية في الثغرة بسهولة، حيث كان طول المنطقة التي عبرت من خلالها القوات الإسرائيلية عبر قناة السويس لا تتجاوز 7 كيلومترات فقط، وقد قامت لجنة من الكونجرس الأمريكي بزيارة الموقع يوم 7 نوفمبر بصحبة اللواء سعد مأمون وخرجت بانطباع يؤكد ضرورة تسوية سلمية لهذا الموقف؛ لأن القوات الإسرائيلية الموجودة داخل الثغرة أصبحت هي نفسها في حصار أوشك أن يكتمل. وفي 7 نوفمبر كنت في زيارة أخرى للوحدات شرق القناة، وفي طريقي للجبهة

سمعت في إذاعة إسرائيلية تصريحًا لموشي ديان وزير الدفاع الإسرائيلي يقول فيه إن مصر أكملت دفع الجيش الرابع المييداني حول الثغرة، ولقد سعدت بهذا القول لأنه في واقع الأمر لم يكن الجيش الرابع سوى الإمداد المستمر بالدبابات للوحدات الأمامية تعويضًا لخسائرها طوال أيام القتال وما بعدها، وكانت إدارة المدرعات قد استقبلت من يوغوسلافيا دبابات لواء مدرع (94 دبابة) جاهزة لركوب أطقمها، كما استقبلت دبابات لواء مدرع من ليبيا بدون أطقمها، تم تجهيزه بالأفراد ضباطًا وجنودًا من الاحتياطيات المدربة المشكلة لهذا الغرض، علاوة على وصول مدافع اقتحام مدرعة من الجزائر، وبعد زيارة هوارى بومدين لموسكو تم إمدادنا بنحو 200 دبابة (ت 62) خصصت لتعويض دبابات الفرقة المدرعة التي كانت تعمل في الجيش الثاني شرق القناة ودباباتها تدعم رؤوس الكبارى. وقد تركت هذه الفرقة ما يكفى من دباباتها من طراز (ت 55) لاستكمال دبابات الفرق المشاة تعويضًا لخسائرها، وكذلك تم سحب أفراد هذه الفرقة ليلاً إلى القاهرة، وأعيد تدريبهم على الدبابات الجديدة من طراز (ت 62) في أسبوع واحد، ثم دفعت هذه الدبابات بأطقمها بعد تجهيزها للقتال، سائرة على جنازيرها عند محور طريق الإسماعيلية فأثارت غبارًا يزيد طوله على 30 كيلو مترا، على مدى ثلاثة أيام كاملة، وكان آخرها يوم 7 نوفمبر، الأمر الذى جعل موشى ديان يعلن عن إتمام حشد الجيش الرابع حول الثغرة في ذلك اليوم».

هنا يأتي الحديث عن الخطة (شامل) التي أعدتها القوات المسلحة لتصفية قوات العدو في ثغرة الاختراق غرب قناة السويس، يبدو مقتضبًا في معظم المراجع العسكرية التي تناولت حرب أكتوبر، لكن هناك اتفاق على أن أهداف القيادة المصرية من هذه الخطة كان يتمثل في «إحداث أكبر قدر من الخسائر في قوات العدو وأسلحته ومعدته، مع القيام بعمليات إزعاج للعدو على أوسع نطاق ممكن حتى يصبح بقاءه غرب القناة جسيمًا لا يحتمل، بالإضافة إلى إرغام إسرائيل على الاستمرار في تعبئة قواتها الاحتياطية، مما يرهق اقتصادها القومى، ويهدد الحياة العامة بالشلل الكامل، مع منع العدو من تحسين وتحصين مواقعه شرق وغرب القناة»، بحسب المؤرخ العسكرى اللواء جمال حماد، في كتابه المرجعي «المعارك الحربية على الجبهة المصرية».

لقد بدأ تكليف اللواء سعد مأمون من المشير أحمد إسماعيل بقيادة الهجوم على الثغرة في الساعة الثالثة من مساء 12 ديسمبر.. استدعاه القائد العام وقال له: «يبدو يا سعد إنك ستغادرنا إلى الميدان من جديد، كمندوب للقائد العام لقيادة القوات الرئيسية غرب القناة لتصفية الثغرة. أنت من الآن مسئول أمام وزير الحربية والقائد العام عن تدمير الجيش الإسرائيلي.. وثقتي فيك لا حدود لها».

وسافر إلى الجبهة على الفور، وقام بجولة على الحدود الأمامية للقوات من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب. وقام بتعديل الخطة (شامل) على الطبيعة وفق ما ظهر أمامه من حقائق جديدة في الميدان، وصدق وزير الحربية على التعديل الأخير. سبق أن أكد اللواء مأمون في حوار مع الصحفي موسى صبري على أن الخطة شامل كانت تعتمد على «تقدير سليم لموقف العدو، وتحديد واضح لنقاط ضعفه، وتحديد سليم لنقاط قوته». وشدد على أن «العدو كان في مصيدة، وكان يجب أن أزيده إحساسًا بأنه في مصيدة، كان العدو متخذًا أوضاعًا دفاعية لا هجومية. كان يدافع في حالة نفسية سيئة. ويبدو قلقه في جميع تصرفاته، كما أن أوضاعه الدفاعية تدل على فزعه.. مثلاً رص العدو أمامه حوالى 700 ألف لغم. حفر خنادق مضادة للدبابات على معظم المواجهة (عرض من 6 إلى 7 أمتار، وعمق 5 أمتار) كان لديه من 500 إلى 600 دبابة. وكان شعاري أن نلقن العدو درسًا أقسى من دروس العبور وتحطيم حصون بارليف. وواقع الحال أن الجيب الإسرائيلي في الغرب كان هشًا.. كل دبابة للعدو في الغرب كان يقابلها حوالى دبابتين في قواتنا، وقطعتين مضادتين للدبابات.. علاوة على نيران المدفعية والطيران، علاوة على احتياطي القيادة العامة للقوات المسلحة الموضوعة تحت سيطرة المشير أحمد إسماعيل. وقد قدرت الخطة الموضوعة لتصفية كافة الاحتمالات، بطريقة لعلها أحسن من تحضيرات 6 أكتوبر، وكان تفكيري أن النصر في هذه العملية لا يحتمل الجدل ولا التجربة، وقمنا بمشروعات حقيقية على أرض مشابهة. وكان التقدير: بالنسبة للوضع العسكري العام تم احتواء العدو تمامًا في الغرب.. لقد حاصرنا العدو من كل جانب، وله منفذ واحد في الدفرسوار لا يزيد عرضه على 6 كيلومترات، وكان مقررًا إغلاق هذا المنفذ بالقوات في ساعات قليلة.. وهذه الشريحة كان مخصصًا لها أعداد هائلة من القوات».

لقد أكد اللواء مأمون أنه «كان من المقرر أن نصفى الجيب الإسرائيلي على محاور بالتعاون مع كافة أفرع القوات المسلحة، أي أننا كنا سنهاجم من 4 اتجاهات (تم التعديل لتصبح 5 اتجاهات).. وكانوا حقًا في مأزق». موضحًا أن «قوات العدو في 22 أكتوبر تمكنت من عمل رأس جسر واحد غرب الدفرسوار بمساحة 70 كيلومترًا مربعًا (7 في 10).. قواتنا في الشرق كانت قد عملت رؤوس جسور في الجيوش مساحتها 7 آلاف كيلومتر مربع، أي مائة ضعف، كان موقف العدو العسكري حرج للغاية. لذلك حاول أن يعوض هذا الوضع الحرج (صغر حجم رأس جسره في الغرب) إلى وضع محتمل بأن ينتشر جنوبًا. ثم طور فكرته لأنه أحس أن هذا الانتشار فيه نوع من إضعاف قواته في الكثافة أمام القوات المصرية.. حاول دخول السويس. قطع خطوط المواصلات لعزل جزء من الجيش الثالث في الشرق. والهدف هو أن يساوم بهذا الوضع الجديد على موقفه الحرج في الغرب، ولكن وضعه عسكريًا هش.

يواصل مأمون «لا يوجد لدى العدو ما نعبّر عنه بالاتزان الاستراتيجي.. قواته شبه محصورة في الغرب. عجز عن زحزة قواتنا في الشرق بوصة واحدة على طول المواجهة من عيون موسى جنوبًا إلى بورفؤاد شمالًا. وخلال حرب الاستنزاف اعتبارًا من نوفمبر 1973 اكتسبنا نحن أرضًا جديدة غربًا وشرقًا. ثم إنه مجبر على التعبئة الكاملة في إسرائيل. كل لقمة.. كل جرعة ماء.. كل دانة مدفعية.. كل نقطة بنزين يجب أن تصل إليه من بعد 300 كيلومتر في الخلف.. من مخنق عرضه 6 كيلومترات». وأكد على أن «التخطيط كان يركز على غلق هذا المخنق أو الممر، ونشعله نارًا. في نفس الوقت الذي ندمر فيه قواته في الغرب، وأستطيع أن أقول أن هذا كان سيتم في (لا وقت) أي وقت قليل جدًا!؛ لأننا نعلم من خط بارليف أن الدفاع مهما كان حصينًا، يمكن اختراقه. فما بالك بهذا الجيب.

قواعد طيراننا قريبة جدًا:

الدفاع الجوي استطاع أن ينشئ حائطًا ثانيًا للصواريخ أقوى مما كان.. العدو ثقته في نفسه وقيادته اهتزت، ولا شك أن العدو بتصويره الجوي لقواتنا في الغرب أدرك ما يمكن أن يحدث له، ولذلك فضل الانسحاب في سلام. وكان من المستحيل أن تنسحب إسرائيل لو كان لديها مجرد أمل في إمكانية البقاء». وخلال الأيام التالية

بدأت محادثات فصل القوات بإشراف الأمم المتحدة، التي سميت بمحادثات الكيلو 101 -وإن كانت منعقدة فعلاً عند علامة الكيلو 103 في طريق السويس القاهرة- تأخذ مساراً جدياً، إلى أن انتهت بتوقيع اتفاقية الفصل بين القوات في 17 يناير 1974. قال الرئيس السادات في كتابه «البحث عن الذات قصة حياتي» إنه «في ديسمبر سنة 1973 كنت مستعداً لتصفية جيب الثغرة، فقد بدأت قواتنا حرب الاستنزاف، ولم يتوقف ضغطها على الثغرة لحظة واحدة مما جعلنا نكسب أرضاً جديدة كل يوم.. تارة بالأمطار وتارة بالكيلومترات.. ولكننا كنا نكسب دائماً.. أنا فعلاً كنت على أتم الاستعداد لتصفية الثغرة، وخاصة أنه ليست أمامي قناة لعبورها ولا خط بارليف للقتال معي، ولكن الخطر الذي كان أمامي كان تدخل أمريكا.. ففي 11 ديسمبر جاء هنري كيسنجر (وزير خارجية أمريكا) وقلت له «أنا مش مستعد أقبل الأسلوب اللي هم ماشيين به.. وأنا حاصفي الثغرة. قال لي: «أنا قبل أن أحضر إليك عارف إنك جاهز.. أنا طلبت صورة الموقف من البنتاجون فأعطوني تقريراً كاملاً.. حائط صواريخك يتكون من كذا بطارية.. دباباتك حول الثغرة 800 دبابة.. مدافعك عددها كذا وتستطيع فعلاً أن تصفي الثغرة، ولكن اعلم أنك إذا فعلت هذا سيضربك البنتاجون».

في النهاية تم إنسحاب جميع القوات التي شاركت في هذا الهجوم الفاشل وفي ظهر هذا اليوم 14 أكتوبر عام 1973 في حوالي الساعة الحادية عشر صباحاً حدث إتصال باللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني الميداني لمتابعة سير العمليات في نطاق الجيش الثاني فكان الرد إنه في الراحة ولم يكن هذا أمراً عادياً أو طبيعياً أن يخلد القائد إلى الراحة وقواته مشتبكة في معركة وكانت الأخبار عمومًا لا تبشر بخير. وبلا شك كانت هذه خسارة فادحة أن يصاب قائد الجيش الثاني الميداني أكبر تشكيل قتالي في القوات المسلحة المصرية في هذا الوقت الحرج وقام الفريق الشاذلي بالإجتماع مع كبار ضباط الجيش الثاني وبحث معهم الأمر كما قام بالإتصال بجميع قادة الفرق وبحث معهم الموقف العسكري لقواتنا وتم إستدعاء اللواء تيسير العقاد رئيس أركان حرب الجيش من مقر القيادة الخلفي للجيش ليتولي قيادته مؤقتاً ثم تحرك للعودة إلي القيادة وأطلع كل من الرئيس السادات والفريق أول أحمد إسماعيل على الموقف.

بعد تعافي اللواء سعد مأمون وخروجه من المستشفى تم تعيينه في يوم 13 ديسمبر عام 1973 قائدًا لقوات تصفية الثغرة وكان في خلال شهر نوفمبر والنصف الأول من شهر ديسمبر عام 1973 قد وصلت إلى مصر إمدادات عسكرية من بعض الدول العربية والدول الصديقة كان أهمها عدد من الدبابات عوض إلى حد ما العدد الكبير مما تم تدميره خلال المعارك التي تمت بصفة خاصة أيام 14 و 17 و 18 أكتوبر عام 1973م وتم إعادة حشد الفرقتين المدرعتين 4 و 21 و فرق المشاة الميكانيكية 3 و 6 و 21 إلى جانب وحدات من الصاعقة والمظلات حول منطقة الثغرة كما ذكرنا سابقًا وتلقي اللواء سعد مأمون التوجيهات الخاصة بهذه المهمة من الرئيس أنور السادات ومن القائد العام للقوات المسلحة وكانت حينذاك أنظار مصر والعالم كله تتابع هذه العملية باهتمام وتركيز شديدين بسبب تركيز أجهزة الإعلام الإسرائيلية علي مسألة وجود الجيب الإسرائيلي غرب القناة وكانت تستغل ذلك في القيام بدعاية سياسية واسعة النطاق.

قام اللواء سعد مأمون بعد تكليفه بهذه المهمة بالمرور علي ومعاينة أوضاع القوات التي تم حشدها من أجل تنفيذها كما قام بمراجعة الخطة مراجعة دقيقة وأدخل عليها بعض التعديلات التي رأى أنها مناسبة بعد هذه المراجعة وبعد معاينة الموقف على الطبيعة وفي يوم 18 ديسمبر عام 1973 تم عرضها في صورتها النهائية على القائد العام للتصديق عليها وفي يوم 24 ديسمبر عام 1973 تم عرض الخطة في صورتها النهائية على الرئيس الراحل أنور السادات في إستراحة القناطر الخيرية في حضور القائد العام الفريق أول أحمد إسماعيل علي ورئيس الأركان اللواء حينذاك محمد عبد الغني الجمسي وقادة الأفرع الرئيسية للقوات المسلحة واللواء سعد مأمون وأقر الرئيس السادات الخطة ووجه بأن تكون جاهزة في أي وقت للتنفيذ إعتبارًا من اليوم نفسه 24 ديسمبر عام 1973 وكانت هذه الخطة مبنية على أسس تكتيكية سليمة وكانت تستهدف ضمان إستخدام القوات المخصصة لهذه العملية الإستخدام الأمثل مع التركيز على التعاون الوثيق بين هذه القوات وبين القوات الجوية وقوات الدفاع الجوي ومراعاة إستخدام المدرعات بإستغلال خصائصها أحسن إستغلال مع عمل حساب عناصر القوة وعناصر الضعف لدى قوات العدو الإسرائيلي الموجودة داخل الثغرة. وقد قامت القوات المخصصة لتنفيذ الخطة شامل بمشروعات تدريب تتفق مع المهام المخصصة لها وعلى أرض مشابهة تحت الإشراف المباشر للواء سعد مأمون وكانت هذه الخطة تقتضي توجيه

عدد 5 ضربات من 5 إتجاهات رئيسية أولها ضربة من إتجاه رأس كوبري الفرقة 16 مشاة شرق القناة من الشمال إلى الجنوب بهدف غلق ممر ثغرة الإختراق من المنبع والذي يعد المنفذ الوحيد للقوات الإسرائيلية الذي تأتي منه الإمدادات من شرق القناة إلى غربها وثاني الضربات ضربة على محور طريق أبو سلطان في إتجاه الدفر سوار من الشمال إلى الجنوب أيضًا غرب القناة والضربة الثالثة ضربة على محور طريق جنيفة في إتجاه البحيرة المرة الصغرى والضربة الرابعة ضربة على محور طريق السويس في إتجاه مدينة السويس للوصول بأسرع ما يمكن للمدينة وقوات الجيش الثالث المحاصرة شرق القناة والضربة الخامسة ضربة موازية لخليج السويس من الجنوب إلى الشمال في إتجاه ميناء الأدبية وكان الهدف من هذه الخطة فك حصار مدينة السويس والجيش الثالث وتقطيع أوصال الجيب الإسرائيلي غرب القناة وتحويله إلى أجزاء منفصلة ومن ثم يسهل تدميرها هذا ولم يقيض لهذه الخطة التنفيذ العملي لها حيث تم توقيع الإتفاقية الأولى لفصل القوات يوم 18 يناير عام 1974 يعد مفاوضات شاقة وجولات مكوكية قام بها الدكتور هنرى كيسينجر وزير الخارجية الأمريكي بين القاهرة وتل أبيب والتي كان أهم بنودها أن تقوم إسرائيل بسحب قواتها من غرب وشرق القناة إلى مسافة حوالي 30 كيلو متر شرق القناة بينما تقوم مصر بسحب قواتها من شرق القناة مع إحفاظها بعدد 7000 جندي وضابط بالإضافة إلى عدد 30 دبابة على ألا يتجاوز وجودها مسافة 10 كيلو مترات شرق القناة وفي الوقت نفسه تتواجد قوات الطوارئ الدولية التابعة للأمم المتحدة في المنطقة الفاصلة بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية وعرضها حوالي 20 كيلو متر مع النص على أن هذه الإتفاقية لا تعد إتفاقية سلام بين الطرفين بل هي مجرد خطوة للوصول إلى معاهدة سلام دائمة بين الطرفين يتم التفاوض بين الطرفين بشأنها داخل إطار مؤتمر جنيف للسلام الذي نادى به الأمم المتحدة في ذلك الوقت ومن ثم فقد تم تجميد الخطة شامل.

يبقى أن مأمون حصل على عديد الأوسمة، فقد حصل سعد مأمون على 22 وسامًا منها: نجمة سيناء ميدالية الخدمة الطويلة والقدوة الحسنة من الطبقة الأولى، نوط التدريب من الطبقة الأولى، وسام مأرب من اليمن، ميدالية الاستحقاق من الجيش الشعبي الوطني من ألمانيا، نوط الخدمة الممتازة، وسام نجمة الشرف، نوط الجمهورية العسكري من الطبقة الأولى.

جمال حماد:

«المعارك الحربية على الجبهة المصرية»⁽¹⁾

«وجدت لزماً عليّ بعد ذلك الانتصار الباهر الذي أحرزته قواتنا المسلحة في حرب أكتوبر 1973 المجيدة، التي استعادت به مصر كرامتها وشرفها وسمعتها أن أسجل هذه الملحمة الحربية الفذة تسجيلاً أميناً بعيداً عن التحيز والمبالغة، وأن أقوم بالتحليل الفني لجميع أحداث ومواقف هذه الحرب بكل صراحة وصدق. وكان اهتمامي بإبراز نقاط الضعف والأخطاء التي ارتكبت يماثل نفس اهتمامي بالإشادة بنقاط القوة والتفوق التي ظهرت، إذ إن إبراز كلتا الناحيتين هو الوسيلة الصحيحة للاستفادة من دروس الحرب بتجاربها دون زيف أو خداع». هكذا تحدث "جمال حماد" نعم نادرة هي تلك الكتب والدراسات التي تناولت التحليل الفني الجاد والرصين لمجرى الحوادث على جبهات القتال في حرب أكتوبر 1973، بالرغم من طوفان الكتب التي نشرت منذ قيام هذه الحرب وحتى الآن على مدار أعوام، رغم ندرة الوثائق العربية المفرج عنها والخاصة بهذه الحرب؛ الأمر الذي جعل الجاد من هذه الكتب يطرح أسئلة بأكثر مما يجيب عن تساؤلات هذه الملحمة التي لم تبوح بكل أسرارها حتى اللحظة.

من ضمن هذه الكتب النادرة التي قدمت تحليلاً فنياً راقياً لحرب أكتوبر كتاب اللواء أركان حرب متقاعد «جمال حماد»، الذي يحمل عنوان «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»، الصادر عن دار «الشروق»، والذي يمثل مع كتابه «من سيناء إلى الجولان» موسوعة متكاملة عن حرب أكتوبر أمضى الرجل سنوات في إعدادها. ما جعل اللواء حماد مؤهلاً لإخراج هذا العمل المهم الذي قدم تحليلاً فنياً لأعمال القتال التي خاضتها قواتنا بطول جبهة قناة السويس، مع شرح واف لنقاط قوتها وضعفها على المستوى الاستراتيجي والتعبوي والتكتيكي جملة أشياء يأتي في مقدمتها أنه ضابط كبير برتبة «لواء» في سلاح المشاة، خاض تجربة القتال في حربي 1948 و1956، وحصل على دورات علمية متقدمة في العلوم العسكرية داخل مصر وخارجها، فضلاً

(1) جمال حماد: «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»، رأي اليوم اللندنية. <https://www.raialyoum.com>
كذلك: جمال حماد: بين روايتين للفريقين فوزي والشاذلي.. «من خطط لحرب 1973؟». الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية. <https://www.politics-dz.com>

عن أنه خدم في الجزء الرئيسي لمسرح العمليات الذي جرت عليه الحرب، وهو سيناء، ذلك أنه عمل «قائدًا لمنطقة العريش العسكرية». والأهم من ذلك أنه ناقش مع قادة حرب أكتوبر من مختلف المستويات قراراتهم التي اتخذوها أثناء سير القتال موقعة على خرائط العمليات، وهو ما مكنه في نهاية المطاف من تقديم شرح تحليلي لمعارك ووقائع وأحداث ومواقف حرب أكتوبر على جميع ساحات القتال، مزودة بالخرائط و«الكروكيات» اللازمة ليتمكن القراء من تتبع الشرح.

في هذا السياق يقول حماد في مقدمة كتابه المتميز «سنحت لي الفرصة لإجراء لقاءات شخصية ومناقشات مطولة على الخرائط مع نخبة من قادة حرب أكتوبر، حول الوقائع والعمليات الحربية التي جرت في قطاعاتهم أو التي اشتركت فيها تشكيلاتهم ووحداتهم، مما كان له فائدة كبرى في الدراسة التي أجريتها». التحليل العلمي لأعمال القتال في أي حرب لا يمكن أن يتم معتمدًا على الخرائط وحدها -على أهميتها القصوى- إذ لا غنى عن رؤية مسارح العمليات على الطبيعة، وتحليل طبيعتها الطبوغرافية.. وما بها من مرتفعات حاکمة وخطوط للمواصلات ووديان وموارد للمياه وما تتيحه من هوامش للمناورة، وكيف أمكن للمخطط ثم المقاتل من استغلالها لمصلحته.

هنا يقول حماد «حرصًا على استكمال الجوانب الميدانية في الدراسة وتطبيق الآراء الاستراتيجية والنظريات التكتيكية على الواقع، كان من الضروري إلقاء نظرة فاحصة على المسرح الذي دارت عليه أهم العمليات الحربية خلال هذه الحرب؛ ولذا قمت في أثناء هذه الدراسة بزيارة ميدانية للأرض، حيث شاهدت على الطبيعة أهم المعالم والهيئات الحاکمة والمواقع الحصينة على الجانب الشرقي لقناة السويس ومن بينها أحد حصون خط بارليف. وكان اهتمامي كبيرًا بمعاينة منطقة الدفرسوار التي تم من خلالها عبور القوات الإسرائيلية إلى الضفة الغربية للقناة، كما تتبعته بدقة محور تقدم هذه القوات بعد عبورها للقناة».

لقد اشتبك الفصل الأول من كتاب «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» الذي جاء تحت عنوان «كيف جرى التخطيط لحرب أكتوبر 1973؟» مع واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل في التاريخ العسكري المصري المرتبط بحرب أكتوبر، وهي المتعلقة بمن وضع خطة هذه الحرب؟، ذلك أن الفريق أول محمد فوزي، وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة (11 يونيو - 15 مايو 1971) يقول إنه وضع خطة هجومية

شاملة لتحرير سيناء، وتنبثق منها خطة مرحلية تستهدف الوصول للمضايق الجبلية الاستراتيجية في عمق سيناء (4550 كيلو شرق القناة) وكانت قواته جاهزة لتنفيذها. في حين يقول الفريق سعد الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة (16 مايو 1971— 12 ديسمبر 1973) إنه عندما تسلم رئاسة الأركان لم يكن هناك خطة هجومية موجودة لدى القوات المسلحة لتحرير الأرض، وأنه كان أول من وضع هذه الخطة التي سماها «المآذن العالية» في إطار مفهوم الحرب المحدودة، لا الحرب الشاملة، التي تستهدف تحرير كامل تراب سيناء.

رواية الفريق فوزي واستعرض المؤلف رواية الفريق أول محمد فوزي، بشأن خطة تحرير سيناء بإسهاب، وقال لقد «ذكر فوزي أنه بناء على توجيهات الرئيس الراحل عبدالناصر الصادرة إليه في يوليو 1967 في أعقاب الهزيمة، أصبحت إستراتيجية العمل العسكري للقوات المسلحة المصرية وهي تحرير الأرض المحتلة في سيناء بالقوة، والوصول بالقوات المصرية إلى خط الحدود المصرية الفلسطينية وتأمينها، ثم استغلال النجاح سياسيًا لاسترداد حقوق الشعب الفلسطيني، وكانت الفترة الزمنية التي حددها عبدالناصر لتحقيق ذلك الغرض هي ثلاث سنوات. ونتيجة لدراسة اللجان العسكرية التي شكلت داخل القيادة العامة برئاسة الفريق عبدالمنعم رياض رئيس أركان حرب القوات المسلحة (11 يونيو 1967 مارس 1969) التي استمرت لمدة شهر، تم وضع خطة عامة لتحرير الأرض أطلق عليها اسم «الخطة 200»، وانبثقت منها خطط مرحلية وخطط نوعية، وتم تطبيق هذه الخطط في شكل مشروعات عمليات مشتركة. وانتهت هذه المرحلة بوضع الخطة «جرانيت» التي كانت تحقق المرحلة الأولى من «الخطة 200 الشاملة». ويعني هذا الكلام بوضوح أن القيادة العامة قد تم لها وضع خطة هجومية شاملة هي «الخطة 200» للوصول إلى الحدود الدولية، وأن هذه الخطة كان سيجري تنفيذها على مرحلتين: الأولى وأطلق عليها اسم «جرانيت»، وكانت عبارة عن عبور قناة السويس، واقتحام خط بارليف، والوصول إلى منطقة المضايق الجبلية الاستراتيجية. والمرحلة الثانية: كانت عبارة عن التقدم من منطقة المضايق في عملية هجومية للوصول إلى الحدود الدولية، وبذلك يتحقق الغرض النهائي وفقًا لـ «الخطة 200 الشاملة». وأوضح الفريق فوزي بعد ذلك أنه عقب مرور ثلاثة أعوام على هزيمة يونيو وصلت القوات المسلحة المصرية إلى مقدرة وامكانات عسكرية ومعنويات عالية،

وتم اختبار التشكيلات الميدانية وجميع أفرع القيادة العامة على واجبات عملياتها، بحيث أصبح في إمكان هذه القوات البدء في معركة التحرير بمجرد صدور الأمر إليها بذلك.

في أواخر أغسطس عام 1970 وفي اجتماع مصغر دعا إليه الرئيس جمال عبدالناصر لعرض الموقفين السياسي والعسكري بعد أن توقفت حرب الاستنزاف في 7 أغسطس 1970، عقب مبادرة «روجرز» التي كان أول بنودها ينص على أن يتوقف الطرفان عن إطلاق النار في الأرض وفي الجو عبر خط وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر، ذكر الفريق فوزي أنه أبدى لعبدالناصر استعداد القوات المسلحة لبدء معركة التحرير فور انتهاء فترة وقف إطلاق النار المؤقت في 7 نوفمبر من نفس العام. وأكد الفريق فوزي في مذكراته أنه في الأسبوع الأول من سبتمبر 1970 حصل على تصديق شفهي من عبدالناصر -خلال وجوده معه في رحلة إلى مرسى مطروح- على تنفيذ الخطة «200 الشاملة»، على أن يركز على تنفيذ الخطة «جرانيت» أولاً وهي الوصول إلى منطقة المضائق، وعلى أن يتم تنفيذ ذلك بمجرد انتهاء فترة وقف إطلاق النار. وعلل الفريق فوزي سبب حصوله على تصديق شفهي من عبدالناصر على تنفيذ الخطة «200 الشاملة» دون بحث أو مناقشة القرارات التفصيلية التي كان يحملها معه والخاصة بـ«الخطة 200 الشاملة» و«الخطة جرانيت» المرحلية كما كان الاتفاق، بأنه إنما يرجع إلى ظروف طارئه، فقد حضر الرئيس الليبي معمر القذافي ومعه اثنان من زملائه فجأة إلى مرسى مطروح وانشغل عبدالناصر معهم دون أن يتمكن الفريق محمد فوزي من الانفراد به خلال الأيام الأربعة التي قضاها معه هناك، ثم ما جرى بعد ذلك من تصاعد الموقف في عمان على أثر الصدام بين الملك حسين والفلسطينيين، وأخيراً حالت وفاة عبدالناصر في 28 سبتمبر 1970 التي كانت كما ذكر الفريق فوزي حادثاً ذا آثار إستراتيجية خطيرة، حالت دون استمرار التخطيط الزمني لبدء معركة التحرير».

نقد رواية فوزي:

قدم اللواء جمال حماد في كتابه تفنيدياً مفصلاً لرواية الفريق محمد فوزي بشأن خطة العمليات التي وضعها ورجاله لتحرير سيناء، وفي هذا يقول «رغم ما ذكره الفريق فوزي في مذكراته بشأن الخطة الهجومية «200 الشاملة» ومرحلتها الأولى

«جرانيت» فإن هناك عدة حقائق مهمة تجعلنا نشك في صحة ما سجله سواء من ناحية الخطة الهجومية التي وضعها أو من ناحية إتمام القوات المسلحة استعداداتها لشن الهجوم في التاريخ الذي حدده. وتتلخص هذه الحقائق فيما يلي:

أولاً: ليس من المعقول أن يعامل عبدالناصر الذي عرف عنه الالتزام وتقدير المسؤولية القرار المصري الذي كان يتوقف عليه مصير بلاده بل مصير عبدالناصر نفسه ونظام حكمه بهذه الخفة والاستهانة اللتين لا مثيل لهما. فلقد انشغل عن القائد العام الذي كان يحمل في حقيته أخطر قرارات الحرب وأشدها سرية مدة أربعة أيام كاملة، نظراً لوصول القذافي وبرفقته بعض الضيوف من ليبيا، ثم بلغ انشغاله عن قائده العام إلى الحد الذي جعله يعطي الفريق فوزي تصديقاً شفهيّاً على تنفيذ الخطة «200 الشاملة»، على أن يركز على تنفيذ الخطة «جرانيت» أولاً، وذلك بعد انتهاء وقف إطلاق النار المؤقت في 7 نوفمبر 1970، دون أى مناقشات أو دراسة أو اطلاع على خرائط الموقف.

ثانياً: في الوقت الذي سجل فيه فوزي في مذكراته أن قياس قدرات قواتنا مع قوات العدو في أواخر عام 1970 وأوائل عام 1971 كان لصالح قواتنا عدداً وتسليحاً وكفاءة في كل أفرع القوات المسلحة، وأن توقيت معركة التحرير (نهاية عام 1970) وتنفيذ الخطة الموضوعة التي تم التدريب عليها عملياً وهي الخطة «جرانيت» واستكمالها بـ«الخطة 200 الشاملة» كان توقيتاً مخططاً وسليماً، وأن ميزان القوى كان إلى جانب مصر -نجد أن الفريق سعد الشاذلي يسجل في مذكراته أنه عندما بدأ عمله بعد تعيينه رئيساً للأركان في 16 مايو 1971 بدراسة إمكانات القوات المسلحة الفعلية ومقارنتها بالمعلومات المتيسرة عن العدو، أنضح له أنه ليس من الممكن القيام بهجوم واسع النطاق يهدف إلى تدمير قوات العدو وإرغامه على الانسحاب من سيناء وقطاع غزة، وأن إمكانات القوات المسلحة الفعلية قد تمكنها -إذا أحسن تجهيزها وتنظيمها- من القيام بعملية هجومية محدودة تهدف إلى عبور قناة السويس وتدمير خط بارليف، ثم التحول بعد ذلك لإلى الدفاع.

ثالثاً: إن مجريات الحوادث عقب وفاة عبدالناصر وتسلم السادات مسؤولية الحكم لا تدل مطلقاً على أن القوات المسلحة المصرية كانت على تمام الاستعداد للمعركة، وأن الفريق فوزي كان جاداً للبدء في حرب التحرير بمجرد انتهاء فترة وقف

اطلاق النار المؤقت في 7 نوفمبر 1970، فإن وفاة عبدالناصر في 28 سبتمبر لا يمكن أن تكون مبرراً معقولاً لمنع القائد العام للقوات المسلحة من شرف البدء في حرب التحرير التي أتم تجهيزاته وأعد خطته لها لاسترجاع قطعة غالية من ارض الوطن. فضلاً عن ذلك، فإن اتمام تجديد فترة وقف اطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر أخرى انتهت في 7 فبراير 1970، ثم تجديدها مرة ثانية لمدة شهر انتهى في 7 مارس 1971 أمر يدل بوضوح على عدم استعداد القوات المسلحة وقتئذ لخوض المعركة. وعلاوة على ذلك فإن الوثيقة التي أكد الفريق فوزي أنها كانت تتضمن تنفيذ الخطة «جرانيت» أي الوصول إلى المضائق، اتضح عند عثورنا عليها أن كل ما كانت تتضمنه هو مجرد القيام بعمليات محدودة ابتداء من الأسبوع الأول من شهر يونيو 1971، وهى عمليات تماثل إلى حد كبير العمليات التي تم التدريب إليها في نهاية حرب الاستنزاف قبل أن تتوقف في 8 أغسطس 1970 على أثر مبادرة روجرز، أى أنه لا توجد ضمن هذه الوثيقة أي عبارة تشير إلى تحرير الأرض أو إلى الخطة جرانيت أو إلى الوصول إلى منطقة المضائق. خامساً: سجل الشاذلي في مذكراته ما يهدم أقوال الفريق أول محمد فوزي من أساسها، فقال «عندما عينت رئيساً لأركان حرب القوات المسلحة في 16 مايو 1971 لم تكن هناك خطة هجومية. لقد كانت لدينا خطة دفاعية تسمى «الخطة 300»، وكانت هناك أيضاً خطة تعرضية أخرى تشمل القيام ببعض الغارات على مواقع العدو في سيناء، ولكنها لم تكن في المستوى الذي يسمح لنا بأن نطلق عليها خطة هجومية، وكانت تسمى (جرانيت)».

أهداف «المآذن العالية» :

يواصل اللواء حماد سرده لمراحل التخطيط لحرب أكتوبر فيقول أكد الفريق الشاذلي في مذكراته، أن أول خطة هجومية وضعت في القوات المسلحة المصرية كانت خطة «المآذن العالية»، وأن كل ما وضع قبل هذه الخطة لم يكن سوى مشروعات تعليمية تفترض وجود قوات وأسلحة ومعدات لا تملكها، وتذكر فقط في المشروعات لأغراض التدريب. وبالطبع يوجد فرق كبير بين مثل هذه المشروعات التعليمية وخطط العمليات التي توضع على أساس القوات والأسلحة الموجودة بالفعل. ووصف الشاذلي كيف أطلق على الخطة الهجومية الموضوعية اسم «المآذن العالية» فقال: إنه بعد الانتهاء من تجهيز الوثائق الخاصة بهذه الخطة كان المفترض أن يطلق عليها اسماً

كودياً، وعندما حضر إليه رئيس العمليات وقتئذ اللواء ممدوح تهاوى يسأله عن الاسم المقترح سمعنا صوت المؤذن يؤذن لصلاة العصر. وفي وسط هذا الجو الروحاني توصلًا إلى إطلاق اسم «المآذن العالية» على الخطة، وكان الهدف النهائي لها مقصورًا على عبور قناة السويس وتحطيم خط بارليف وإنشاء منطقة رءوس كباري على عمق 1012 كم شرق القناة.

دافع الشاذلي عن اقتصار خطته على ذلك الهدف العسكري المتواضع بقوله «لو كان لدى مصر الامكانيات العسكرية التي تضمن لنا الاندفاع إلى المضائق واحتلالها فور عبور قناة السويس ولم نقم بتنفيذ ذلك، فإننا نكون قد ارتكبنا خطأ عسكريًا جسيمًا، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو: هل كانت لدينا الإمكانيات؟ ويجب الشاذلي بقوله: إننا لم نكن نملك وقتئذ الإمكانيات التي تتيح لنا الفرصة للاندفاع إلى المضائق لضعف قواتنا الجوية وعدم قدرتها على حماية قواتنا البرية في أثناء تقدمها شرقًا في اتجاه منطقة المضائق، وعدم توافر وحدات دفاع جوي صاروخي (سام 6) تستطيع مرافقة القوات البرية في أثناء تقدمها نحو الشرق لصد الهجمات الجوية المعادية التي تهاجم قواتنا على الارتفاعات المتوسطة والعالية، فضلًا عن عدم توافر العربات ذات الجنزير لدى القوات البرية بأعداد كافية تسمح لقواتنا بعدم التقيد بالطرق المرصوفة في أثناء تحركها شرقًا.

الخطة «بدر»

يؤكد حماد في كتابه أنه عقب تعيين الفريق أحمد إسماعيل وزيرًا للحرية وقائدًا عامًا للقوات المسلحة في 26 أكتوبر 1972، عرض عليه الشاذلي الخطة الهجومية لمناقشتها معه، وكان إسماعيل قد سبق له تقديم تقرير عن الموقف العسكري تضمن وجهة نظره عندما كان مديرًا للمخابرات العامة، وذلك في النصف الأول من عام 1972. وفي هذا التقرير ذكر أن مصر ليست على استعداد للقيام بحرب هجومية، وحذر من أنه لو قامت مصر بشن الحرب تحت هذه الظروف فإن ذلك يقود إلى كارثة، وعرض هذا التقرير في الاجتماع المصغر الذي تم يوم 6 يونيو 1972 في استراحة الرئيس بالقناطر، والذي حضرته الدائرة الصغرى من أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة، وعرض فيه اللواء عبدالغنى الجمسى رئيس هيئة العمليات تقريرًا شاملًا عن موقف القوات المسلحة. وعندما عرض الشاذلي على إسماعيل الخطة «جرانيت 2» التي

كانت تستهدف الوصول إلى المضائق، و«المآذن العالية» التي كانت تستهدف مجرد إنشاء منطقة رءوس الكباري على عمق 10—12 كم شرق القناة، اقتنع إسماعيل بعدم قدرة القوات المسلحة على تنفيذ «جرائت 2»، واستقر رأيه على التركيز على خطة «المآذن العالية»، وتحدد ربيع عام 1973 كميعاد محتمل للهجوم. وفي 10 يناير 1973 صدر قرار من مجلس اتحاد الجمهوريات العربية بتعيين الفريق إسماعيل قائداً عاماً للقوات الاتحادية. وفور صدور تعيينه واللواء بهي الدين نوفل رئيساً لهيئة عمليات القيادة الاتحادية، بدأت هذه القيادة تمارس عملها في التخطيط لعملية هجومية على الجبهتين المصرية والسورية في توقيت واحد، ووضع أسس التعاون الوثيق بينهما في المراحل المختلفة للمعركة، وأفضل السبل لاستخدام القوات المسلحة في الدولتين في عملية واحدة منسقة.

نتيجة لدراسة الوضع الإستراتيجي على الجبهتين يقول حماد «حدث تبدل كبير في تفكير الفريق إسماعيل بالنسبة للخطة المصرية «المآذن العالية» فوجد أنه من الضروري تعديلها لتشمل الاستيلاء على خط المضائق الإستراتيجية بسيناء؛ لأن ظروف الجبهة السورية من الناحيتين الجغرافية والإستراتيجية كانت تفرض أن يكون غرض الهجوم السوري هو تحرير هضبة الجولان بأكملها، ووصول القوات السورية إلى خط (نهر الأردن الشاطئ الشرقي لبحيرة طبرية) لأن عمق هضبة الجولان في أوسع أجزائها لا يزيد على 25 كم مع خلوها من أي موانع طبيعية، مما يجعل أرض المعركة في هذه الجبهة مع إسرائيل متصلة؛ وبالتالي يصبح من الصعب توقف القوات السورية إلا عند الوصول إلى الغرض النهائي بسبب الطبيعة الجغرافية للهضبة السورية. وكان المنتظر أن يثير ذلك الوضع اعتراض القيادة السورية، إذ إن تركيز المجهود الرئيسي لإسرائيل ضد الجبهة السورية كما كان منتظراً دون أن يقابله قيام القوات المصرية بضغط مركز على القوات الإسرائيلية التي تواجهها كان يعني إتاحة الفرصة للقيادة الإسرائيلية لكي تقوم بعملية تثبيت للقوات المصرية في الجنوب بينما تلقي بكل ثقلها ضد القوات السورية المتقدمة في مرتفعات الجولان في الشمال. ورغم الاعتراضات التي تقدم بها الفريق الشاذلي للقائد العام أحمد إسماعيل حتى لا تجرى أي تعديلات في خطة «المآذن العالية» نظراً لأن إمكانات وقدرات القوات المسلحة المصرية لم تتغير عما كانت عليه منذ وضع هذه الخطة، فإن الوضع الإستراتيجي على الجبهتين أدى

إلى تصميم إسماعيل على ضرورة تعديل الخطة المصرية لتتلاءم مع الخطة السورية. وبناء على ذلك، أخذت هيئة العمليات الحربية المصرية التي كان يرأسها وقتئذ اللواء عبدالغنى الجمسى في تجهيز خطة عمليات جديدة تشمل تطوير الهجوم شرقاً بعد العبور للوصول إلى خط المضائق. ولأن الخطة الجديدة كانت بالضبط هي الخطة «جرانيت 2» مع إدخال بعض التعديلات عليها، لذلك سميت هذه الخطة باسم (جرانيت 2 المعدلة) ولكن تم تغيير اسمها بعد ذلك في شهر سبتمبر 1973 أى قبل شن الهجوم بشهر ليكون (الخطة بدر).

تبعاً لذلك أصبح يطلق على خطة العبور وإنشاء رءوس الكبارى اسم (المرحلة الأولى)، بينما أطلق على خطة التطوير شرقاً للوصول إلى المضائق اسم (المرحلة الثانية)، ولإيجاد فاصل بين المرحلتين كان يقال عند الانتقال من ذكر الأولى للثانية عبارة «وبعد وقفة تعبوية» يتم القيام بتطوير الهجوم شرقاً.

مراحل الاستعداد النهائى للعبور

بعد أن انتهى اللواء جمال حماد من عرض تطور التخطيط المصرى لتحرير سيناء فى كتابه المهم «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»، انتقل للحديث عن "مراحل الاستعداد النهائى لعبور الجيش المصرى قناة السويس واقتحام خط بارليف"، على صعيد اختيار أنسب الأيام للهجوم (يوم ي)، وأنسب الساعات (ساعة س) فى هذا اليوم. ويقول حماد "إن الفريق أول أحمد إسماعيل، وزير الحربية والقائد العام وقتئذ ذكر فى حديث له أن البحث «كان يدور للاهتمام إلى ليلة تتوافر فيها مجموعة من الميزات، وهى أن تكون مقمرة يتصاعد فيها القمر معنا فى الساعات الحاسمة، ويكون تيار القناة فيها مناسباً للعبور من ناحية السرعة، ويكون عملنا فيها بعيداً عن توقعات العدو.. ليلة لا يكون العدو فيها مستعداً للعمل. وأضاف الفريق إسماعيل أن «الميزات السابقة هي التي حددت لنا يوم 6 أكتوبر قبل أن يحل بشهور، لعدة أسباب منها الحسابات الفلكية التي كانت تدل على أن القمر فى تلك الليلة ينمو فى أول الليل ثم يغيب فى آخره، والعدو لا يتوقع منا العمل فى شهر رمضان، كما أنه مشغول بمناسبات مختلفة بينها انتخاباته العامة التي تشد اهتمام الجميع».

من وجهة تحديد ساعة (س) أى ساعة الهجوم، فقد ذكر إسماعيل فى حديثه أن الموعد ظل إلى ما قبل بدء القتال موضوع مناقشة بين القيادتين المصرية والسورية،

فقد كان السوريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس معهم ضد العدو يفضلون العمل مع أول ضوء في الفجر، وكان المصريون لعدة أسباب من بينها اتجاه الشمس وضرورات العبور ونصب الكباري وفتح الطريق لدخول المعدات الثقيلة كالدبابات والمدافع في الظلام يفضلون العمل في آخر ضوء في المساء. ونوه المؤلف إلى أن الفريق إسماعيل بوصفه قائدًا عامًا للجبهتين المصرية والسورية بعث إلى السوريين يوم 30 سبتمبر بإشارة التحذير بأن العملية محتملة في أي وقت، وسافر هو بنفسه يوم 2 أكتوبر إلى دمشق وحدثت مناقشات عديدة بينه وبين القادة السوريين حول ساعة الهجوم، وبعد دراسة تفصيلية تم الاتفاق على أن تكون الساعة الثانية بعد الظهر، وصدق الرئيس حافظ الأسد على ذلك، وكان اختيار ذلك التوقيت أمرًا غريبًا، فلم يكن منتظرًا ولا مألوفًا في الحروب، فإن هذا الموعد هو وقت ظهيرة وغداء وراحة. وكان يوافق يوم عيد الغفران لدى إسرائيل وهو إجازة من العمل والطعام والشراب، ومن المعتاد في الحرب أن تكون الضربات الجوية وبدء الهجوم العام قبل أول ضوء أو قبل آخر ضوء، أما في منتصف النهار، فلم يكن ذلك أمرًا مألوفًا. وكانت إسرائيل تفخر دائمًا بأنها هي التي تبدأ الحرب وهي التي تنتهيها كما حدث في حربي 1956 و1967، ولكننا في حرب 1973 اختطفنا منها ميزة المبادأة، ووجدت نفسها لأول مرة في موقف الدفاع.

تجهيز مسرح العمليات

ينتقل حماد بعد ذلك للحديث عن أعمال القوات المصرية والإسرائيلية فيما يخص تجهيز مسرح العمليات، ويسرد فيه تطور تجهيز هذا المسرح منذ حرب يونيو 1967 بعد أن فقدت إسرائيل الأمل الذي ظل يراودها طويلًا، وهو أن تقبل مصر عقد معاهدة للصلح معها، وخاصة بعد الهزيمة التي منيت بها في حرب يونيو، وقام الجانبان بتنفيذ مخططيتهما على مراحل بدأت بإعداد وتجهيز المواقع والنطاقات الدفاعية بالقرب من القناة وفي العمق، ثم تطورت إلى التحضير للعمليات التعرضية. واستمرت هذه الأعمال حتى انطلقت الشرارة الأولى لحرب أكتوبر 1973.

يؤكد اللواء حماد في كتاب «المعارك الحربية على الجبهة المصرية» أن «عملية اقتحام مانع مائي مثل قناة السويس ضد عدو يتمركز في نقط قوية محصنة تحصينًا جيدًا على الجانب الآخر من أصعب العمليات الحربية وأكثرها تعقيدًا، خصوصًا أن

عبور المانع المائي تم بواسطة خمس فرق مشاة وعلى مواجهة قدرها 160 كم. وكان التخطيط موضوعاً على أن الموجة الأولى من قوات العبور تتكون من الأنساق الأولى لكتائب النسق الأول على طول القناة، وكان عليها عبور القناة في قواربها المطاطية والخشبية تحت ستر غلالة من قصفات المدفعية في نقط بعيدة عن النقط الإسرائيلية الحصينة، ثم تتسلق الساتر الرملي الناعم المقام على الشاطئ الشرقي للقناة، وتلقي السلام إلى الجانب الآخر لكي يسهل بعد ذلك للموجات الأخرى التي ستتبعها من المشاة اجتياز الساتر الرملي.

يذكر حماد أن المهمة التي كانت مخصصة لقوات الموجة الأولى هي الاندفاع السريع نحو خط النسق الثاني للدفاعات الإسرائيلية مع تجاهل النقط الحصينة من حصون خط بارليف المقامة في النسق الأول على الشاطئ الشرقي للقناة. ولكي يمكن نجاح القوات المصرية في هذه المهمة، خصصت عناصر معينة سميت «جماعات اقتناص الدبابات» لمواجهة الدبابات الإسرائيلية الموجودة بدفاعات النسق الثاني، والتي كان من المفترض اندفاعها في اتجاه قناة السويس بمجرد بدء عملية العبور.

يشير حماد في كتابه إلى أن «التخطيط المرسوم كان يقضى بأن تتجه الموجة الثانية من المشاة بعد عبور القناة نحو اليمين ونحو اليسار في اتجاه النقط الحصينة من خط بارليف لتطويقها واقتحامها، ونظراً لأنها كانت في حاجة إلى المعاونة بقذائف ناسفة للتحصينات من مدافع الضرب المباشر، اتخذت الترتيبات ضمن خطة المدفعية كي تتولى مدافع الضرب المباشر من مصاطبها على الشاطئ الغربي للقناة معاونة المشاة في اقتحام هذه النقط الحصينة. ونظراً لتوقع قيام العدو بإشعال سطح مياه القناة بالنابالم السائل من تجهيزات إشعال اللهب المقامة داخل حصون خط بارليف، فقد أرسلت جماعات من أفراد الصاعقة والمهندسين المصريين يوم 5 أكتوبر لقص الخراطيم التي كان مفروصاً طبقاً لخطة العدو أن تحمل كميات هائلة من النابالم وتلقيها في القناة لكي تشتعل بالنار عند الإحساس ببدء العبور.

يؤكد حماد أنه «نظراً لأن التوجيه الإستراتيجي الصادر في 5 أكتوبر 1973 كان ينص على تحرير الأرض المحتلة على مراحل متتالية حسب نمو وتطوير إمكانات القوات المسلحة، فقد تركت الأهداف العسكرية مرنة تسمح بالتغيير والتبديل على ضوء الموقف العسكري وكانت الخطة العسكرية (بدر) مبنية على الأسس التالية المهمة

المباشرة: اقتحام قناة السويس، وتدمير خط بارليف، وإنشاء منطقة رءوس كباري على الشاطئ الشرقي للقناة على عمق 1012 كم، وصد وتدمير الهجمات المضادة التي يقوم العدو بشنها.

المهمة الثانية

بحسب حماد فهي «بعد وقفة تعبوية أو بدون وقفة تعبوية، تطوير الهجوم نحو الشرق للاستيلاء على خط المضائق الجبلية الإستراتيجية، وهي من الشمال إلى الجنوب (الختمية الجديمتلارأس سدر)»، ولتنفيذ الخطة الهجومية «بدر» تم حشد القوات المصرية في منطقة البحر الأحمر العسكرية والجيشين الثالث والثاني الميدانيين، وتحديد الأنساق الأمامية والاحتياطية. في الساعة الثانية تمامًا، قامت أكثر من 200 طائرة مصرية من المقاتلات والمقاتلات القاذفة من طراز «ميج 21» و«ميج 17» و«سوخوى 7»، بعبور قناة السويس في اتجاه الشرق على ارتفاع منخفض، بعد أن أقلعت من 20 قاعدة جوية لتنفيذ المهمة المتمثلة في الضربة المركزة الأولى في عمق سيناء، والتي شملت مركز قيادة العدو في «أم مرجم» ومركز الإعاقة والشوشرة في جبل «أم خشيب» ومطاري «المليز» و«بير قنادا»، ومناطق تركز احتياطات العدو ومواقع بطاريات الصواريخ «هوك» المضادة للطائرات ومحطات الرادار ومدفعية العدو بعيدة المدى من عيار 175 مم، وبعض مناطق الشئون الإدارية وحصن بودابست (من حصون خط بارليف) الذي يقع على الضفة الرملية شرق بور فؤاد.

يؤكد حماد أن الضربة الجوية نجحت نجاحًا مؤثرًا، وعادت الطائرات في الساعة الثانية وعشرين دقيقة بعد أداء مهمتها خلال ممرات جوية محددة تم الاتفاق عليها بين قيادة القوات الجوية وقيادة الدفاع الجوي من حيث الوقت والارتفاع. وكانت خسائر الضربة الجوية المركزة عبارة عن 5 طائرات. ويواصل حماد سرده لمراحل عملية العبور بقوله في الساعة الثانية وخمس دقائق، بدأت 2000 قطعة مدفعية وهاون ولواء صواريخ تكتيكية أرض أرض، التمهيد النيرانى الذى يعد واحدًا من أكبر عمليات التمهيد النيرانى في التاريخ. وقد قام بالتخطيط له اللواء محمد سعيد الماحي قائد المدفعية، واشتركت فيه 135 كتيبة مدفعية وعدة مئات من مدافع الضرب المباشر، كانت تتبع العميد محمد عبدالحليم أبو غزالة قائد مدفعية الجيش الثانى والعميد منير شاش قائد مدفعية الجيش الثالث. وتم تنفيذ التمهيد النيرانى على طول خط

المواجهة مع العدو في أربع قصفات استغرقت 53 دقيقة عن طريق الرمي المباشر وغير المباشر على نقط العدو الحصينة واحتياطاته القريبة ومرابض مدفعياته ومراكز قياداته. وقد صبت المدفعية على مواقع العدو ما يبلغ وزنه 3000 طن من الذخيرة، وكان عدد دانات المدفعية في الدقيقة الأولى 10.500 دانة، أي بمعدل 175 دانة كل ثانية. يؤكد المؤلف أن مدفعية الضرب المباشر احتلت مصاطب الدبابات والسواتر الترابية على الشاطئ الغربي للقناة خلال القصفة الأولى من التمهيد النيراني، وذلك لمنع العدو من احتلال السواتر الترابية ومصاطب الدبابات على الشاطئ الشرقي للقناة، وشل حركة النقط الإسرائيلية الحصينة، ولكي توفر لقواتنا في أثناء اقتحامها للقناة ومهاجمتها للنقط الحصينة المعاونة المباشرة بإزالة الأسلاك الشائكة وحقوق الألغام وتدمير الدشم والمزاغل وأبراج الملاحظة في النقط القوية. أما المدفعية المتوسطة من مدافع عيار 130 مم وهاونزر عيار 152 مم ذاتي الحركة فكانت مخصصة للتعامل مع البطاريات الإسرائيلية المتمركزة في العمق. ومع بدء التمهيد النيراني، بدأت مجموعات اقتناص الدبابات عبور قناة السويس بواسطة قوارب مطاطية، والقيام بمهمة تدمير دبابات العدو ومنعها من التدخل في عمليات عبور القوات الرئيسية وحرمانها من استخدام مصاطبها بالسائر الترابي على الضفة الشرقية للقناة. ويسجل حماد أن وقائع القتال أثبتت أن العدو، علاوة على المفاجأة الاستراتيجية التي حاقت به، لحقته أيضًا مفاجأة تكتيكية، إذ لم يتمكن من رفع درجة الاستعداد لقواته إلى الحالة القصوى ساعة الهجوم، ولم تحتل دباباته الموجودة بالنسق الثاني أماكنها المحددة لها لتدعيم حصون خط بارليف وسد الثغرات التي بين نقاطه القوية، وعندما فكرت في ذلك تصدت لها مجموعات اقتناص الدبابات التي سبقتها في احتلال بعض المصاطب المخصصة لها في الخط الدفاعي الأول، مما أدى إلى تدمير أعداد كبيرة منها بواسطة هذه المجموعات.

موجات العبور الأولى

يعود المؤلف لسرد تفاصيل ملحمة العبور فيقول «في الساعة الثانية والعشرين دقيقة، كانت المدفعية المصرية قد أتمت القصفة الأولى من التمهيد النيراني التي استغرقت 15 دقيقة، والتي تركزت على عمق يتراوح بين كيلو متر واحد وكيلو متر ونصف في اتجاه الشرق. وفي اللحظة التي تم فيها رفع نيران المدفعية لتبدأ القصفة الثانية لمدة 22 دقيقة على الأهداف المعادية إلى عمق يتراوح بين 1.5 و3 كم من

الشاطئ الشرقي للقناة، وفي هذه اللحظة (س 15+) بدأ عبور الموجات الأولى من سرايا النسق الأول من كتائب النسق الأول للفرق المشاة الخمس المكلفة بالعبور في القوارب الخشبية والمطاطية، وذلك في الفواصل بين النقاط الحصينة في خط بارليف. وفي الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة، قامت طلائع القوات التي عبرت القناة برفع أعلام جمهورية مصر العربية على الشاطئ الشرقي للقناة معلنة بدء تحرير الأرض السليبة. يشرح المؤلف مكونات موجات العبور الأولى فيقول إنها كانت «تتكون أساساً من عناصر المشاة ومعها نقط ملاحظة الأسلحة المشتركة، وكانت مدعمة بأسلحة وقواذف خفيفة مضادة للدبابات آربي جي 7 وصواريخ الكتف المضادة للطائرات سام 7 ستريلا (strella) كما زودت بسلام حبال ليتسنى للأفراد تسليق الساتر الترابي، وكذا بحبال البرلون وبحبال الجر التي كان لها أثر كبير في معاونة المشاة في جر المدافع عديمة الارتداد «ب10» و«ب11» المضادة للدبابات والصاروخ المالتوكا والقاذف R.B.G والصاروخ «سام 7» ومدفع الماكينة المتوسط 7.62 مم ومدفع الماكينة الثقيل 1207 مم، وفي تسليقها جميعاً الساتر الرملي بنجاح وفي نفس التوقيت، بدأت عناصر من كتائب الصاعقة التي تعمل تحت قيادة الجيوش الميدانية في عبور القناة للعمل ضد مراكز القيادة والسيطرة للعدو ومرابض مدفعياته بهدف إفقاده السيطرة على قواته، ولدفع الكمائن ورص الألغام على طرق اقتراب العدو وطرق تحرك احتياطاته في اتجاه حصون خط بارليف ونقطه القوية، ولمنع الدبابات المتحركة من العمق من التدخل في المعارك الدائرة للاستيلاء على الحصون والنقط القوية».

يروى حماد أنه مع تدفق موجات العبور الأولى من المشاة، بدأ الإبرار البحري لمفرزتين من اللواء 130 المشاة الميكانيكي البرمائي المستقل، وكانت كل منهما تتكون من كتيبة ميكانيكية مدعمة وذلك عبر البحيرة المرة الصغرى بغرض الاندفاع شرقاً والاستيلاء على مدخل مضيق الجدي ومضيق متلا بالتعاون مع قوة الإبرار الجوي التي سيتم إبرارها بطائرات الهليكوبتر خلف خطوط العدو. وفي الساعة الثانية وخمس وثلاثين دقيقة، قامت طلائع القوات التي عبرت القناة برفع أعلام جمهورية مصر العربية على الشاطئ الشرقي للقناة معلنة بدء تحرير الأرض السليبة. وانضمت الدبابات والأسلحة الثقيلة طوال الليل بالانضمام إلى وحدات وتشكيلات وقامت الدبابات والأسلحة الثقيلة طوال الليل بالانضمام إلى وحدات وتشكيلات المشاة في منطقة رءوس الكبارى.

الحصار البحري لإسرائيل

ينتقل المؤلف بعد ذلك في سرد الدور الحيوي الذي قامت به البحرية المصرية في هذه المعركة، فيقول: «بناء على أمر اللواء بحري فؤاد أبو ذكري قائد القوات البحرية تم خروج قوة بحرية تتكون من بعض المدمرات والغواصات ولنشات الصواريخ في أول أكتوبر 1973 من أماكن رسوها في البحر الأحمر إلى عرض البحر مع الإعلان بأن وجهتها هي باكستان لإجراء عمرة ولإصلاح بعض الأجهزة والمعدات الحيوية بها، وكان خروج هذه القوة البحرية لتتخذ أوضاع القتال في باب المندب وتستعد للقيام بالمهام المحددة لها وفقاً للتلقين الذي تلقاه قادتها، يعني أن الحرب قد بدأت بالنسبة لهذه القوة منذ أول أكتوبر، فقد فرضت لأغراض الأمن والسرية ضرورة التزام هذه القطع البحرية بصمت اللاسلكي طوال مدة إبحارها حتى لا يلتقط العدو الإشارات اللاسلكية المتبادلة بينها وبين قيادتها ويضيع عامل المفاجأة، ولم تكن هناك أي وسيلة للاتصال بهذه القطع البحرية إلا بعد بدء العمليات الفعلية في 6 أكتوبر وكسر صمت اللاسلكي.

يروى حماد أنه للتأكيد على القيادة العامة بهذه الحقيقة اتصل اللواء بحري فؤاد أبو ذكري بالقيادة العامة قبل خروج القوة البحرية في أول أكتوبر لإفادتها بأنه عقب إبحار هذه القوة لن تصبح لديه أي وسيلة للاتصال بها، وعندما نشبت الحرب، تم إبلاغ القوة البحرية المصرية التي كانت قد وصلت إلى مياة باب المندب بالكلمة الكودية عن طريق اللاسلكي لكي تبدأ في تنفيذ المهام الموكلة إليها. وبهذا سددت البحرية المصرية ضربة استراتيجية كبرى إلى إسرائيل لم تكن تخطر لها على بال، فقد تمت سيطرة القطع البحرية المصرية على مضيق باب المندب (المدخل الجنوبي للبحر الأحمر)، وظهرت فجأة المدمرات والغواصات ولنشات الصواريخ لتباشر حق التفتيش واعتراض السفن التجارية التي ترفع العلم الإسرائيلي وكذا السفن الأخرى من مختلف الجنسيات التجهة إلى إسرائيل، وهو حق يكفله لها القانون الدولي. وقطعت البحرية المصرية بهذا الحصار الذي فرضته، الشريان الحيوي لإسرائيل الذي يربطها بأفريقيا وآسيا والذي اتخذته في حربي 1956 و1967 ذريعة لكي تمنع سيطرة مصر على مضائق تيران وشرم الشيخ على مدخل خليج العقبة حتى لا تقطع مصر عنها الطريق إلى ميناء إيلات.

لقد أفاد العمق الإستراتيجي للوطن العربي القطع البحرية المصرية وهياً لها إمكانات ممتازة من حيث التمرکز في موانئ صديقة والتزود بكل حاجاتها من الوقود والطعام والمياه، وكان اختيار مضيق باب المندب المتحكم في المدخل الجنوبي للبحر الأحمر لفرض الحصار البحري على إسرائيل والتعرض لخطوط مواصلاتها البحرية عملاً إستراتيجياً بارعاً، إذ لم يكن في مقدرة الطائرات الإسرائيلية ولا القطع البحرية الإسرائيلية الوصول إلى هذا المضيق الذي يبعد عنها أكثر من 2500 كم للقيام بعملية فك الحصار.

يؤكد حماد على أن هذه الصدمة العنيفة أثرت على القيادات الإسرائيلية إلى الحد الذي جعل موشي ديان وزير الدفاع يأمر بمنع نشر أي أنباء عن الحصار البحري المصري في أي وسيلة من وسائل الإعلام الإسرائيلية، وفي الوقت الذي عجزت فيه البحرية الإسرائيلية عن المساس بأمن وسلامة قواتنا البحرية.

دور المهندسين العسكريين

اهتم اللواء جمال حماد في كتابه بسرد تفاصيل كثيرة عن الدور البطولي والمحوري الذي قام به سلاح المهندسين العسكريين لإتمام عملية العبور، وفي هذا يقول «إن العبور العظيم الذي تم يوم 6 أكتوبر عام 1973 والذي عبر به العرب من مذلة الهزيمة إلى قمة النصر كان في مرحلته الأولى عملية مهندسين بحتة، ولولا فتح الثغرات في الساتر الترابي على الضفة الشرقية وتركيب الكباري الثقيلة والخفيفة لعبور المدرعات والمركبات، وإقامة كباري الاقتحام لعبور المشاة، وتجهيز وتشغيل المعديات لنقل الدبابات والأسلحة الثقيلة، وتشغيل آلاف القوارب التي حملت عشرات الألوف من أفراد المشاة إلى الشاطئ الشرقي للقناة -لولا كل هذه المهام التي قام بها المهندسون في وقت واحد تقريباً وتحت سيل منهمر من نيران وقذائف وصواريخ العدو من البر والجو لما أمكن ملحمة العبور أن تتم، ولما تيسر اقتحام قناة السويس أصعب مانع مائي في العالم خلال ساعات معدودة على مواجهة حوالى 160 كيلومتراً بقوة خمس فرق مشاة تتكون من حوالى 80 ألف جندي بكامل معداتهم وأسلحتهم ومركباتهم في 12 موجة متتالية، مستخدمين المعابر والتجهيزات التي أعدها المهندسون لهم لعبور القناة، ولتعزيز مواقعهم على الشاطئ الشرقي لها فور وصولهم.

قائمة المصادر

1. مولعًا برواية قصة حياته للعالم "من أوراق السادات" إلى "البحث عن الذات"، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
2. مذكرات مشير النصر أحمد إسماعيل، رأي اليوم اللندنية، 5 تشرين الأول/أكتوبر 2019. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
3. حرب 1973 في رواية سعد الدين الشاذلي، القدس العربي 21 تشرين الأول/أكتوبر 2019. كذلك: مذكرات سعد الدين الشاذلي عن حرب أكتوبر، فضاية الميادين، 10 نيسان/أبريل 2017.
4. الفريق أول محمد أحمد صادق: «سنوات في قلب الصراع»، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
5. المشير أحمد بدوي.. قصة صمود السويس وصولاً لقيادة الجيش الثالث الميداني، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
6. الفريق أول كمال حسن علي.. في "مشاوير العمر: أسرار وخفايا"، مصادر عالمية، 5 تشرين الثاني/نوفمبر 2020. كذلك: رأي اليوم اللندنية.
7. محمد عبدالغني الجمسي: "ثعلب الصحراء المصري"، رأي اليوم اللندنية، 9 كانون الأول/ديسمبر 2020. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
8. قائد القوات البحرية خلال حرب أكتوبر "الفريق فؤاد أبو ذكري"، الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
9. حروب مصر المعاصرة في أوراق قائد ميداني.. عبد المنعم خليل، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
10. المشير محمد علي فهمي.. أول قائد لقوات الدفاع الجوي المصري و"حارس السماء المحرقة"، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.
11. قراءة «كلمة السر.. مذكرات محمد حسن مبارك. يونيو 67 - أكتوبر

73»، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

12. اللواء سعد مأمون: بين قيادة (القوات العربية في اليمن 1966) و(الجيش الثاني الميداني 1973)، رأي اليوم اللندنية. كذلك الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.

13. جمال حماد: «المعارك الحربية على الجبهة المصرية»، رأي اليوم اللندنية. كذلك: جمال حماد: بين روايتين للفريقين فوزي والشاذلي.. «من خطط لحرب 1973؟». الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية.